الزمن الممزق

بقلم
ثروت أباظه

اهداءات ٢٠٠٢
أسرة الدكتور/ ماهر مهران
القاهرة

الـزمـن الممـزّق

بقلم
ثروة أباظة

ان للصمت حداً

منذ أسابيع قليلة ظهرت مجموعة جديدة لعميد الرواية والقصة العربية نجيب محفوظ ومع الجهل الذي تفشى في حياتنا الأدبية ومستوى الثقافة الذي تدهور الى حضيض لم تعهده مصر كان من الطبيعي ألا يكتب أحد عن مجموعة شيخنا وامام الرواية والقصة العربية شيئاً وأجمعت عزيمتي أن أكتب أنا مكرراً تلك العجيبة التي لم تصبح عجيبة بتواتر حدوثها. فأنا كاتب من سدنة الرواية والقصة القصيرة في وطننا العربي .. ومن الطبيعي أن يكون إنتاجي أنا موضوع الكتابة ولا يكون عملي أنا الكتابة عن انتاج الآخرين، وأنا ــ والحمد لله ــ لا أشكو قلة الكتابة عني فهي موفورة كثيرة في مصر وفي العالم العربي على السواء، ولكن كل ما يكتب عن أمامنا نجيب وعني يفتقد التعمق والوصول الى الجذور ويفقدهما وانما هو في أغلب الأمر تحية يشكر عليها كاتبها أو مقارنة بين بعض أعمالنا وبعضها الآخر، أما النقد الجاد الذي يفسر العمل ويتقصى ابعاده ويذهب الى العميق من أغواره فلم يعد يطلعنا به أحد والحمد لله.

وأنا حين أهم بالكتابة عن استاذنا نجيب محفوظ لا أبلغ ما اتمنى أن يبلغه النقاد الجامعيون المتخصصون فغاية الأمر فيما اكتب ان انقل الحديث بيني وبين القارئ عن عمل عن الأعمال الكبرى التي ظهرت لشيخ الرواية والقصة العربية.

وأنا على عزيمتي هذه لا أزال وإنما تخلجت نفسي في تردد بين اقبال واحجام وفكرت ان اؤجل الكتابة عن المجموعة الجديدة للعملاق العربي وافرغ الى هؤلاء الذين راحوا يهاجمون في شخص اتحاد الكتاب، وبعضهم من كان محترماً في يوم من الأيام ثم ظل يصارع ويبذل اقصى الجهد حتى فقد احترام الناس له واصبح تمثالاً مؤسفاً للسخيمة أو صورة ممسوخة لدون كيشوت ان كان يمكن ان يمسخ دون كيشوت أكثر مما هزأت به أعماله نفسها، وبعض آخرون تاه ذكرهم وإنما عت شخوصهم بين أعمدة الأدب والصحافة فهالهم من ذكر بذكر أو اسم بسمع عنه أحد فهم يحاولون أن يختلسوا الشهرة من أسنة أقلامنا.

وهؤلاء جميعاً يأخذون على اتحاد الكتاب أنه لم يأخذ موقفاً في قضية نقاش بين وزير وكاتب ولو كان الوزير خصماً في القضية بوصفه وزيراً لأصبح من الجائز أن نلتمس لهم بعض العذر، ولكن الوزير إنسان قبل أن يكون وزيراً وقد وصف الكاتب بصفة ما دون أن يستغل منصب الوزارة في إطلاق هذه الصفة وتقدم الكاتب إلى ساحة القضاء فما شأن اتحاد الكتاب إذن بخلاف بين اثنين كليهما إنسان تصادف أن كان أحدهما وزيراً وكان الآخر كاتباً.

وهؤلاء المهاجرون يرسمون أنفسهم وكأنهم مواليد الأمس، فهم لم يشهدوا ما كتبه العقاد وشكري عن شوقي، ولم يشهدوا الخلاف بين الحكيم وطه حسين، ولم يشهدوا الصراع المرير بين أستاذنا أحمد حسن الزيات وأستاذتنا الدكتورة عائشة عبد الرحمن، ولم يسمعوا عن أكثر من هذا في جيلنا القريب الماضي، وإذا كانوا يجهلون هذا جميعاً ..

أتراهم كانوا أطفالاً في العام الماضي يوم تعرض أستاذ الأجيال توفيق الحكيم وهو رئيس اتحاد الكتاب لحملة ضارية شملت العالم العربي جميعه أيده فيها من أيده، وعارضه من عارضه، ولكن الاتحاد لم يتدخل في الأمر بجملة واحدة مع أن الصراع مع رئيسه شخصياً. لأن الاتحاد شخصية اعتبارية وكل عضو فيه له رأيه الخاص وعليه وحده أن يتحمل مسؤولية هذا الرأي

وعليه وحده ان يجيب على معارضيه، وليس من حق الاتحاد وهو جماعة الكتاب أن يأخذ جانباً من الجانبين فالذي لا شك فيه أن بين هؤلاء الأعضاء من يرى رأياً معارضاً للعضو الذي يزامله.

إنما يتدخل الاتحاد إذا حاولت سلطة ما بقوة سلطانها أن تقهر رأياً لكاتب أو تحول دون كاتب ودون حرية قلمه، وإذا منع الاتحاد الآخرين أن يقولوا رأيهم لأصبح هو نفسه قوة باغية قاهرة تحاول أن تغتصب السلطان وتمنع الآخرين أن يقولوا رأيهم.

وحين كنتب نائباً لرئيس الاتحاد هاجمتني جريدة الأهالي عاماً كاملاً يكاد لا يخلو عدد فيها من هجوم عاصف علي ومزقت كل ما هو شريف في الحياة وما ظنك بقوم كفروا بالله وهو الله يرعى مثل هؤلاء حرمة الانسان، وهاجمتهم وحدي في نطاقهم كله حتى تجرأوا وتطاولوا على نزاهة قلمي فرفعت الأمر للقضاء وتنازلت عن الحصيلة المالية للدعوى وهي عشرة آلاف جنيه للاتحاد تعففاً مني أن يدخل في ذمتي المالية مال أنا واثق أنه غير شريف وقلت الاتحاد سيوجه هذا المال في أوجه الخير وهو به أولى.

ومع ذلك لم يتدخل الاتحاد فيما بيني وبين جريدة الأهالي بجملة واحدة، ولا هو تدخل في القضية مع أن حصيلتها ستدخل الى ميزانيته، وفي هذا العالم دخلت في صراع مع أحزاب وأشخاص، وأنا رئيس للاتحاد وظل الاتحاد بعيداً كل البعد عن هذا الصراع.

وفي هذا الصراع تفضل المهاجمون علي بشتائم وليست أوصافاً وقالوا ما سمح لهم أدبهم وخلقهم أن يقولوه ومع ذلك لم يتقدم واحد من هؤلاء الذين يقيمون الدنيا الآن ويقعدونها بكلمة لوم على ألفاظ تفوه بها ادباء مشهورون وادباء معدومون يردونهم إلى شيْ من الحياء أو بقية من احترام الذات.

شغلني هذا جميعه أن أكتب عن أستاذ أجيالنا والأجيال اللاحقة لنا نجيب محفوظ ومجموعته الجديدة « التنظيم السري ».

والآن وبعد أن كتبت ما كتبت أجد نفسي قد تركت قمة الفن الروائي والقصص إلى حضيض من بعض الصحافة والصحفيين.

وهيهات أن يجتمع النقيضان ولست أرضى من بعد أن يصاحب هذا الكلام حديث عن نجيب محفوظ الذي أعتبره قمة في كل ناحية من نواحي الحياة فهو شخص غريب عن زمنه صاحب المثل العليا يعتنقها وينفذها وهو صاحب القلم العف واللسان النقي والضمير الشريف وأن يجتمع كل هذا جميعاً مع نجيب محفوظ عميد الرواية والقصة الحديثة أمر يجعلني ظالماً غاية الظلم لو أنني حاولت بعد ذلك أن أكتب عن مجموعته.

فليس غريباً أن أترك القمة التي كنت أنوي أن أكتب عنها لأواجه هذا السيل من السخف مرتئياً أن الفترة لا تسمح لي بتأجيل ما كتبت أما الكتابة عن نجيب محفوظ فستظل في موقتها إلى ما بعد الزمان والى أن تتخطى الخلود.

قمة جديدة عند نجيب محفوظ

أستاذنا نجيب محفوظ من أعظم من عرفت إلماماً بالثقافات المختلفة فهو قد تخرج في قسم الفلسفة من كلية الأداب وكان وهو طالب شغوفاً كل الشغف بالأدب فأجاد القراءة بالانجليزية وأجاد القراءة بالفرنسية وقد استطاع أن يقرأ الأدب العالمي بهاتين اللغتين فقد ترجم اليهما كل الأدب العالمي الذي لم يترجم إلى العربية. وقد نشأ أستاذنا نجيب في فترة كانت حركة الترجمة إلى العربية مزدهرة فيها غاية الازدهار الأمر الذي جعلنا من الجيل التالي له نقرأ الأدب العالمي كله باللغة العربية وما تخلفت عنه اللغة العربية أدركتنا فيه اللغة الانجليزية التي استطاع أغلب جيلنا أن يجيدها.

واستطاع نجيب محفوظ أن يقسو على نفسه فيقرأ من الروايات والأعمال العالمية ما يتنافر مع ذوقه ولو ترك نفسه على سجيتها لعزف عن هذه القراءة لتلك الكتب العسيرة البعيدة من الجاذبية. ولكن الأمر عنده كان جداً لا هزل فيه ولم تكن القراءة عنده مجرد متعة وإنما اعتبرها ضرورة لا غنى عنها للروائي القصاص.

وبما اكتسب من الفلسفة درس النظريات الفلسفية جميعها وتتبعها حتى آخر ما وصلت إليه الفلسفة.

وبهذه العقلية نفسها قرأ في الصوفية قراءة متمعنة دارسة لا تكتفي بمجرد الالمام وإنما تعمق الصوفية إلى جذورها وترى آثارها واضحة كل الوضوح

في اللص والكلاب والشحاذ وأولاد حارتنا والحرافيش بل لا تكاد تخطئها في أغلب قصصه القصيرة ورواياته على السواء.

ونجيب محفوظ سياسي بكل نقطة دم تجري في عروقه وهو سياسي مصري بكل خلجة قلب له ولهذا لم يكن عجيباً أن يكون من أعظم من عرفت دراسة للتاريخ المصري وللتاريخ العالمي لأن مصر كانت دائماً على صلة وثيقة بسياسة العالم. ولهذا لم يكن عجيباً كذلك أن يفكر نجيب في بداية حياته الفنية أن يتناول تاريخ مصر من أوائل التاريخ الفرعوني إلى العصر الذي كتب فيه القاهرة الجديدة. ولم يقف به الأمر عند التفكير بل أنه كتب رواياته الفرعونية الثلاث الاولى ثم حين ألقى نظرة إلى ما بعد ذلك وجد أنه لو أصر على ما يخطط له فإنه لن يصل إلى ثورة عرابي إلا بعد أن يتخطى مائة عام أو أكثر من عمره المديد إن شاء الله فقفز قفزته التاريخية من كفاح طيبة إلى كفاح القاهرة وكتب القاهرة الجديدة وخان الخليلي. وسار طريقه الذي نعرفه جميعاً أظفاره ناشبة في قلب الظالمين لمصر وسيفه مشهر عليهم وقلبه ينبض بحب مصر نبضاً عالي الرنين أحياناً أو نبضاً رامزاً أعظم قوة وأعلى صوتاً من الأدب الصريح.

وربما لا يعرف الكثير أن نجيب محفوظ من أعظم الناس تعمقاً في العلوم وفي تتبع الفكر العالمي الانساني على مدى التاريخ لا يكتفي بأشخاص العلماء وإنما يتعرف في تفهم أصيل على ما اكتشفوه وما قدموه للانسانية.

نجيب محفوظ هو هذا جميعه أو هذا جميعه هو بعض من نجيب محفوظ وقد يكون بين المثقفين من هو مثله ولو أنني أشك في ذلك كثيراً.

ولكن الأمر المذهل أن تجتمع كل هذه الثقافات عند فنان ثم تقرأ له فتجد هذا الجيل الشماء من شتى مناحي المعرفة تختفي تماماً عند الفنان لا تظهر في واجهة أدبه وإنما هي تقف وراء فنه مثل موسيقى السماء تدركها ولا تسمعها ويتنابض بها قلبك ولا تصك أذنك أو تصدم عينيك.

فهو روائياً وقصاصاً فنان فقط يعرف قلمه الروائي القصص طريقه في شموخ مرتفع شاهق وفي غير ترفع أو تكبر أو تعالٍ على القراء.

ونجيب محفوظ هو أعظم معالم تاريخ الرواية والقصة العربية على الاطلاق وقد ألفت عنه الكتب الوفيرة ولست من السذاجة إلى درجة أن أحاول إرسال الأدلة على هذا الذي أقول وإنما أسوق هذه الحديث الاجمالي المتعجل الذي ينبئ ولا يشرح ويشير ولا يدلل ويجمل ولا يفصل لأتحدث عن مجموعته الأخيرة « التنظيم السري » التي ظهرت في أيامنا القريبة الماضية.

ومرة أخرى لن أحاول أن أرمي بنفسي إلى العثار فأتتبع قصص المجموعة واحدة بعد الاخرى وأكتب ما خالجني وأنا أقرأ كل قصة فيها وإنما قصارى الأمر معي أن أشير إلى بعض الشوامخ التي تزخر بها القصة.

فالقصة الاولى قصة صوفية وأنا لم أقرأ في الصوفية ما يجعلني أدرك كل الادراك ما قصد إليه نجيب محفوظ وإنما قرأت في الصوفية ما يجعلني أدرك الهمس الذي يشدو به في أذن القارئ، وقرأت في الصوفية ما جعلني أدرك أن كل قارئ لهذه القصة سيخرج منها بنغمة خاصة به وحده وهذه جرأة من نجيب محفوظ يندر بين الكتاب من يقدم عليها، فهو يحادث نفسه وهو يعلم علم اليقين أن نفسه لها إلى نفوس القراء مسارب ودروب ومسالك وهو يترك كل قارئ يحسب أن نجيب كتب هذه القصه له وحده.

واحسب أن قصته ممر البستان تسير مع التنظيم السري في نفس الطريقة وإذا جاز لي أن أستعمل تعبيراً موسيقياً فإنني أستطيع أن أقول إن اللازمة في القصتين واحدة وإن كان اللحن مختلفاً كل الاختلاف.

وبعد فأنا لن أتابع القصص فهي جميعاً من أدب نجيب محفوظ وأنا أمام نجيب لا أملك إلا الاعجاب وعلى أساتذة الجامعة والنقاد المتخصصين أن يجعلوا كل قصة في المجموعة على حدة وأنا أيضاً لست في حالة إلى أن أقول من هو نجيب محفوظ وهو أيضاً في غير حاجة إلى أن يسمعها من أحد ..

فكما يقول قائل إن القاهرة هي عاصمة مصر نستطيع أن نقول إن نجيب محفوظ هو عاصمة القصة العربية.

ولكن هناك قصة بالذات وقفت عندها مذهولاً من هذا الرجل كيف لا ويقف به الارتفاع عند حد كيف يتفوق دائماً على نفسه ويبلغ كل هذا السموق.

هذه القصة اسمها في أثر السيدة الجميلة وتقع القصة في سبع صفحات من القطع المتوسط. القصة هي قصة الانسان على مر العصور كتبها همنجواي في كتاب ونال عليها جائزة نوبل وكتبها نجيب محفوظ في سبع صفحات.

أنشأ لها همنجواي محيطاً وبحاراً ومركباً وحوتاً وأقام الدنيا وأقعدها وحظيت بإعجاب العالم بحق ثم نالت جائزة نوبل وأصبح العالم كله يعرف العجوز والبحر وبعد سنوات وفي نفس الجيل يأتي نجيب محفوظ ويلقي بعلامة تعجب ضخمة لهمنجواي.

فيم أتعبت نفسك كل هذا التعب كنت تستطيع أن تقول ما قلت وأكثر في سبع صفحات من القطع المتوسط وإن كنت أنت قد وقفت بالانسان عند شاطئ الحياة الآخر فأنا خضت به هذا الشاطئ وألقيته إليه.

ومع ذلك لم ينل نجيب محفوظ جائزة نوبل ومع ذلك أيضاً هو في غير حاجة لها فإن كان لم ينلها من لجنة الجائزة فالذي لا شك فيه أن أجيال الأدب قد أعطتها له فعلاً وستظل تعطيها له إلى أبد الآبدين.

طلب عاجل

رأيت في لندن مسرحيتين كنت أحب أن أكتب لك عنهما فقد أثارتا في النفس كثيراً من المشاعر هي خليط من الأعجاب والأسى ومن السعادة والحزن وحين تهيأت للكتابة جاءني في الفندق الذي أقيم به صديق يعمل بالفندقة فتركت الكتابة وراح الحديث يجري بيني وبين الصديق القديم.

وكان طبيعياً أن يسوق الحديث نفسه إلى كثرة إخواننا العرب في لندن فهي كثرة فادحة كنت قد سمعت عنها ولكن ليس من رأى كمن سمع فالذي شهدته أكثر بكثير مما سمعت به وأكثر بكثير مما تصورته.

إنهم في كل مكان. حيثما تقصد ستجد منهم جموعاً حاشدة تعرفهم بسيماهم إذا لم يتحدثوا وتعرفهم بملابس السيدات إذا كانت السيدات بصحبتهم. هناك ثلاثة أمكنة لم ألتق فيها بعربي واحد.

أولاً : المسرح ... وقد ذهبت إلى مسارح عديدة في لندن وإني لعلى يقين كامل أنني في كل المسارح التي قصدت إليها لم أر عربياً واحداً ولا سمعت كلمة عربية واحدة.

وأما المكان الآخر فهو المتاحف فهي أيضاً خالية من إخواننا العرب تماماً.

وأما المكان الثالث فهو المكتبات فهي أيضاً خالية تماماً من زوار لندن العرب حتى مكتبة الأخ الصديق الأستاذ محمد العلم الحافلة بالانتاج العربي والاسلامي لم أصادف فيها أحداً من العرب. ولقد مكثت بها قرابة الساعة،

ولكن ربما كان هذا من قبيل الصدفة، فالأستاذ المعلم عالم في فن النشر والمكتبات ولو لم يكن له زبائن ما فتح هذه المكتبة العظيمة في قلب لندن وليس في هذا الذي أرويه لك مأخذ على إخواننا العرب، فهم في لندن في إجازة من حقهم على أنفسهم أن يمارسوا إجازتهم بلا محاولة للاطلاع على المسرح أو المتاحف والمكتبات.

وإن بعضاً منهم أيضاً جاء للاستشفاء، وإن من حقهم علي أن أذكر أنني رأيت مع الشباب كثيراً من الامهات اللاتي يرتدين الملابس العربية التقليدية، وهذا الوفاء للأمومة هو في ذاته أمر جدير بكل اكبار وتعظيم.

وإن كان الجيل الماضي في دول البترول قد فاته أن يتعلم اللغات الأجنبية فالجيل الجديد من البلاد العربية حريص على الاتصال بالثقافات العالمية، ولعل ما شهدته من رئيس تحرير جريدة عكاظ السعودية الذي كان يستطيع أن يكتفي بمنصبه فيأبى إلا الحصول على درجة الدكتوراه في الاعلام ويحصل عليها فعلا ما يدل على أن صحوة ثقافية في سبيلها إلى حاضر الدول ومستقبلها.

وفي القاهرة صديق لنا هو الشيخ السعودي عبد الحميد مشخص يقيم في كل يوم جمعة ندوة أدبية حافلة وهو من أكثر الذين عرفتهم إطلاعاً على الأدب العربي عامة والسعودي والمصري خاصة. ثم هو كإنسان مثلاً لا نجد له شبيهاً بين الناس في زماننا هذا فهو مشغول دائماً بمشاكل أصدقائه يعني بها كأنها مشاكله الخاصة ويهب لها حياته كلها ولا يعبأ بجهد في سبيل أصدقائه، أجده يسافر إلى شتى بلاد مصر متجشماً من العناء ما لا يستطيعه الشباب ليحل مشكلة لصديق أو يرفع عنه عنتا.

وبعد فأنا لا أستطيع أن أجمع في هذه العجالة ما رأيته رأيَ العين عند كثيرين من أبناء الأشقاء العرب، مثل الدكتور محمد عبده يماني وزير الاعلام السابق وهو عالم وأستاذ للعلم في الجامعة ثم هو أديب قصاص روائي ذواقة للشعر من الطبقة الاولى.

عسير علي أن أذكر الأمثلة، ولعلك في دهشة من أمري اليوم ما الذي

يدعوني إلى هذا الحديث. ولو صبرت نفسك بضعة أسطر أخرى لعلمت أنني قلت ما قلت لك اعتذاراً عما رواه لي الصديق الذي يعمل بالفندقة والذي شرفني بالصحبة وأنا أتهيأ لكتابة هذا المقال.

لقد روى عجبا، قال: دق جرس التليفون بمكتبي بالفندق الذي أعمل به وإذا المتحدث نزيل عربي من أصحاب الثراء الواسع وقال :

ــ أريد عشرة آلاف جنية إسترليني جميعها من ذات الجنية الواحد ..

وذهلت للطلب وقلت له :

ــ ولكن هذا أمر غير ميسور التحقيق فور طلبه ...

ــ ولهذا كلمتك فأنت تذلل جميع الصعاب ...

وصمت لحظات وقلت في نفسي ربما أراد الثري العربي أن يوزع على العاملين بالفندق جميعاً هبات من ذات الجنية الواحد وأن من واجبي أن أسارع بتلبية طلبه حتى لا أمنع خيراً سيعم على العاملين جميعاً، وقلت له :

ــ أعطني نصف ساعة ..

ــ لك هذا ولكن أسرع بربك؟

وتعجبت من العجلة وساورني في موضوع الهبات بعض الشك فالهبة تستطيع أن تنتظر أكثر من نصف ساعة لا شك وهي حبيبة إلى من ينالها في أي وقت ينالها، ولكنني راجعت نفسي وقلت لعله نذر يجب أن يوفيه في موقته.

أرسلت سيارة الفندق إلى البنك الذي نتعامل معه وكلمت صديقاً لي في البنك أن يعد المبلغ وأرسلع مع السيارة صندوقاً يستطيع أن يتسع لهذا المبلغ الضخم.

وجاء المبلغ في موقته وكلمت الثري العربي وبشرته بتحقيق رغبته، فقال :

ــ إصعد مع الصندوق فإنك سترى ما لم تر في حياتك وما أعتقد أنك لن تراه أبداً.

ــ أنا آت مع الصندوق !

ودخلنا الغرفة ووضع الحمال الذي معي الصندوق إلى جانب الثري وانصرف، وقال الثري :

ــ اقعد؟

فقعدت ووجدت معه صديقاً عربياً ثرياً آخر، ووجدت بجانبه صندوقاً آخر وبالصندوق أوراق من ذات الجنية الاسترالينى قريبة العدد مما أحضرته من البنك في نصف الساعة، وحين استقر بي المجلس قال الثري العربي :

ــ سترى عجباً.

قلت :

ــ خيراً

ــ إن بهذا الصندوق الذي بجوار صديقي عشرة آلاف جنية مثل التي تفضلت بإحضارها.

ــ عظيم

ــ فكرت أنا وصديقي أن نشرب أنا وهو وأنت أغلى فنجان قهوة في التاريخ.

فكدت أفهم ولكن عقلي أبى أن يصدق، وأكمل الثري العربي :

ــ سنحرق هذه الآلاف العشرين من الجنيهات الاسترلينية تحت كنكة قهوة بها ثلاثة فنجاجين واحد له والثاني لي والثالث لك فتكون قد شربت أغلى فنجان قهوة في التاريخ.

قاطعت صديقي قبل أن يكمل وصرخت صرخة روعت الجالسين في القاعة وأنا لم أصب في حياتي حتى الآن برصاصة في جسمي ولكنني أشعر أنني لو أصبت بها ما صنعت بي هذا الذي صنعته. رواية صديقي، وحين امتلكت أمر نفسي أكمل صاحبي قصته وإن كانت قد انتهت لم يبق منها إلا أن صاحبي قال لهذا المخترع العظيم الذي أستحدث بعبقريته أغلى فنجان قهوة في التاريخ :

ــ إسمع لي يا سيدي، هذه قهوة لا تسمح لي إنسانيتي أن أشربها.

وانصرف صديقي، ولهذا اكتملت قصته جميعاً.

وبعد فأنا رجل صناعتي أن أعلق على الحياة ولكن ما أحسب أن أحداً من صناعتي مهما يكن مالكاً لقوة التعبير وثراء الكلمة يستطيع أن يعلق على هذا الذي رواه لي صديقي ورويته لكم إلا أن نسأل الله لقومنا الهداية فهو سبحانه وحده على ذلك القادر جل شأنه.

المسرح عندنا وهناك

ذهبت إلى مسرحية في لندن ما كدت أمضي في مشاهدتها بعض الوقت حتى خطر لي خاطر يدعو إلى الدهشة والعجب، إما أن هؤلاء الانجليز متأخرون في فن المسرح إلى درجة تدعو إلى السخرية والاستهانة، وإما أن العمالقة القائمين على المسرح عندنا يعيشون في عالم مسرحي آخر غير الذي يعيش فيه أئمة المسرح العالمي، والحقيقة أنني حرت أي الفرضين أولى بالثقة.

أما أن الانجليز في عالم المسرح متأخرون ويدعون إلى السخرية والاستهانة فالأمر يحتاج إلى تفكير كثير، بل أن مجرد الحديث عن هذا الأمر يعتبر جرأة لا تجوز، فهؤلاء القوم منهم شكسبير أعظم الشعراء المسرحيين، وهؤلاء القوم نشأ المسرح على أرضهم منذ قرون وقرون، وهؤلاء القوم لا يمر عليهم يوم دون أن تكون في بلادهم عشرات المسارح تقدم مختلف المسرحيات من شتى المذاهب وشتى الأفكار ... وهؤلاء القوم يعتبرون الثقافة والثقافة المسرحية والروائية بالذات هي فخرهم الأصيل الذي يعتزون به ويتفاخرون أكثر تفاخرهم بأنهم كانوا إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية الأمبراطورية الاولى في العالم التي لا تغيب الشمس عن الدول التي تحتلها.

فالفرض بأنهم متأخرون يحتاج منا إلى وقاحة نعيذ أنفسنا أن نقع فيها.

ولا بد أن الفرض الثاني هو الأقرب إلى المعقول بدليل أقفار الحياة المسرحية عندنا، لا نشاهد من المسرح الرفيع إلا التصريحات والمهرجانات

والندوات واللافتات المقامة على الفراغ، ويطمئن بنا الحال إلى هذا فما دام المسؤولون يصرحون وما دامت الجرائد تنشر المسرح قادم لا شك في قدومه وكأنه جودو الوهمي ــ ما دام الأمر كذلك فالمسرح إذن قد قام والنصوص إذن أخرجت والممثلون قد مثلوا والمشاهدون قد شاهدوا.

والغريب يا أخي الغريب، أن عشرات المسارح تعمل في لندن وحدها غير المسارح المنتشرة في طول البلاد الضخمة وعرضها دون أي تصريحات حكومية عن هذه المسارح.

والأغرب يا أخي أن انجلترا ليست بها وزارة مسؤولة عن الثقافة المسرح هو بعض اختصاصها.

أما المسرحية التي شاهدتها والتي حدت بي إلى هذه المرارة التي لا شك أحسستها في سطوري هذه تجري أحداثها منذ قرابة مائتي سنة وليس في هذا شيءٌ يدعو إلى الدهشة فقد أكتب موضوعاً حديثاً غاية الحداثة وأختار له زمناً موغلاً في القدم كل الايغال.

ولكن الذي حرت فيه أن المسرحية نفسها ألفت ومثلت على مسارح لندن منذ قرابة قرن من الزمان، وهي مع ذلك لا تزال تعاد على مسارح لندن ويقوم الممثل المسرحي العالمي انتوني كويل ببطولتها.

وموضوع الرواية من الموضوعات التي عرفها المسرح عندنا قبل الريحاني بأزمان .. فتاة أحبت سكرتير أبيها وتزوجت منه وحملت ولكن الأب يريد أن يزوجها غنياً مثله وتدور أحداث المسرحية وينتصر الحب.

والمسرحية بالغة الوضوح إلى حد الطيبة ولا أحب أن أقول السذاجة فاسم الأب المحب للمال سترلنج وكأن المؤلف لم يكتف بأقوال أشخاص المسرحية وبحديثه هو عن المال وإنما أراد أن يؤكد للمشاهد أنه في حبه للمال قد وصل حتى أن أباه أسماه استرليني، والسكرتير اسمه لف ول والاسم، يوحي بالحبيب المحبوب، فالمؤلف لم يكتف بأن تقع ابنة السيد في هواه إلى درجة الزواج منه وإنما يؤكد ذلك أيضاً باسمه الذي يلصقه به.

وقد كنت جديراً بأن تقول لي وما لهم لا يمثلون ما يشاؤن وما لهم لا يقدمون ما يحلو لهم من السذاجة فإن أحداً لا يشاهدهم.

وأنا معاجلك فمخبرك أنني لم أجد كرسياً خالياً في المسرح، كما أن اشتراك انتوني كويل فيها وهو من أعظم ممثلي المسرح واشترك في كثير من الأفلام التي شاهدناها دليل على أنه راض عن النص.

وقد تسأل وفيم رضاؤه؟ إن رضاءه كامن في هذه المسرحية والمسرحيات التي ألفت معها وعرضت متزامنة لها تمثل فترة من فترات المسرح الانجليزي.

والأهم من ذلك أنك تجد نفسك سعيداً وأنت تشاهد المسرحية وهكذا يجد المشاهدون الكثيرون أنفسهم سعداء أيضاً وإلا لما أقبلوا هذا الاقبال على المسرح الذي يعرضها، هم سعداء رغم كل التغيرات التي حدثت في الأشكال المسرحية وفي المذاهب الفنية والذي لا شك فيه أن الفن إسعاد على أي لون له، هو إسعاد حتى وإن كان غاضباً متشائماً، لأنك ستسعد حينذاك بالفن وببراعة العرض الفني سواء كان ذلك في المسرحية أو القصة أو الرواية.

أما في مسرحيات هذه الفترة فإنك ستسعد بطيبة النص وبساطته وكأن النص تلقيه جدة إلى حفيدها قبل النوم فإذا اقترنت حكايتها بالاخراج العميق البسيط والتمثيل الرفيع فإن المسرحية حينئذ تقفز من مجرد حدوتة جدة إلى فن سامق يستحق هذا الاعجاب وتسألني وما شأن هذا بالمسرح المصري لتعقد هذه المقارنة التي عقدتها في صدر هذا المقال.

الشأن كبير : إن المسرحيين عندنا يقولون إننا نفتقر إلى النصوص، وأنا أعلم أن هذه دعوى باطلة فقد عملت فترة مستشاراً بلجنة النصوص وقرأت أعمالاً غاية في الروعة وكلما ذكرتها ذكرت الآية الكريمة، وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت، أين ذهبت هذه المسرحيات التي أقرتها اللجنة التي كنت أتشرف بعضويتها، علم ذلك عند علام الغيوب.

وأعود إلى هذه المقارنة التي عقدتها، وأقول للمسرحيين هاكم فانظروا، أليس في كل ما قدمه المسرح المصري من بداية الثلاثينات إلى أوائل

السبعينات ما يكفيكم من نصوص، أم تراهم سيقولون إن بعض هذه الأعمال نقلت إلى التليفزيون ولن يقبل عليها الجمهور وحينئذ أستأذنهم في أن أخبرهم أن التليفزيون بدأ في انجلترا لا في أمريكا وقد تم اختراعه فيها قبل الحرب العالمية الثانية وعطلت الحرب انتشاره.

ويقولون ليس عندنا ممثلون يقبلون أن يعملوا في المسرح لأن التليفزيون والسينما يقدمان من الاغراء المادي ما يجعل قبول الممثل الظهور على المسرح أمراً بعيد الاحتمال.

وأني أعجب هل هؤلاء الممثلون الكبار خالقوا كباراً أم هم مثلهم مثل خلق الله أجمعين كانوا أطفالاً فصبيانا فشباباً فممثلين كباراً. وإن كان الأمر كذلك وما أحسبه إلا كذلك فلماذا لا يفتح المسرح ذراعيه للخريجين الجدد من معاهد التمثيل ويتيح لهم الفرصة حتى إذا صاروا نجوماً واستعصموا بالتليفزيون والسينما ونأوا بجانبهم عن المسرح كان هناك من بعدهم من يقف على المسرح وسبحان علام الغيوب، قد نجد بين هؤلاء من يعتبر المسرح مكانه الأول، ويقدمه عند المفاضلة على المال ولو أن هذا أمر بعيد المنال، ولكنني أحسب أن الممثلين في لندن وباريس وفي جميع البلاد التي تقدم مسرحاً رفيعاً يعملون أيضاً في السينما والتليفزيون.

وبعد فأنا لست حائراً ... انجلترا دولة من أعظم الدول تقدماً في الثقافة أما نحن فالافتراض الثاني الذي بدأت به تفكيري في هذا المقال هو الأخلق بنا؟

اصرخوا أيها الشباب

حين شرفت بحضور حفل تسليم الجوائز على الفائزين بجوائز الدولة ألقيت كلمتهم بحكم القاعدة التي جرى عليها العرف أن يكون الحاصل على جائزة الأداب هو المتحدث عن الفائزين .. وألقيت الكلمة متوجهاً فيها إلى رئيس الجمهورية أن ينقذ الكتاب والمكتبات من براثن التشريد والضياع، ولم أكن أتصور أن السيد الرئيس سيتناول في كلمته الموضوع نفسه ولذلك لم يكن غريباً أن يلتفت إليّ الرئيس من منصة الخطابة قائلاً إنه لم يكن يعرف أنني سأتناول هذه الكارثة التي يعيشها أو يموتها الكتاب المصري.

وأمر الرئيس أن يكون أمامه في مدى ثلاثة أشهر تقرير واف عما يجب أن تتخذه الدولة من قرارات لإنقاذ الكتاب وقراء الكتاب من النكبة التي تحل بهم جميعاً.

والكلام من مثلي رجاء ..

والكلام من رئيس الجمهورية قرار ..

والحمد لله .. فما دام القرار لم ينفذ فمن الطبيعي أن يذهب الرجاء صرخة في الهواء لا أثر لها ولا حول ولا قوة.

أذكر أنني خرجت من هذا الحفل وأنا واثق أن مشكلة الكتاب والمكتبات قد حلت نهائياً .. وكم كنت ساذجاً في وثوقي هذا. وما أسرع ما تبينت سذاجتي، فقد قامت القيامة بعد قرار الرئيس وتصايح المسؤولون وصدرت

التصريحات وكتبت الجرائد والمجلات وجيشت الاذاعة جيوشها وكتب التليفزيون كتائبه وأصبحت لا تسمع في أجواء مصر إلا الكتاب ومشكلة الكتاب وإنقاذ الكتاب.

منذ هذه اللحظة أدركت في وثوق ليس ساذجاً في هذه المرة أن مشكلة الكتاب ستبقى على ما هي عليه .. فما دام المسؤولون قد أفرغوا طاقاتهم في الكلام فالذي لا شك فيه أن عملاً لن يتم.

فالقاعدة التي لم تنقض حتى اليوم أن الذين يكثرون من الكلام لا يصنعون شيئاً.

إجتمعت اللجان في مجلس الشورى وانضم إليهم نخبة رائعة واعية من الناشرين كانوا جميعاً وبغير استثناء غاية في الرصانة وقوة المنطق، وأصدرت هذه اللجان تقريراً رائعاً عما يجب أن تتخذه الحكومة من خطوات لإنقاذ الكتاب.

واجتمعت اللجان في المجالس القومية المتخصصة ونظر الأمر في جدية العلماء ووقارهم وأصدرت التقرير عما يجب أن تتخذه الحكومة من خطوات لإنقاذ الكتاب.

وتفضل السيد وزير الثقافة فأرسل بخطاب إلى اتحاد الكتاب يطلب إليه رأيه في مشكلة الكتاب والمكتبات تمهيداً لاختيار ممثلين عن الاتحاد في اللجنة التي ستشكلها الوزارة للنظر في التقارير الواردة إليها والخروج منها بالحل الأمثل .. واجتمع اتحاد الكتاب خصيصاً ولم يكن في جدول أعماله شيءٌ آخر غير الكتاب والمكتبات وأصدر الاتحاد التقرير عما يجب أن تتخذه الحكومة من خطوات لإنقاذ الكتاب وأرسل التقرير إلى السيد الوزير.

وقد كان لي شرف الحضور في هذا اللجان جميعاً وغيرها مما لا تعيه الذاكرة وأذكر أن كل التقارير التي صدرت مجمعة على الخطوات التي يجب أن تتخذها الحكومة لإنقاذ الكتاب.

ثم هذا جميعه وحملة الدعاية المكثفة مستمرة والتصريحات مستمرة

وأضحك ضحكاً باكياً حزيناً يسحق النفس ويملأها بالمضاضة والأسى حين تنتج كل هذه الضجة عربة تمر ببعض أحياء أو شوارع القاهرة وفيها بعض كتب وكأنما أصبحت الكتب آخر الأمر قراطيس لب أو فول سوداني، ثم تختفي العربة وتمحى من الوجود.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وأعلم أنهم سيقولون أن مثل هذه العربات موجودة في لندن وأبكي. وأين نحن من لندن، إن هذه العربات هناك مساعدة للمكتبات الموجودة في جميع أحياء لندن. ولا يكتفي القائمون على الثقافة هناك بذلك وإنما يقربون هذه المكتبات إلى الشوارع والبيوت وكأنهم يقولون للشباب لا عليك أن تنتقل إلى المكتبة في حيك إننا نحن الذين سنأتي إليك بالكتاب إلى باب بيتك .. وهذه العربات في لندن لها مواعيد ثابتة يعرفها كل شخص في كل منطقة وهم يعيرون الكتاب ويعلم مستعيره متى يجب أن يرده ليحصل على كتاب آخر .. المقارنة بعيدة والقياس لا ينطبق على حالنا المؤلم المضحك .. فما أرسلنا هذه العربات إلا لننشر عنها إعلاناً أو إعلانين ثم هي إلى اختفاء.

ويرى أبناء الشارع الذي تصادف وجودهم هذه العربة ثم لا يجدون لها أثراً وكأنها لمحة من خاطر ما جاء حتى ذهب أو لمحة من حلم تبدد مع اليقظة أو سراب يحسبه الظمآن ماء فإن قصد إليه وجده هباء من الهباء أو هراء من الهراء.

إن الأمر جد لا هزل فيه .. وليس يصلح معه عربة الأحلام ولا يجدي معه التصريحات التي تعد ولا تنفذ والتي تستعمل فعل المستقبل دائماً ولا تستعمل الفعل الماضي مطلقاً.

والكارثة فظيعة في جميع جوانبها ..

كارثة أن يصدر رئيس الجمهورية قراراً علنياً على ملأ من العالم ولا تنفذه الجهات المختصة.

وكارثة أن تكون مصر مصدر الاشعاع الثقافي للعالم العربي بلا مكتبات عامة على الاطلاق نعم على الاطلاق وليس يجديني في شئ القول بأن هناك مكتبات عامة قليلة فهي في قلتها تتساوى مع العدم تماماً.

وكارثة أن يكون الكتاب حراً كل الحرية في مصر حتى إذا حاول أن يخرج من مصر تكالبت على حريته أيد شرسة طاغية من شتى رقابات ومختلف جهات.

وكارثة أن تكون أدوات الطباعة جميعاً بهذا الغلاء الفاحش، فالورق مرتفع السعر بصورة مريعة، وكذلك الأحبار وغيرا مما يحتاج إليه الكتاب.

وكارثة أن نجهل أن الثقافة هي الكتاب فليس هناك ثقافة بغير كتاب.

حتى الأثار فإنها لا قيمة على الاطلاق إذا لم يكن هناك كتب نعرف بها ما تعنيه هذه الآثار.

حتى الحرف لا أمل لها في التقدم والازدهار إذا لم تنتشر الكتب التي تجعل الحرفيين يتقنون صنعتهم، ويبلغون فيها إلى الكمال أو قريباً من الكمال.

كل مناحي الحياة يتناولها الكتاب .. أينما تقلب وجهك تجد ألا أمل لنا في أي رقي بغير الكتاب.

وجميع الدول المتحضرة لا تكلف بنيها أي عنت في الحصول على الكتاب ولهذا أصبحت متحضرة .. ولو كان الكتاب فيها متخلفاً عن طالبيه لتخلفت هذه الدول ولعاشت الجهالة المطاطة الداكنة السواد.

ناشدتكم الله أيها المسؤولون ألا تصدروا التصريحات ولكن أصدروا القرارات.

لقد مر على الاحتفال الذي ذكرته في صدر هذا المقال قرابة عام فإذا لم أبك اليوم فمتى يكون البكاء .. أيها الكتاب أيها الناشرون أيها المثقفون أيها الشباب .. ابكوا معي واصرخوا فربما استطاع صراخنا أن يصل إلى أسماع المسؤولين وحسبنا وحسب مصر الله إنه نعم الوكيل.

عن كارثة الكتاب

اناشد الوزارة جميعاً

أقدم للسيد الوزير محمد عبد الحميد رضوان كل شكري على كريم ظنه بي كما أشكره أنه يتفق معي في الرأي أنه لا شئ يسمى الثقافة ولا يكون الكتاب هو مصدره الأول ..

وأبادر فاطمئن السيد الوزير أنه لا خلاف بيننا من بعد فأنا حين أسائل وزارة الثقافة لست أقصد أن ألقي حمل المسؤولية في حل مشاكل الكتاب على اختصاصات وزيرها وحده وإنما الوزارة يا سيد وأنت على رأسها مسؤولان أن تحلا مشاكل الكتاب في كل مظان هذه المشاكل.

فمن غيرك يا سيادة الوزير مسؤول أن يتصل بالوزارة المسؤولة عن الجمارك ليدفع الضرائب عن أوراق الطباعة ومستلزماتها وإذا لم تستطع الوصول مع الوزير إلى اتفاق فأنت يا سيادة الوزير مسؤول أن تعرض الأمر على مجلس الوزراء وعلى مجلس الشعب.

وأنت يا سيادة الوزير وحدك المسؤول عن نشر المكتبات في جميع أنحاء القطر ويقتضي هذا منك أموراً كثيرة فأنت الذي ينبغي أن تتصل بالهيئات المشرفة على النوادي الريفية وبوزارة التربية والتعليم المشرفة على المدارس فتتدارسوا جميعاً كيف يمكن إنشاء مكتبات في المدارس والنوادي. وأنت مسؤول أن تتصل بوزارة الأوقاف لإنشاء مكتبات في المساجد وبالمطران لإنشاء مكتبات في الكنائس.

وأنت يا سيادة الوزير مسؤول قبل هذا جميعاً أن تستدعي خبراء المكتبات في وزارتك وفي غيرها من الوزارات ليضعوا النماذج التي ينبغي أن تكون عليها المكتبة العامة ومحتويات هذه المكتبات وطرق الاستعارة، فأنت تعلم يا سيادة الوزير أن المكتبات علم تخصص له أساتذته الكبار الراسخون في أصوله وهم يدرسون في المعاهد.

وأنت يا سيادة الوزير تفضلت فنقلت كلمة السيد رئيس الجمهورية الخاصة بالكتاب وأحسب أنه فاتك أن تذكر أن السيد الرئيس قد حدد مهلة ثلاثة أشهر ليعرض عليه ما انتهى إليه الرأي، وأنت يا سيادة الوزير تذكر في كلمتك أنك قمت بحكم مسؤولياتك كوزير للثقافة بإعداد مذكرة مبدئية ضمنتها كل ما هو قائم من دراسات لدى وزارة الثقافة وقدمتها للسيد الأستاذ الدكتور رئيس مجلس الوزراء أنذاك وكانت بتاريخ ٤ مارس سنة ١٩٨٤.

فأنت إذن يا سيادة الوزير قدمت المذكرة قبل الموعد الذي حدده سيادة الرئيس، ولكن خلافي معك يا سيادة الوزير أنك اعتبرت مهمتك قد انتهت عند هذا بينما هي في الواقع كانت قد بدأت في ذلك اليوم الذي قدمت فيه مذكرتك فقد كان من الحتم متابعة المذكرة وإبلاغ السيد رئيس الجمهورية بمحتواها وبالعقبات التي تقف في سبيل تنفيذ ما جاء فيها ..

فمسؤولية الوزير ليست تقديم المذكرة وإنما تنفيذ ما جاء في المذكرة ..

واسمح لي يا سيادة الوزير أن أعقب على ما جاء في كلمتك الحميمة من أن الوزارة تقدم الكتاب السهل بثمن زهيد في تجربتها الجديدة التي أعدت من خلالها مكتبة الشباب.

يبدو يا سيادة الوزير أن وجهات النظر عن مشكلة الكتاب متباعدة بين ما نأمله نحن القراء والكتاب وبين ما تتصوره الوزارة.

ليس الأمر يا سيادة الوزير مجرد بضعة كتب رخيصة إنما الأمر أضخم بكثير جداً من هذا المثل.

إننا نريد لجميع الكتب التي تصدر عن مصر أن تكون بثمن معقول ولا

صلة بين هذا وبين سلسلة رخيصة تصدر تعتبر بالنسبة لما نهدف إليه أقل كثيراً من نقطة في محيط.

يا سيادة الوزير في هذا الاسبوع بالذات تضاعف سعر الورق العالمي فكمان من الطبيعي أن يطغى الجشع على تجار الورق فيحبسوا ما عندهم من كميات الورق ليبيعوها بأثمان قاتلة، فإذا لم تدرك الجمارك هذه المجزرة للكتب بإجراء سريع حاسم يتمثل في إعفاء الورق من الجمارك فلا أمل هناك في حل جانب في غاية الأهمية من مشكلة الكتاب، وكذلك الأمر بالنسبة للأحبار.

وكلنا يعلم أنك لست مسؤولاً عن الجمارك ولكن كلنا يعلم أن المسؤولية الوزارية كل لا يتجزأ وأنك لا بد أن تعرض الأمر على مجلس الوزراء وتتقدموا بمشروع إلى مجلس الشعب.

هذه واحدة.

وأخرى، لا يجدي في شيً يا سيادة الوزير أن تجعل عشرات الكتب في مكتبة الشباب رخيصة الثمن والأمر الذي ننشده نحن أن تكون جميع الكتب متاحة في مكتبات عامة ليقرأها من لا يستطيع أن يشتريها، لا شك يا سيادة الوزير أنك الآن أدركت الفارق بين الأمرين.

إننا نريد كتب التراث جميعاً وكتب الأدباء المحدثين جميعاً وكتب العلوم جميعاً وكتب الجغرافيا جميعاً وكتب التاريخ جميعاً أن تكون متاحة في مكتبات عامة للاستعارة.

تلك هي الثقافة ولن تكون الثقافة بضعة كتب للشباب يا سيادة الوزير .. وليس يجدي في هذا أيضاً يا سيادة الوزير معارض الكتاب التي تقام فهذه تفيد في ترويج بيع الكتاب وفي مكاسب الجهات الناشرة من الناحية المالية .. ولا بأس في ذلك ولا ضير.

ولكن هذا أمر يختلف كل الاختلاف عن نشر الثقافة والكتاب للجميع في مكتبات عامة تعير الكتاب ولا تبيعه.

ويا سيادة الوزير أرجو أن تسمح لي أن أعيد إلى ذاكرتك ما جاء في أغلب المذكرات التي وصلت إليك والتي أعتقد أنك جمعتها في المذكرة التي قدمتها إلى مجلس الوزراء، إن المذكرات تريد :

* إعفاء منستلزمات الطباعة من كافة الجمارك المفروضة عليها.

* إنشاء مكتبات لإعارة الكتب بجميع النوادي الرياضية في القرى وتخصيص جزء من ميزانية هذه النوادي لشراء الكتب.

* التوسع في إنشاء المكتبات العامة، وتجديد ما اندثر منها في المحافظات والمراكز والأحياء في مدينتي القاهرة والاسكندرية.

هذه أهم الأشياء التي شملتها المذكرات.

وهناك كارثة أخرى وما أكثر الكوارث التي تحيط بالكتاب ..

الكتاب في مصر حر ولا رقابة عليه، فأنا أدفع بكتابي إلى المطبعة فيطبع حتى إذا طبع وتداولته مصر وحاول أن يجد طريقاً للعالم وقفت دونه القيود القاتلة.

أنت يا سيادة الوزير تملك أن ترفع بعض هذه القيود وتملك لا شك أن تسعى لدى الجهات الاخرى لترفع القيود الاخرى.

فالأزهر مثلاً لا بد أن يوافق على أي كتاب ديني يحاول أن يخرج من مصر والأزهر نفسه هو الذي وافق على الكتاب ذاته لينشر في القاهرة ..

أيعقل أحد هذا؟!!

أيقبل الأزهر أن يقرأ المصريون شيئاً لا يرضى لغير المصريين أن يقرأوه؟

وأنت يا سيادة الوزير تعلم مشاكل الرقابة على الكتاب حين يصدر كل العلم .. وعليك وحدك يا سيادة الوزير تقع مسؤولية القرار إذا كانت الرقابة من وزارتك وعليك وحدك أيضاً تقع مسؤولية السعي لدى الجهات الاخرى واستصدار القوانين لانهاء أنواع الرقابة الاخرى التي لا تختص بها وزارتك ..

وهناك يا سيادة الوزير أمر آخر من أعظم ما يعانيه الكتاب من كوارث وهو ما يتعرض له الناشر عند تصدير الكتاب من جهات النقد وإدارات مكافحة التهريب مما يجعل الناشر المحترم مجرماً في غمضة عين إذا تأخر

الذي صدر له الكتاب عن دفع ثمن الكتاب بالعملة الحرة في مدة معينة، وما عرفت في حياتي قانوناً يعاقب شخصاً بخطأ غيره البعيد عنه والذي لا يعمل في ظل مسؤوليته إلا هذا القانون الفذ العجيب وما أحسب أن ناشراً ما يرضى أن يصبح مهرباً مجرماً لأي سبب من الأسباب.

هذه يا سيادة الوزير عجالة ضئيلة غاية الضآلة عن قيود الكتاب وكبوته الحديدية، فلو كان الكتاب شمشون ذا الطول والحول والجبروت والطغيان لمات تحت هذه الأهوال فما ظنك ببضعة أوراق لا تجد النصير أو المعين.

إسمع لي يا سيادة الوزير أن أتواجه بمقالي هذا إلى السيد رئيس الوزراء وإلى الوزراء جميعاً ليقفوا إلى جانبك لتنقذوا الكتاب من القتل وتنقذوا الثقافة من الضياع الذي ضاعته فعلاً، واني لأرجو السيد رئيس الوزراء أن يعرض الأمر على السيد رئيس الجمهورية المسؤول الأول عن السياسة المصرية ليذللوا العسير ويحطموا عن ثقافة الأمة العربية السدود والقيود؟

عن قضية الكتاب

الكتاب هو البشرية

أخشى أن يظن أحد أن الكتاب مجرد مظهر ثقافي وهكذا يصبح الاستغناء عنه أمرا غير ذي شأن، وأخشى أن يظن هذا البعض أنه ما دام الذين يعملون في ميدان الكتاب هم الذين ينادون بإحيائه فالأمر لا يعدو أن يكون تعصب قوم للمهمة التي يسرهم الله لها، ومحاولة منهم أن يجعلوا أداة مهمتهم شيئاً خطيراً لا غناء عنه.

إنما الأمر أخطر من ذلك وأجل شأناً ..

إن الكتاب هو كل مرافق الحياة لا أستثني منها مرفقاً، وأني مقدم بضعة أمثلة هيهات لها أن تحيط بالموضوع كله في خطورته وجلاله وإنما هي إشارة وليس غير.

أقرب شيءٍ إلى ذهني وهو أمر قد يبدو أبعد ما يكون عن أهمية الكتاب.

ذلك الفوز الساحق الذي حققه الأمن المصري أخيراً واستطاع به أن يجعل مصر مثلاً أعلى في الذكاء والحرص على سلامة أرضها وعلى الذين اتخذوا منها حصناً يحتمون به من الطغيان والخرق والجنون.

هذا النصر كيف تم؟ أليست الوسائل الحديثة في الرقابة هي التي مهدت له أن يتم؟ أليست هذه النظريات الحديثة في رصد المجرمين والضرب على أيديهم قبل أن يقوموا بجرائمهم وبعده هي الكتاب؟

هذا التقدم العلمي الخطير أساسه الأول هو الكتاب ..

فبالكتاب عرف العالم الأدوات الحديثة في الرقابة وفي التقدم العلمي في هذا المضمار الذي لقفه جيل عن جيل استطاعت مصر أن تحقق هذا النصر الحاسم والكتاب والثقافة والعلم هو الأساس.

ولأن مصر دولة متحضرة انتصرت، ولأن القذافي متخلف انهزم وأصبح بين العالم أضحوكة وبين قومه اهزؤة وسخرية وهوانا وذلا.

واخرى.

الحياة الاقتصادية في مصر وفي كل أرجاء العالم تقوم على النظريات العالمية وهذه النظريات ولدت في كتب وانتشرت في كتب احتضنتها للعالم كتب وذاعت في العالم أجمع في كتب.

والزراعة التي يعني بها اليوم السيد رئيس الجمهورية في محاولة منه ذكية أن ينقذ غذاء الشعب، ألا تعتمد في كل ما تقدم لها على نظريات علمية وكيمائية أي على الكتاب.

والصناعة التي تحاول أن تتطور بها في كل ميدان من ميادين الحياة لا تقدم لها إلا عن طريق الكتاب. والمصانع المنظورة الحديثة هي نتيجة بحوث ودراسات كانت نظرية ثم صارت واقعاً وعملاً. ولولا الكتاب لاحتاج العالم إلى مئات اخرى من السنين ليبلغ فيها ما بلغه اليوم فيها.

واسمح لي يا فخامة رئيس الجمهورية أن اخاطبك في ميدانك واذكر لك أنك حققت نصر الطيران في حرب اكتوبر بمعرفتك الدقيقة بخصائص الطائرات التي كنت تتعامل بها وبالوقود الذي يستخدم فيها وبما يستطيع هذا الوقود أن يقدم، وكل هذا عرفته من الكتاب.

والأسلحة الأخرى التي حققت نصرها الخالد حققته بالمعرفة والاطلاع من قوادها ومن المخططين لها، والمعرفة والاطلاع كتاب.

والصعود إلى القمر ما كان ليتم لولا أن علماءه درسوا علومهم في الكتاب ووصلوا بهذا العلم إلى القمر.

وأينما توجه عينيك في مطارح الحضارة والتقدم سيشرق لناظريك الكتاب مصدراً أساسياً.

وإن رأيت في بلد ما تخلفاً وتأخراً وسفولاً فلا تبحث عن السبب إنه معروف لا شك فيه لقد غاب الكتاب عن سمائه فشمله الظلام ولف ربوعه.

أما الأدب بفروعة المختلفة من شعر ورواية وقصة ومسرحية فهو القيم الانسانية الرفيعة وهو الارتفاع بالانسان من مستوى المادية الحقيرة إلى سماوات الروحية السامقة وبغيرها لا قيمة للانسان.

بكتاب الله عز وجل الذي اختاره الله سبحانه ليكون معجزته الباقية الخالدة التي لا يأتيها الشك من أي جانب عرفنا الله وعرفنا أنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد، وإنه ليس كمثله شيئ وأنه نور السموات والأرض، وان الحياة خلق رفيع وحب بين الانسان والانسان وبين والد وما ولد وأنه خلق لنا من أنفسنا أزواجاً وجعل بيننا مودة ورحمة وأنه تقدست الاؤه جعل من الزوجة سكناً للزوج ومن زوجها سكناً لها.

وبكتاب الله عرفنا قواعد الاسلام الخمس وتطهرات نفوسنا وشمل النقاء أجسادنا وترقرق نور الايمان في محيا المؤمن وفي طلعته، وفي جميع كيانه.

ومادة كتب في القاموس تفيد التجمع إذا أنت قرأت التاء بالتشديد فكتب الجيش جمعه ومنها الكتيبة ومنها أيضاً الكتاب، فالكتاب إذن هو الكتائب التي تحارب الجهل والتخلف والغباء، وهو أيضاً الكتائب التي تسير بالانسانية إلى التقدم العلمي والاقتصادي والقانوني في جميع مناحي الحياة لا نستثني منها منحى أو متجهاً.

وأهل الكتاب هم أهل النور والايمان لم يُبِحِ الاسلام للمسلم أن يتزوج إلا من كتابية لأن الاسلام لا يريد أن يجمع بين متحضر إنسان وبين متخلفة بعيدة عن الانسانية في بيت واحد، وأين مؤمن من ملحدة، وكيف تكون الزوجة من أنفسنا وهي كافرة، فالله تعالى يقول بنص الآية : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ».

فهو سبحانه إذن لم يقل من أضلاعكم ولا من جنوبكم وإنما من أنفسكم فكيف إذن تتناقض نفس مع نفسها وكيف يؤمن من منها شق ويكفر شق آخر ..

لا زواج إذن للرجل إلا من كتابية

الكتاب هو أساس كل الحياة.

هو الأساس الأول في الدين.

وهو الأساس الأول في الدنيا.

وهو الأساس الأول في العلوم الاقتصادية والقانونية والنظرية جميعاً.

وهو الأساس الأول في الحياة العملية وفي إنتاج الحياة لتعيش الحياة، في الزراعة هو الأصل وفي الصناعة هو الأصل.

ثم هو من قبل ومن بعد الأساس الروحي للانسان وبهذه الروحية يسمو البشر عن الحيوان.

ثم هو من قبل ومن بعد أساس العقل فمن لا يقرأ يضمر عقله ويصبح سائمة بين الناس.

وما كان الله ليجعل البشر سادة المخلوقات إلا بما تميزوا به من عقل وروح فإذا فقدوا من النورين واحداً فما هم من البشر وهم أقل من الحيوان لأنهم اختاروا لأنفسهم أن يكونوا حيوانات حين لم يختر الحيوان لنفسه هذه المنزلة.

فنحن حين نصيح اليوم أدركوا الكتاب إنما نريد أن ننقذ بشريتنا ونخشى أن تهوى أجيالنا القادمة إلى درك أسفل من الحيوانية.

وإننا نحيا اليوم بالأجيال التي وجدت الكتاب وقرأته وأحسنت قراءته ودرسه فما مصير أجيال لا تجد ثمن كتاب تشتريه، وتبحث عن كتاب تقرأه فتجد المكتبات العامة إن وجدتها إما مقفلة أو مقفرة وقد أمست المكتبات العامة اليوم نادرة توشك ألا توجد على الاطلاق.

وقد ناشدنا مجلس الوزراء، وأرجو أن يستبين المجلس اليوم أننا حين

ناشدناه لم نكلفه أمراً هين النتائج أو تافة الشأن لا يرقى إلى المسائل الكبرى التي يعرض لها، إنما نحن نناشده لأهم ما ينبغي له أن ينظر فيه، إما أن تكون مصر دولة حضارية متقدمة وتظل مصدر الاشعاع لأبنائها ولأبناء العالم العربي أجمع وتظل أيضاً مجمعاً لثقافات العالم أجمع تتلاقى في ساحتها عن طريق الكتاب كبريات الموضوعات العلمية والأدبية التي ينتجها العالم.

وإما أن تكون مصر دولة متخلفة متردية في مهاوي الجهل وعماية الجهالة وهي التي على جنباتها عرف العالم أول حضارة إنسانية أدركها التاريخ.

وإني اليوم أناشد رئيس الجمهورية الذي صاح وهو على المنبر يسلم جوائز الأداب والفنون أن الكتاب هو الحضارة.

وإني أعلم حين أناشده أنني أخاطب من يعرف للكتاب قدره لأنه رئيس مؤمن بالله وبرسوله وبكتبه ولأنه هو الذي نبه إلى مشكلة الكتاب، أما أنا فلن ينضب لي قلم ولن يصيبني ملل أو أرى شيئاً رأى العين يبشر أنني أخاطب سامعين وعاملين في وقت معاً. والله وحده هو المعين.

في أزمة الكتاب

المعتقل الوحيد

لست أدري أو ربما كنت أدري لذا أصبحت أشعر أنني حين أكتب مقالاً أصبح أشبه شيء بمن يلقي « منولوج غنائي » للنقد والترويح عن نفسي في وقت معاً ثم لا شيء بعد ذلك.

قد نجد عند المستمع أو القارئ ابتسامة رضاء أو هزة رأس مترنحة ثم لا شيء بعد ذلك.

أما إذا كان الخطاب منا لمسؤولين فالأمر يختلف بعض الاختلاف إن كانت المقالة تطالبه بعمل جاد انصرف عنها منشغلاً بكل شيء إلا أن يقوم بهذا العمل الجاد أو يفكر فيه، وحين نطالع نحن الجرائد الكثيرة والمجلات نجد الوزير معذوراً حقيقة أن يفكر في تحمل أعباء جديدة يلقيها في رحابة أصحاب المنولوجات هؤلاء، إن الأعمال تتزاحم على بابه وفي مفكرته حتى لا تدع له لحظة تفكير أو اهتمام بأشياء أخرى يريد أصحاب الأقلام أو المنولوجات أن يضيفوها إلى ثقيل حمله وتزاحم ساعات يومه وليله، ومن أين يأتي بوقت يفكر فيه في عبء جديد حتى ولو كان عبئاً أساسياً للدولة جميعاً وللأمة العربية بأسرها.

وبالمرصاد تقف له افتتاحات الأعمال الجديدة وقص أشرطتها ولقاء الوافدين وأصحاب الحاجات وحضور دعوات الغداء وحفلات العشاء. وحذار أن يظن سيئ ظن أن هذه الدعوات لمجرد المطعم أو المشرب. إنها لقاءات

عمل على غاية من الأهمية فهي توطد علاقات بين الوزير وبين أقوام قد تفيد العلاقات بهم في شيْ.

وصحيح أن الموضوعات التي نلقيها نحن أصحاب الأقلام أو أصحاب المنولوجات ـ أيهما فاختر ـ قد تكون حيوية وقد تبلغ أهميتها التأثير في مصر أجيال حاضرة ومستقبلة وقد يكون النكوص عنها تشويها لمصر جميعها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. ولكن كل هذا لا يهم ما دام الوزير يقص الشريط ويؤدي واجباته الوزارية الاجتماعية ولا يترك حفلة يؤمها أنانس إلا حضرها ولا دعوة يؤمها ضيف إلا شرفها.

وبعد فماذا يستطيع أصحاب المنولوجات أن يصنعوا، فليجروا أقلامهم على أوراقهم، ولتنقلب أحبار أقلامهم إلى أحبار جرائدهم وليهز الناس رؤوسهم ثم يمر اليوم الذي ظهر فيه المقال ثم يعقبه آخر ثم تتوالى إلى الأيام، والوزراء بمواعيدهم مشغولون والقراء أو مستمعو المنولوجات انصرفوا إلى هموم حياتهم اليومية و « يا دار ما دخلك شر » وما كتب كاتب ولا ألقى أحد منولوجات :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكان قد قيل وربما لا يزال يقال إن الصحافة سلطة رابعة، وفرحت الصحافة وزاطت وتعالت طبولها وتصاعد زمرها ثم مرت الأيام، وفي كثير من الأحيان يكون مرور الأيام كمر السحاب تحسبها ثابتة وهي تمضي في طريقها الذي لا عودة لها منه، وهي حين تمر ترسي الحق ان شاب الحق شك أو ألقيت دونه أستار من الدعاية أو حجب من التهريج أو ضجيج من الطبول أو عجيج من المزامير.

ومرت الأيام وانتهى النبا إلى مستقر وانبلج الحق واضحاً شهيراً ليست الصحافة سلطة وما لها من سلطان إنما هي كلام يقال ولا يصنع شيئاً.

وقد كانت الصحافة قوة عاتية لها في أزمان الحرية ناب وظفر وحصن

ومدفع وما كانت تسمى في ذلك الحين سلطة إلا على أفواه الناس دون أن يصدر بذلك مرسوم أو قانون.

حتى إذا صدرت المراسيم والقوانين بتنصيبها سلطة رابعة خبأ ضوءها وانحطم نابها وانكسر منها الظفر وهدمت منها الحصون وأصبحت مدافعها آلات تصاحب المنولوجات حين ينشد الكتاب هذه المنولوجات.

ليس عجيباً في زمان أصبح هكذا شأن الكلمة فيه أن يتوارى الكتاب حسيراً أسيفاً منهزماً خجلان ينظر كسير الطرف مهشم الجناح.

ونقرأ فيما نقرأ أن معرض فرانكفورت الدولي للكتاب عرض ثلاثمائة وعشرة آلاف كتاب من بينها اثنان وتسعون ألف كتاب جديد حديث الصدور. ونقرأ فيما نقرأ أن رواد المعرض كانوا مائتين وخمسين ألف زائر ربع مليون ونقرأ فيما نقرأ أن دور النشر المشتركة في المعرض كانت ستة آلاف، ومائة واثنين وتسعين ناشراً ..

ونرى رئيس جمهوريتنا الأمين المؤمن الشريف يقف كالطود الشامخ في شهر فبراير منذ عشرة أشهر مصدراً أوامره للمسؤولين جميعاً أن يعيدوا إلى الكتاب عرشه الذي فقده والذي أصبح بعد أن فقده ضائعاً تائهاً لا يجد بدلاً من العرش كرسياً أو حصيراً ينتشر منه إلى العالم.

ويصفق المصريون ويصفق معهم العرب، ثم ينشغل المسؤولون بكل شيْ إلا الكتاب.

وأكتب أنا مقالات هذه الخامسة منها أو السادسة ويكتب معي كتاب كبار في مصر والعالم العربي.

واناشد الوزير ثم أناشد الوزراء جميعاً وأستصرخ الشباب ثم أتبين آخر الآخر أنني وكل من كتب كنا نلقي منولوجات سمعها السامعون من المسؤولين فأشاحوا أو لم يسمعوها فكأنها ما قيلت، وأني اليوم أتوجه إلى الله العلي العظيم فهو وحده، القادر على أن يجعل الصوت يصل إلى الأذن ويجعل الأذن تعي ما تسمع ويجعل الناكص من الهمم ينشط، والمتقاعس من الجهد يهم.

وأتوجه مرة اخرى إلى الرئيس العظيم محمد حسني مبارك أن ادرك أعظم مظهر للحضارة في الدولة التي تسعد اليوم بالحرية التي أشعتها في ربوعها وأفشيتها في نواحيها فلم يبق فيها من معتقل حبيس بغير ذنب جناه إلا الكتاب وهو شمس العلوم والفنون والآداب ومشرقها، وهو الذي اختاره الله سبحانه من فوق سماوات سبع ليكون معجزته الخالدة على الأرض وختم به زمان أنبياء وحديث السماء إلى العباد .. أدركه فإن الله مثيبك إن فعلت ثواب المحسنين الذين إذا عملوا عملاً اتقنوه وأرضوا به الله وعباد الله.

حتى أبطال أفغانستان

ليس شيُ بغريب على الشيوعيين وقد تعودنا أن يطلعوا على الناس في كل يوم بلون جديد من الجرأة على الحق والاساءة إلى مشاعر الناس قاطبة، والتهجم على العدل الواضح الذي لا يختلف حوله اثنان ما دام ليس بينهما من هو صاحب غرض، أو مائل مع الهوى، أو حائد عن الطريق القويم الذي لا شك فيه.

ليس شيُ على الملحد بغريب وما من شيُ منه يدعو إلى الدهشة وأي تصرف يمكن أن يثير العجب من قوم باعوا دينهم بالمال، وتخلوا عن أوطانهم ورضوا أن يكون وطنهم بلاداً اخرى، وانسلخوا عن جماعتهم ليخلصوا ولاءهم لجماعة أبعد ما تكون عن مقدسات جماعتهم ومثلها وقيمها وأخلاقها.

ليس شيُ بغريب من قوم هذا دأبهم، ولكنني مع ذلك فجعت دهشة وعجباً وأنا اتابع الحملة الجديدة التي يشنها الشيوعيون على أبطال أفغانستان وزادت فجيعتي وهم يطلقون على الشعب الأفغاني الذي يقاوم الاستعمار متمردين أيكون المدافع عن حقه متمرداً؟! ماذا يقول هؤلاء الملاحدة؟!..

إنهم لا يشنون حملتهم على الجيوش الغازية المعتدية، ولا على الحكم العميل السفاح، لا ... ليست على هؤلاء حملتهم.

وإنما حملتهم على المجاهدين الأبطال الذين يقفون بأيد عزلاء أمام الوحوش الضارية التي تغزو وطنهم.

ترى، اتولاك العجب أيها القارئ ؟؟

أعرفت في حياتك وقاحة مثل هذه الوقاحة، وما أضعف الكلمة في وصف هؤلاء المصريين ــ أو الذين يقولون أنهم مصريون ــ وهم يؤيدون الاحتلال والغزو والجبروت وسفك الدماء والاعتداء على أمن الدول وسلامتها بلا وازع من ضمير أو حياء.

لا يشك أحد أن الاوامر قد صدرت لهم من حزبهم بشن هذه الحملة الرعناء الظالمة الهوجاء على قوم يقولون لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا رسول الله ثم يرمون بأنفسهم إلى أتون الهول الذي فتحه عليهم الغزاة

ولا يشك أحد أن هذه الأوامر كانت مشفوعة بالمغريات وبالتهديدات في وقت معاً.

ولكن ألم يبق للشيوعيين في مصر بقية مهما تكن هينة من خجل!؟
أو ظل مهما يكن واهناً من حياء؟!

أو إثارة مهما تكن واهية من الحفاظ على مشاعر المسلمين الذين يعيشون بينهم، بل لا يبالون بمشاعر المؤمنين جميعاً، لكم قرأنا كتابات في أزمان مختلفة وفي عصور عديدة، فما وجدنا كاتباً واحداً يدافع عن الاحتلال والقهر وغزو الدول المطمئنة الوادعة، فأي كتاب هؤلاء الذين طلع علينا بهم الزمن الأخير، وفي أي مداد يغمسون أقلامهم إلا أن تكون الدماء هي مدادهم والمال المنهوب والرشوة المنهمرة باعتهم والذي تنكسر أمامه كل مشاعر الانسانية التي أودعها الله في نفوس البشر.

يشهد غزو أفغانستان اليوم العام السابع له، بعد أن بدأت روسيا هذا الغزو بجيش قوامه ثمانية آلاف وخمسمائة جندي وثمانمائة دبابة وثلاثمائة طائرة.

وما أضخم هذه الاعداد في مواجهة شعب أعزل ليس بيده إلا بنادق عتيقة

الصنع، ولأن روسيا لا تعرف معنى الايمان فقد حسبت أن الغزو لن يستغرق أكثر من بضعة ساعات من نهار أو ليل.

ولكن روسيا تجهل أن هؤلاء الضعاف أجساماً هم العمالقة نفوساً وأن هذه الأجساد الهزيلة تملك قوة أعظم من أسلحة العالم أجمع.

إن قوتهم هي إيمانهم، إنها لا اله إلا الله التي تخفق بها قلوبهم، وأن محمدا رسول الله التي تجري بها دماؤهم في العروق. وبهذا الايمان صد هؤلاء العزل الزحوف الغازية، وبهت الذي كفر وإذا الغزاة الجبابرة يطلبون المدد ويتوالى المدد إرسالاً فإذا جنود الغزاة ترتفع أعداداً ارتفاعاً مذهلاً، فالآلاف الثمانية لا تصبح عشرة أو خمسين أو مئة، بل تصبح مائتين وثلاثين ألف جندي وإذا الدبابات التي تحارب اليوم في أفغانستان تصبح ثلاثة الاف دبابة وإذا الطائرات تصبح سبعمائة طائرة.

كل هذه الجيوش تحارب الحق والحق وحده.

ومع كل هذه الجحافل الضخمة لا يستطيع الغزاة أن يستولوا على أكثر من عشر مساحة أفغانستان، ويظل المجاهدون المؤمنون محتفظين بتسعة أعشار أرضهم.

وترغم الحكومة العميلة الجيوش الأفغانية النظامية أن يحاربوا أباءهم وإخواتهم وأبناءهم، ويحاول بعض منهم أن يرفض هذا القتال المفروض عليهم مع ذوي قرباهم وأصحاب الأرض والحق، فإذا بالحكومة العميلة ترغمهم إرغاماً ساحقاً أن يستمروا في حرب أنفسهم وتطلع علينا وكالات الأنباء بخبر عنوانه إعدام عشرين جندياً أفغانياً رفضوا القتال ضد الثوار.

وتستمر الحرب سبع سنوات والجيوش الزاحفة بكل جبروتها محاصرة بالايمان حولها وتصبح كمن مشى إلى رمال متحركة تبتلع كل قادم إليها ولا تتركه حتى يموت خنقاً فيها.

ويزداد السعار وتتحول الجيوش السفاكة المغلوبة المدحورة من حرب الرجال إلى محاربة الأطفال فإذا هم يعذبون الأطفال ويقتلونهم أمام أنظار

أبائهم وامهاتهم. ويذكر الأفغانيون ما شهده أتباع الرسول من كفار ذلك الزمان الجاهلي ويزدادون إصراراً على التمسك بإيمانهم وبأرضهم.

قد يقول قائلهم ولكن عتاة مكة والمجرمين من أهل الكفر لم يعذبوا الأطفال أمام والديهم، ثم ما يلبثون أن يرتدوا إلى إيمانهم، إذن فبشرانا فبقدر الهول الذي نشهده يكون إكرامنا عند العدل المطلق عالم الغيب والشهادة.

هذه الوحشية التي لم يشهد أي تاريخ لها مثيلاً يباركها الشيوعيون في مصر بإيعاز من شياطينهم وتتوالى مقالاتهم في أكثر من مجلة تؤيد الغزو وتتمدح به وتذكر أفضاله وأثاره العظيمة على البلاد، وهم في حمأة اندفاعهم في المديح لا ينسون أن يقولوا : « إن الغزو يعمل على نشر التعليم جميعه والتعليم الديني خاصة » ولا يذكرون أن الهاربين من جنات الاحتلال بلغوا في باكستان وحدها ثلاثة ملايين نفس، ولا يهمهم ما تتناقله وكالات الأنباء من السرقات والرشي والاعتداء على الحرمات التي تمارسها القوات الغازية على أفغانستان جميعاً حكومة وشعباً.

ما لهم هم وهذا؟ إن الأوامر قد صدرت لهم أن يمدحوا وإن يقولوا أن الغزو حمل معه إلى أفغانستان الحياة السعيدة الهانئة وإنه طبق قوانين الاصلاح الزراعي ومبادئ ماركس الخالدة، ووهب الشعب المكاسب الاشتراكية وتتزايد جرأتهم على الحق فيصبون سخيمتهم على السادات الزعيم الخالد أنه سلم أسلحة روسية للمجاهدين ويرون أن هذا الذي صنعه السادات عملاً من أعماله الجديرة باللوم فهم اليوم يرون أن كل ما صنعه السادات سيئ، حتى مساعدة أصحاب الأرض أن يستردوا أرضهم.

ويقول قائلون إن الروس اكتشفوا البترول والغاز وفتحوا لهم العيادات الطبية وجهزوها، وأنشأوا مصانع للسيارات، بل أنشأوا عشرات المصانع ونشرت الجيوش المعتدية المحبة والسلام في ربوع البلاد إلى غير هذا من المآثر والأفضال التي تعود الاحتلال أن يدعي أنه يفعلها في الأراضي المحتلة وكلها أكاذيب لا ظل لها من الحقيقة وما يقولها قائل إلا نال ثمن قولها.

أحسب أن الغيظ قد تملكك مما تقرأ، ولكن ما يهم المهم أن يمتدحوا

بالغزو والاحتلال والقضاء على الدين والايمان وحق الانسان الطبيعي أن يعيش آمناً في وطنه مطمئناً.

وقد أسمع من يقول : وأي عجيبة فيما يصنعون؟ أنسيت أنهم أيدوا احتلال إسرائيل لفلسطين هاتفين بحياة روسيا التي كانت الدولة الثانية في العالم في الاعتراف بالدولة الاسرائيلية لم تسبقها في ذلك إلا أمريكا التي ما زالت الوطن الام لاسرائيل حتى اليوم.

وهم هم أنفسهم اليوم الذين يلصقون بالسادات العظيم كل ما في قاموسهم من سفالات لأنه وقع السلام مع إسرائيل.

وهم هم أنفسهم أعلى الناس صوتاً في الدفاع عن فلسطين وعن القضية.

متى كان لهم رأي يقفون إلى جانبه، أو مبدأ يثبتون عليه إلا الالحاد بالله ورفض الانتماء إلى الوطن.

ولا يكتفون بالقول بل هم يشفعونه بالعمل ويؤلبون العمال في المحلة وفي شركة أسكو، بعد أن خاب سعيهم في تجمعات الطلبة. يريدون لمصر أن يتحطم فيها الانتاج وأن يعمها الخراب لأن تربتهم هم هي الأرض الخراب.

ولولا أن رئيس مصر مسلم قوي الايمان، مصري عميق المصرية لطالبوه أن يستدعي الجيوش الغازية في أفغانستان لتنشر في مصر الخير والبركات والسعادة والهناء التي لا يخجلون أن يقولوا إن الجيوش الغازية قد نشرتها في أفغانستان.

ليقل الشيوعيون ما يشاءون، ولكن أحسب أنه ينبغي أن يقف بهم الأمر عند الكلام، فإذا تعداه إلى العمل وإلى التسلل في الجماعات من عمال إلى غير عمال فإننا لهم بالمرصاد، فإن الأمر جد لا يصلح معه الهزل، وإذا كانوا يركبون الحرية ليقتلوا بها الحرية فليكن هذا في الكلام فقط وهم في هذا الميدان يمرحون ما شاء لهم المرح حتى لقد طغا صوتهم في أجهزة الاعلام على كل صوت، وهم يقولون في مجلاتهم وفي الصحف القومية ما شاءوا أن يقولوا ولكن الفرق بعيد بين صيحاتهم هذه وبين أن تصبح هذه الصيحات

عملاً وفتنة، تآليب المخابيل البلهاء على الديمقراطية والحرية التي تنعم مصر بها اليوم.

وإذا كانت الحكومة قد وسعت لهم مجالات الاعلام جميعها من صحف إلى مجلات إلى إذاعة إلى تليفزيون فإن على هذه الحكومة نفسها أن تمنعهم أن يثيروا الفتنة ويشعلوا الثورات.

وإذا كان وجودهم الواضح بالاعلام يهدد الاقتصاد المصري تهديداً عنيفاً تدريه الحكومة كل الدراية.

فإن الفتنة التي يريدون إشعالها هي القضاء الكامل على هذا الاقتصاد الذي لا يحتمل اليوم أقل هزة فحسبه ما يعاني وحسبنا نحن المؤمنين الله فإنه نعم الوكيل.

وبالحق نزل

قرأت فيما قرأت منذ قريب كلاماً حاولت أن أجمع شتاته فتأبى علي ونفر أن يلتئم ورفض أن ينسجم بعضه مع بعض، فقد قال القائل إن الشيوعية لا تتعارض مع الاسلام وتلك عجيبة من العجائب وقد حاول الكاتب أن يسوق الأدلة ويدعم رأيه بالبراهين فإذا بالأدلة تنهار جميعاً وإذا دعائمه تتساقط مع براهينه لتصبح أنقاضاً من هذاء وحطاماً من لغو الكلام.

فالشيوعية لا تجتمع مع الاسلام في وعاء واحد أبداً، ولا يستطيع أن يكون إنسان ما شيوعياً ومسلماً في وقت معاً مطلقاً.

فالاسلام يقوم على خمس أهمها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ..

وهاتان الشهادتان ليستا مجرد كلام يقال وإنما هما كلام وعمل، وقول وفعل ونطق وإيمان ..

لا بد أن نؤمن أن الله واحد أحد وأنه سبحانه أرسل رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام، وجعل معجزته هي المعجزة الوحيدة الخالدة في تاريخ جميع الرسل والأنبياء، فكل معجزات الأنبياء كانت بصرية شهدها قوم النبي الذي أرسل إليهم والذين عاصروه، بل والذين تصادف وجودهم وقت وقوع المعجزة.

أما الاسلام فمعجزته القرآن، كتاب لا يأتي عليه الزمان ويأتي هو على

الزمان باقياً خالداً دائماً تتلقاه الأجيال كما أنزل لا يختلف في حرف من حروفه عن يوم أوحى به إلى خاتم الأنبياء إلى يوم تقوم الساعة.

ويقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾سورة الاسراء « ١٠٥ » تعاليت يا سبحانك، هذه الدقة في التعبير لم تعرفها اللغة في كل مكان من كلام قبل الكتاب، وفي كل ما تبعه من ألوان القول.

وهذه التفرقة الدقيقة في آيته الكريمة لم تعرفها اللغة إلا في القرآن الكريم .. فالله سبحانه وتعالى يعلن البشرية أنه أنزل كلامه بالحق ولا يكتفي بهذا بل يعلنهم جل وعلا أنه بالحق نزل.

فهو حق في بداية رحلته وهو حق حين انتهت رحلته ليصبح بلاغاً إلى العالمين. فيا أيها الناس إعلموا منذ نزل القرآن إلى أن يرث الله الأرض وما عليها أن هذا القرآن صدر عن الحق وأصبح بلاغاً لكم وبالحق لا يستطيع باطل أن يتغشى حرفاً منه بظل مهما يكن هيناً.

وهو سبحانه يضمن للعالمين أنه هو المسؤول عن ذكره .. فيقول سبحانه ﴿ أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ صدق الله العظيم ـــ سورة الحجر « ١ » وقد فعل سبحانه وبقي الكتاب وهو باق إلى الأبد الأبيد.

فالذي يقول لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يشهد بهاتين الشهادتين أن الله أرسل سيدنا محمدا بكتابه العزيز وأن الكتاب أنزله الله بالحق وأنه بالحق نزل.

وليس في الأمر إجتهاد إذن .. وما دمت شهدت الشهادتين، فأنت إذن تشهد أن القرآن من عند الله.

وأنت ملزم أن تؤمن بكل ما جاء في هذا الكتاب، وما دام كتاب الله فأنت لا تستطيع أن تقبل منه ما تقبل وترفض منه ما ترفض فهو ليس كلام بشر مثلك، وإنما هو كلام الله الذي هو الله فإذا كان الأمر كذلك وإنه لكذلك، فكيف يستقيم في الأذهان أن يكون هناك شيوعي مسلم.

ولست أريد أن أدخل في جدل عريض حول أصل النظرية الشيوعية من ماركس إلى من تبعه بإلحاد إلى آخر شيوعي. وإنما أريد أن أناقش ما لا شك فيه.

فالنظرية الشيوعية ترفض الملكية التي تعود بالمال على صاحبها.

وترفض النظرية الشيوعية فكرة الميراث جملة وتفصيلاً.

وأسأل هؤلاء الشيوعيين كيف يستقيم هذا مع ما جاء في القرآن فهل تراهم يجيبون؟

لن يجدي هناك قول القائل منهم إنه مسلم وإنه يقيم الصلاة في مواقيتها وإنه حج بيت الله الحرام، فكل هذا لن يغنيه عن الاجابة شيئاً.

فهو ما دام مسلماً فلا بد أنه يعرف أن هناك سورة اسمها سورة النساء وما دام يعرفها فلا شك أنه يعرف تفاصيل المواريث التي أوردها الله سبحانه في هذه السورة، وهي تفاصيل لم يذكرها سبحانه وتعالى عن الصلاة وهي الصلاة، فالقرآن لم يذكر عدد الركعات في كل صلاة ولم يذكر سبحانه كيفية الصلاة من ركوع وسجود ولست أريد بذلك أن أقول إن المواريث أهم ــ أعوذ بالله سبحانه أن أقصد إلى شيء من هذا ــ وإنما أردت فقط أن أشير إلى مقدار الأهمية التي شمل الله بها فكرة الميراث في قرآنه الكريم.

فكيف يريد الشيوعيون أن يحرموا الميراث والملكية ويظلوا بعد ذلك مسلمين .. هيهات.

لقد كان كارل ماركس أكثر صراحة ــ أم الأجدر بي أن أقول ــ إنه كان أكثر وقاحة منهم، فقد علم يوم أنشأ نظريته أنها ستتعارض مع جميع الأديان فألغى الأديان جميعاً واستراح وأتعب البشر من بعده.

فإذا نظرنا إلى تطبيق النظرية في البلاد الشيوعية وجدنا الكنائس أصبحت متاحف، ووجدنا الدول الشيوعية تمنع غير الملحدين أن يدخلوا الحزب الشيوعي، وويل أي ويل لإنسان في البلاد الشيوعية لا يكون عضواً في الحزب الشيوعي.

إن الشيوعية حرب على الأديان جميعاً بنص النظرية وإذا كان المشرعون للنظرية الشيوعية في موسكو يجيزون لاتباعهم أن يدعوا التدين ليجتذبوا الناس إلى نظريتهم فإن الاسلام وجميع الأديان لا تتيح لاتباعها أن يختاروا من الدين ما يحلو لهم فيعتنقوه وينصرفوا عما لا يروق لهم وينبذوه.

إن الدين كل متكامل لا يجوز لأحد من البشر أن يختار منه ويرفض.

وإذا كانت الأوامر قد صدرت للشيوعيين في الدول الاسلامية أن يدعوا الاسلام كفترة يسمونها مرحلية، فإن الاسلام والمسلمين يعلمون المؤمنين والكافرين ويستطيعون في يسر وفي منطق لا يقبل الجدل أن يعرفوا المسلمين إسلاماً يسترون به إلحادهم والمؤمنون الذين يعرفون ماذا يعني قولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ومن عجب قولهم في ميدان الالحاد أن أصل العالم مادة ثم هم يفصلون نظريتهم في الخلق تفصيلاً جريئاً لا مثيل لجرأته، وهم بهذه النظرية يريدون أن يقولوا إنهم يرفضون فكرة الايمان بالغيب وإنهم لا يؤمنون بغير العلم.

فإذا هم ودون أن يشعروا يقيمون نظرية تقوم كلها على الغيب لا يؤيدها أي دليل علمي أو روحي. فالأمر الذي لا شك فيه أن ماركس لم يكن شاهداً على بدء الخليقة كما لم يكن انجلزا ولينين حاضرين، فكيف إذن استقامت النظرية بين أيديهم ويطلقون عليها اسم النظرية المادية ويطمئنون إلى ذلك ويستريحون.

بينما نصدق نحن المؤمنين ما جاء في القرآن عن بدء الخليقة في منطق منسجم مع طبيعة إيماننا كل الانسجام، فالذي عرف سر الروح في الانسان أرسل إلينا كتاباً هو معجزة الدهور وفي هذا الكتاب ذكر كيف نشأ الخلق، وما دمنا لم نعرف سر أرواحنا فحتم علينا أن نصدق كل ما يقول.

ويصبح القرآن الكريم في خلق الله أجمعين ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ سبحانك ما أعظمك ولكن الملحدين لا يبصرون ولا يريدون أن يبصروا. فعلى القلوب إقفالها وهم يستمدون إلحادهم من جيوبهم ومن أرباحهم ثم هم يزدادون جرأة على الحق ويدعون أنهم مؤمنون.

وما داموا قد فقدوا الايمان بربهم فلا عجب أن يفقدوا الايمان بوطنهم وها هم أولاء يشعلون الفتن في كل يوم ويلقحونها بالسخيمة والأحقاد والضغائن ويستجيب لهم فتية أبرياء لا يدزون أنهم جعلوا منهم الوقود ليحرقوا به أمن الوطن.

وليس لكافر ميثاق ولا عهد، وهؤلاء الشيوعيون يعلمون أن نباتهم لا ينمو إلا في الأرض المحترقة وفي أنقاض الأوطان وها هم أولاء يحاولون أن يحرقوا بلادنا ويهدموا أركانها.

ولكن هيهات أن الشعب لهم بالمرصاد ومن فوقه العزيز ذو القوة المتين، وما خاب من كان الله ظله وعونه وملاذه وملجأه.

ويصل إليَّ خطاب من الصعيد يسألني لماذا أكتب عن الشيوعيين وهو لا يعرف عنهم شيئاً، هنيئاً لك إنك تجهل أمرهم فقد أكرمك الله بهذا الجهل كل الاكرام، ولكنني يا أخي لا أعرف ما هو الموضوع الذي تعرفه أنت حتى أكتب فيه أنا، وما دام الأمر كذلك فاقرأ أنت عما لا تعرفه فإن هذا هو خير لك ولي من أن أكتب أنا عما أجهله أنا وتعرفه أنت ألا ترى ذلك؟..

وجهان لعملة واحدة

كنت أحسب أن الكتابة في موضوع ينبغي ألا تزيد عن مرة واحدة أو مرتين على أكثر تقدير، وكنت أحسب أن المهتمين بالحياة العامة يتابعون عن كثب ما يكتبه الكتاب، ولكن يبدو أنني كنت ساذجاً في حسباني هذا غاية السذاجة والدليل على ذلك أنني كتبت مرة عن الصلة بالأدب والسياسة، فلم تكف ووجدت من يجادلني في هذا الشأن فكتب ثانية، فلم ينته الجدل، فكتبت ثالثة واعتقدت أنني وفيت الموضوع حقه في جميع أبعاده وأنني لن أجد من يناقش هذا الأمر مرة أخرى معي على الأقل.

ولكن خذلتني الحقيقة وتبينت أنني كنت فيما أظنه واهماً، فقد فاجأني أستاذ فاضل من أكثر الناس صلة بالحياة العامة بل هو من العاملين في غمارها بل لا عمل له إلا هذه الحياة العامة فهو كاتب متمكن وصحفي ذو مكانة، وأنا من المعجبين بما يكتب ومن المعجبين به صديقاً وإنساناً وصحفياً.

فاجأني الصديق برأي له عن الصفحة التي أشرف بالقيام بأمرها في الأهرام، فهو يقول أنك تكتب في هذه الصفحة السياسية، بينما القراء ينتظرون أن يقرأوا فيها أدباً، ومساحة السياسة في الأهرام ضخمة بينما الأدب ليس له إلا نصيب قليل وصفحتك تمثل جانباً ضخماً من هذا النصيب .. فإذا كتبت مقالاتك في السياسة أسهمت في اضعاف هذا النصيب.

وناقشت الصديق ثم رأيت أن حجتي ينبغي لها أن تكون للناس كافة وليس للصديق وحده.

وبادئ ذي بدء أنا لست استاذاً جامعياً أكتب في الأدب الخالص فإن أحداً لا ينتظر مني أن أكتب فصلاً في خصائص الشعر الجاهلي أو أكتب مقارنة بين الأدب في العصر العباسي الأول وبين الأدب في العصر الحديث.

كما أن أحداً لا ينتظر مني ــ وأنا الروائي والقصاص ــ أن أكتب فصلاً في نقد رواية أو مجموعة قصصية. وحين أفعل ذلك أدخل في ميدان ليس لي لأن النقد حين أكتبه أفعل ذلك عن تذوق شخصي وليس على المبادئ الأكاديمية فأنا نفسي كاتب رواية وقصة ومن الطبيعي أن أكون من بين المتعرضين لنقد النقاد وليس من المفروض أن أكون أنا نفسي ناقداً.

والواقع أن المقالات النقدية القليلة التي أكتبها هي على سبيل التنويه وليست على سبيل النقد المنهجي المتخصص فلهذا النوع من النقاد أساتذته المهيأون له بثقافتهم ودراستهم وطريقهم الذي اختاروه في الحياة.

وإذا كان بعضهم يميل مع الهوى ومع الصداقات ومع المذاهب الايديولوجية التي يعتنقها فهذا لا يعني أن للنقد أهله، وإذا كان أغلبهم لا يقوم بواجبه من متابعة الأعمال الأدبية التي تظهر في حياتنا فهذا أيضاً لا ينفي أن للنقد كتابه.

ومن المؤكد الذي لا شك فيه أنني لست من بينهم.

والآن أعود إلى صديقي الذي دهمني برأيه، أي نوع من الأدب الخالص تريدني أن أكتب؟

أنا أعرف ..

الذي ينبغي لي في ميدان الأدب الخالص ولا ينبغي لي غيره أن أكتب رواية.

وأحسب يا صديقي أنني لا أتكاسل عن هذا ما أسعفتني الفكرة فالرواية ليست بحثاً وإنما هي فكرة تطرق ذهن الكاتب ويظل بها وتظل حتى يرى أنها تصلح أن تكون رواية فيكتبها.

والذي ينبغي لي في ميدان الأدب الخالص أن أكتبه قصة قصيرة أو صورة قلمية.

واحسب يا صديقي أنني أفعل ذلك ما وافتني فكرة القصة أو الصورة القلمية ولكن الأمر ليس يسيراً، وأنا في هذا الشأن لست مطلق الارادة، إنما أنا أتلقى الفكرة وحيا فإن لم تأت فهيهات لي أن أكتب افتعالاً أو تعسفاً ولكن الأمر يا صديقي أخطر من هذا وأجل شأناً «كيف استطعت وأنت تعمل في الصحافة وفي الأدب أن تضع هذه التفرقة بين الأدب والسياسة».

إن الأدب إذا انفصل عن السياسة أصبح أدباً ميتاً غير جدير بالوجود بله بالبقاء.

الأديب شاهد على عصره، والأديب أديب بأسلوبه في كل موضوع يتناوله.

والأديب حين يكتب الرواية سياسي، وهو سياسي حين يكتب القصة بل أن الأديب الناقد سياسي أيضاً لأنه حين ينقد الرواية ينقدها في ظل الحياة الاجتماعية التي تصورها، والحياة الاجتماعية سياسة.

السياسة هي كل الحياة التي نعيشها، والأديب في كل باب من أبواب الأدب يكتب هذه الحياة ويترجمها إلى الناس. إلى الذين يعايشونه وإلى الأجيال القادمة جميعاً.

وعميد الأدب العربي كتب مقالات سياسية صريحة ثم هو سياسي حين كتب أحلام شهرزاد والمعذبون في الأرض وشجرة البؤس والأيام ودعاء الكروان وأديب.

وهيكل باشا من الزعماء السياسيين وصل إلى الزعامة السياسية بأدبه وحده وهو أديب سياسي حين كتب كتبه الاسلامية، وأديب سياسي حين كتب روايته، ان رسم المجتمع سياسة، وأمال الأديب في الحياة سياسة.

والعقاد ما رأيك في أدبه السياسي؟ ألا يكفيك اسم العقاد مثالاً رائعاً على اندماج الأدب بالسياسة، فعبقرياته أدب سياسي ومقالاته الصريحة في السياسة

أدب سياسي وكتبه في البحث أدب سياسي، ولا يستطيع الأدب إلا أن يكون سياسة أو هو غير كائن.

وتوفيق الحكيم أديب سياسي منذ كتب أهل الكهف حتى يومنا هذا، وقد كانت له في أخبار اليوم مقالات سياسية أسبوعية، ورواياته كلها سياسية منها الصريح الذي لا شك فيه مثل شجرة الحكم والسلطان الحائر وايزيس. ومنها ما تتوارى فيه السياسة خلف الرمز مثل بنك القلق والورطة والصفقة وكل رواياته لا أستثني عنها شيئاً، فمسرح المجتمع كله سياسة لأن السياسة هي المجتمع.

وإذا تركنا هذا الجيل إلى الجيل التالي له ..

أليس روايات نجيب محفوظ كلها سياسية، فماذا تكون إذن؟ إن منها الصريح مثل ميرامار والثرثرة والحب فوق الهضبة وأمام العرش، ومنها غير الصريح. وكلها تتناول المجتمع الذي هو السياسة.

إن مجال السياسة هو المجتمع ومجال الأدب هو المجتمع فلا يمكن أن يكون بينهما انفصال بأي حال من الأحوال.

إن ما يكتبه عبد الرحمن الشرقاوي في الأدب التاريخي سياسة وكل مسرحياته سياسة فليس عجيباً أن يكون مقاله الاسبوعي في الأهرام سياسة أدبية.

هو سياسة أدبية وأدب سياسي في وقت معاً، إن الاسلوب الذي يكتب به الأدباء في السياسة لا يتأتى إلا لادباء، وهذا هو الأدب السياسي.

وأرجع معك إلى شوقي أليست رواياته سياسية ..
وعزيز أباظة أليست رواياته سياسية ..

واستعرض معي بعض ديوان شوقي إنه تاريخ مصر في عهده قدمه إلى الأجيال شعراً.

إقرأ معي لشوقي :

أأم المالكيـــن بنـــي امـــون
ليهـــنك أنهـــم نزعـــوا أمونـــا
ولـــدت له الماميـــن الدواهـــي
ولـــم تلـــدي له قط الأمينـــا
فكانـــوا الشهب حيـــن الأرض ليـــل
وحيـــن النـــاس جد مضللينـــا
مشت بمنارهـــم في الأرض رومـــا
ومـــن أنوارهـــم قبست أثينـــا

واقرأ معي لشوقي في وداع كرومر :

أيامكـــم أم عهـــد اسماعيـــلا
أم أنت فرعـــون يسوس النيـــلا
أم حاكـــم في أرض مصر بأمـــره
لا سائـــلا أبـــدا ولا مسؤولا
يا مالكـــا رق الرقـــاب بيـــأسه
هلا اتخـــذت إلـــى القلـــوب سبيـــلا
لمـــا رحـــلت عن البـــلاد تشهـــدت
فكـــأنك الـــداء العيـــاء رحيـــلا

وبعد فماذا أنت قائلاً؟

هذه المقالة التي قرأتها الآن أليست أدبا؟؟!

إنها أدب ولكنها أيضاً سياسة ..

إنهما وجهان لعملة واحدة لا ينفصلان.

كتاب جليل عن سيد المرسلين

أما الكتاب فاسمه « سيرة النبي العربي » وأما المؤلف فهو الاستاذ الكبير أحمد التاجي، وليس عجيباً أن يصدر هذا الكتاب الجليل المتمكن ولا يذكره أحد فالكتّاب مشغولون في غير شغل والنقاد من علماء الأدب وعلماء الدين يتركون ما ينبغي أن يرصدوا له جهدهم من خدمة العلم وابتغاء الآخرة إلى خدمة المال ونشدان الدنيا فأصبحوا يبيعون دينهم بالمال ويشترون الفانية بالبالية والدنيا بالعليا.

ولولا أن الله سبحانه وتعالى يتيح لأمثال هذا المؤلف أن يخرجوا علينا من حين لآخر بمثل هذا الجهد الرائع لتولى اليأس نفوسنا وأحبطت أمالنا وخاب فالنا، لا علينا ولنتجه معاً خاشعين إلى سيرة سيد المرسلين فنجد في الصفحات الاولى من الكتاب عجباً.

أما المقدمة فهي بقلم الامام الأكبر السابق الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود وهي مقدمة كريمة تدل على أن مولانا الأمام قرأ الكتاب بإمعان وأمانة شأنه رحمه الله في كل ما كان يتصدى له.

فإذا مضينا مع الكتاب قدما وجدنا الاستاذ يعرض في المقدمة لقضايا احتسبها الناس والمؤرخون مسلمات حتى قل من بينهم من تعمق الحق فيها أو أنعم النظر.

فنجده يقول مثلاً، جاء في بعض كتب السيرة أن خديجة أم المؤمنين قالت للنبي ﷺ عقب وفاة ولدها القاسم :

ــ درت لبينة القاسم فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته لهان فقده علي.

فقال عليه الصلاة والسلام :

ــ إن له مرضعاً في الجنة تكمل رضاعته.

قالت :

ــ لو أعلم ذلك لهان فراقه علي

قال :

ــ لو شئت أسمعتك صوته في الجنة

قالت :

ــ بل اصدق الله ورسوله

ويعلق الاستاذ أحمد التابعي على ذلك قائلاً :

ويعرف قراء السيرة حق المعرفة أن القاسم توفي قبل أن يبعث محمد رسولا فليس من المعقول أن ينسب إلى النبي ﷺ هذا الحديث.

ما دام الحديث قد صح عندهم بإسناده فالأرجح أن يكون قد قاله في شأن ولده عبدالله الملقب بالطاهر وبالطيب وقد أنجبته بعد البعثة ولم يقله في القاسم كما رووه.

وهنا أحب أن أسأل الاستاذ الجليل سؤالا يلح علي : لماذا هذا التقديس الخائف من رواة الأحاديث، إن هذا الحديث مثلاً قد جاء بالاسناد عن القاسم وليس عن عبد الله أليس الأكثر منطقاً أن يكون واحد من رواة هذا الحديث قد ألفه وأخذه عنه الآخرون في غير تفكير.

ولقد رأيتك يا سيدي الاستاذ جريئاً غاية الجرأة في مناقضة امور هي في ذاتها أهم ألف مرة من مثل هذا الحديث الذي شككتنا أنت في صحته.

ولأنقل عن كتابك نقلاً :

« تذكر روايات السيرة المشهورة أيضاً في شأن رضاعة النبي : ان المراضع التي وفدت إلى مكة كانت زاهدة في محمد الطفل اليتيم لفقره، ولم تأخذه حليمة إلا لأنها تأخرت عن قومها ولم تجد غيره، وخشيت إن رجعت بدونه أن تعيرها النساء، ويذكر هؤلاء الرواة أنفسهم أن محمدا كان حينئذ في كفالة جده عبد المطلب سيد مكة وأن عبد المطلب لم يكن فقيراً فقد افتدى ولده عبدالله قبل مولد محمد بعام بمائة من الابل قدمها قرباناً فأكل منها الناس في الوادي والوحوش في الجبال، وفي عام مولد محمد وهو عام الفيل كانت له العديد من الابل ترعى في وديان مكة فاستولى عليها أبرهة وكان بينه وبين عبد المطلب حوار، ويذكرون أيضاً أنه حين مات عبد المطلب كفنه أولاده في حلل ثمنها ألف مثقال من الذهب، ووجدت له ديون بمبالغ طائلة على تجار اليمن، فكيف يكون رجل هذا شأنه في حياته وبعد مماته ثم تزهد المراضع في الغلام الذي يكفله سيد مكة وتزعم أنه فقير، ولم يكن النبي ﷺ فقيراً ولم يكن أي نبي فقيراً .. فالفقر مثله وما بعث نبي إلا في عز ومنعة من قومه، أي يختاره ربه من سادة المجتمع وأوساطهم ليكون في حياتهم. انظر قول شعيب لنبيهم ﴿ ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله .. ﴾ سورة هود الآيتان ٩١ ــ ٨٢.

ولم يكن النبي ﷺ فقيراً بمعنى أنه معدم، والفرق كبير بين الفقير وبين الذي يجد ثم يزهد في متاع الحياة ليحصل على جزاء أعظم عند الله والأنبياء من هذا القبيل، وربما جاء هذا الفهم الخاطئ من جهلهم لمعنى قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى ﴾ سورة الضحى الآيتان ٧ ــ ٨.

فالضلال هنا الحيرة التي اعترت النبي ﷺ قبل البعثة وقد كان يخلو إلى نفسه في حراء، ويتساءل : أين ربي؟ وكيف أصل إليه؟ وما دين ابراهيم الذي يتلمسه الحنفاء من العرب وأمثال ذلك.

كان فقيراً إلى من يأخذ بيده ويهديه إلى الحق فهو فقير إلى المعرفة بالله،

فأنقذه الله من حيرته وعرفه بربه وأغناه عن سواه وبهذا من الله عليه في سورة الضحى والله هو المنان، فلم يكن النبي ﷺ فقيراً بمعنى أنه كان قليل المال فكثر الله ماله كما يفهم المفسرون السطحيون ولهذا نقرر أن النبي لم يكن فقره قلة مال، ولم تزهد فيه المراضع كما تزعم كتب السيرة وكل ما قصته من نسج خيال القصاصين ظانين أنهم بذلك يستدرون عطف السامعين والنبي في غنى عن ذلك ».

وبهذا انتهى النص الذي حرصت أن أنقله بحرفه فقد واجه به المؤلف في جراءة نادرة المثال أمراً تكاد تجمع عليه كتب السيرة إن لم تكن قد أجمعت فعلاً.

وبعد سيدي الاستاذ فهيهات أن أستطيع أن أسير معك في الطريق المشرق الذي سرت فيه مصاحباً لسيرة النبي الذي بعثه الله للناس رحمة وبشرى وهدى وحمله أعظم رسالة عرفتها البشرية وكل ما أستطيع قبل جهدك الباذخ الشريف أن أدعو الله أن يثيبك على قدر جهدك وعلى قدر إخلاصك وصدقك في حمل أمانة القلم وأنه سبحانه لمجيب وهو من قال عن رسوله :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ سورة التوبة الآية ١٢٨ وصدق الله العظيم.

وبعد مرة اخرى فما لنا وقد بدأنا عامنا الميلادي الجديد بمولد سيد المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ألا ندعو لشعب مصر جميعاً الذي يشهد في هذه الأيام الأعياد بمولد الرسولين أن يكون اقتران الموعدين بشريات تصبح حقائق في عامه الجديد وما لنا إلا التوجه إلى الله القدير في علياء سمائه وفي رفيع ملكوته أن يسبغ علينا من لدنه رحمة وأمنا وسعادة ورخاء وهناءة وبشرا وما لنا إلا تكون آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين؟! ..

يمدحون القاتل والقتيل

عجيب شأن بعض الكتّاب يتمدحون بالحرية ويتغنون بها فإذا غاب منها شعاع أو خبأ منها ومض بكوا عليها في حسرة وصراخ وأنين وحزن وهم في نفس الوقت وبالقلم ذاته يشيدون بقاتليها ويتغنون بخانقيها ويهتفون صارخين بحياة مدمريها.

كيف يستطيعون وتستطيع أقلامهم أن تهتف في وقت واحد وفي صوت لم يتغير بالقاتل والقتيل وبالذابح والذبيح وبالسفاح والمسفوح دمه وبالسفاك وبمن سفكت مياه حياته.

كيف تخرج الكلمة الواحدة من أفواههم فينصرف نصفها إلى البكاء على الحرية وينصرف النصف الآخر إلى الهتاف باسم من قضى عليها.

كيف يكون حراً من يرفع اسم السفاحين شعاراً أولئك الذين أجهزوا على الحياة في الحياة وعلى الكرامة في الانسان وعلى العرض من الرجال والنساء.

كيف يكون حراً ويهتف باسم القتلة .. قتلة الحياة وقتلة الأعراض وقتلة الكرامة.

وما الانسان إن لم يكن عرضاً وكرامة، وكيف يكون إنساناً من يمس هذين فكيف به وقد قضى عليهما بجبروت السلاح وطغيان الحاكم وعنفوان التفرد.

إن معنى الانتصار أن يشعر أبناء الدولة بالكرامة، بذلوا الدم فعادوا بالشرف

وقدموا الحياة فأبوا بالفخار فإذا محق عنهم الشرف بالاعتداء على كرامتهم فلا فخار لهم ولا عزة ولا انتصار فكيف إذا اجتمعت عليهم الهزيمة والعار وفقدان الكرامة ومحق الانسان في داخلهم؟

إن الكاتب هو صوت الحرية منذ عرفت الحرية.

وعجيب أن يشوب صوت الكاتب عن انطلاقات الحرية شائب، فهو لا شك يدري أي صوت نكبر يمكن أن يصدر عنه إذا كان هتافاً بحياة السفاحين والقتلة والذين عذبوا الحياة وأهدوا كرامة البشرية واعتدوا على أرفع ما وهب الله للانسان عقله وكرامته.

إن يكن هذا الصوت يرتفع اعتذاراً عن ماضٍ لهم كانوا فيه سدنة الظلم ورافعي راياته والمؤيدين لأياديه الفراسة المخضبة بدماء الكرامة الانسانية والحياة فما أبأس موقفهم بالأمس وما أهون دفاعهم عن أنفسهم اليوم، أيحسبون أنهم بما يكتبون يخادعون الناس .. هيهات أو يحسبون أنهم يخادعون أنفسهم .. ألف هيهات .. إنها مرتكسة عليهم جاثمة بذنوبها على ضمائرهم تؤرقهم في نهار وتقض منهم كل مضجع بليل ولا خلاص لهم وإن كتبوا مئات المقالات ولن تزيدهم كتاباتهم إلا خساراً.

وإني اليوم بهذا الذي أكتبه أصيح بهم هونا ما فإن كان صوتكم بالأمس نكيراً فهو اليوم أشد نكراً وإن كان بالأمس ناشزاً عن الحرية فلهو اليوم نافراً عن الحياة فبعض هذا الذي تفعلون بالناس وبعض هذا الذي تفعلون بأنفسكم فإني أخشى أن يصيب الناس مما تكتبون رعب وقد كفاهم ما كانوا فيه من رعب وأخشى أن يحس العالم المتحضر حسيس جهنم التي تعودون بذكرياتها المشؤومة فيهرب القادم إلينا وينصرف المقبل علينا وينفض عنا ما اجتمع من حب وإكبار وإجلال، فلا تبدو في جمعه قلم عناء سنين ودماء شهداء أتوا لنا بالنصر بعد الهزيمة وبالسلام بعد الحروب.

خففوا عن شعوبكم لعل الله يخفف عنكم يوم القيامة أم أنتم بالقيامة لا توقنون.

قمة جديدة لنجيب محفوظ

يتسنم استاذنا نجيب محفوظ قمة جديدة له بروايته الأخيرة ليالي ألف ليلة وكم كنت أرجو أن أعفي نفسي من الكتابة فليس النقد صناعتي ولكن ما دام النقاد لاهين عن الكتاب المنشئين فليكتب بعضهم عن بعض والأمر لله من قبل ومن بعد وليس عجيباً أن أرتد إلى أربعينات هذا القرن حين بدأت حياتي ناقداً ومعلقاً بمجلتي الرسالة والثقافة وكان استاذنا نجيب من أوائل الكتاب الذين نقدت كتبهم حتى لأنكر أن إهداءه الذي كتبه لي على روايته زقاق المدق قال فيه إلى الناقد فلان، ثم اهتممت أنا بغير النقد وتفرغ النقاد الجادون لنقد الأعمال الروائية وكان على رأسها أعمال نجيب حتى إذا فشا الهزل وحل الكسل محل العمل أصبحت كتبنا تصدر وكأنها نشرات سرية ولولا أن قارئنا ليس يبالي بالنقاد ما باع ناشرونا مما نكتب شيئاً ولكن تبقى في النفس حسرة لا على أنفسنا فقد تجاوزنا مرحلة انتظار النقاد ولكن على مصير النقد وهو جانب أساسي من جوانب الحياة الأدبية.

وماذا نقول لهؤلاء النقاد أنذكرهم بعميد أدبنا د. طه حسين الذي ظل ينقد كتبنا بمقالاته حتى أواخر أيام حياته لم يشغله عنا سن ولا مرض ولا شعور منه كان يمكن أن يكون طبيعياً أنه أدى رسالته أعظم وأوفى وأكمل ما تؤدي الرسالة. وفيم نذكرهم بهذا وهم يعلمونه حق العلم فهم في غير حاجة إلى تذكير كما أننا في غير حاجة إليهم ويمكننا دائماً أن نكون كتاباً منشئين وناقدين في وقت معاً وليكن نقدنا انطباعياً فإنّا لسنا أكاديميين.

يتسنم نجيب في روايته الجديدة قمة جديدة عليه وعلى الأدب الروائي الذي أعرفه في مصر وفي غير مصر فقد استطاع استخدامه للأثر الشعبي ألف ليلة وليلة أن يحيط بالعوالم أجمع من أرض وسماء وماء ومن أنس وجن مؤمن وغير مؤمن ناظر إلى نص القرآن الكريم في حديثه في سورة الجن عن جن مؤمن بالله يقول سبحانه وتعالى ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فأمنا به ولن نشرك بربنا أحداً وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططا﴾. سورة الجن الآيات من ١ إلى ٤.

كما استطاع نجيب أن يصور الحياة كل الحياة والموت والحياة بعد الموت في الجنة وفي الأرض جميعاً وأقف ذاهلاً جائراً كيف استطاعت المادة القصصية أن تتشكل في يده العبقرية بهذه الصورة العجيبة التي يخل لقارئها أنها ميسورة قريبة التناول بينما هي معقدة غاية التعقيد مركبة تركيباً متشابكاً لا يطيقه إلا جبار قادر.

ولست اطيق أن أعرض لكل الشخصيات التي ألم بها استاذنا نجيب محفوظ وإنما بحسبك أن تعلم أنه اختار أغلب شخصيات ألف ليلة وليلة ثم أعاد تشكيها معمقاً الشخصية والأحداث مضفياً عليها فلسفته وفكره مع حداثة العرض والأبهار في هذا العرض حتى لتحسب أن هذه الشخصيات لم تكتب إلا لتكون مادة روائية لعبقري الرواية المعاصرة نجيب محفوظ، ولأول مرة يشكل نجيب روايته بحيث يصبح الحديث المباشر فيها داخلاً في إطار العمل الروائي فإذا هو من صميم الفن الروائي لا يجرؤ ناقد أكاديمي أو غير أكاديمي أن يأخذ عليه عيب المباشرة، فالعظمة الفنية ليس في التزام القواعد الجامدة الراكدة الحجرية وإنما في تشكيل هذه القواعد وجعلها طبعة في العمل الفني حتى لتنسى معها القواعد وكل ما يقف بجانبه الجامدون من النقاد فقد خلقت هذه القواعد الفنية بالذات لتكون نبراساً للعمل الفني أن يبلغ أحسن ما ينبغي له أن يبلغه فهي ليست كقواعد النحو أو الهندسة أو الكيمياء وإنما هي قواعد فنية إذا أمسك بها العبقري في فنه شكل منها قواعد جديدة

فإذا ما يصنعه هو القاعدة، ومن يستطيع أن يضع القواعد الجديدة إن لم يكن نجيب محفوظ.

إقرأ معي

قال المعلم سحلول :

ــ لا يستطيع أن يدمر الانسان مثل نفسه

قال له الرجل بغموض :

ــ ولا يستطيع أن ينجيه مثل نفسه

فقال الفقي ساخراً :

ــ أفلست الواعظ من قديم

ثم إقرأ معي إيغالا في هذا المعنى

وذات ليلة وسحلول يخوض الظلام متمهلاً اعترضه قمقام وسنجام. وهما يمثلان الجن الصالح. فتبادلوا تحية مقدسة وقال قمقام :

ــ انظر إلى العبث يعصف بالمدينة

فقال سحلول :

ــ لقد عشت ملايين من السنين فما يدهشني شيءٌ فقال سنجام :

ــ ستقبض أرواحهم ذات يوم وهي تنزإثماً

ــ وقد تسبق التوبة حلول الأجل

ــ لماذا لا يسمح لنا بمساندة الضعفاء

فقال سحلول بوضوح :

ــ وهبهم الله ما هو خير منكم العقل والروح

وبعد فهيهات لي أن أنقل إليك ما أخذت به في هذه الرواية وإلا نقلتها جميعاً كيف استطاع أن يجعل المجنون هو العاقل الرشيد الوحيد في الرواية وكيف استطاع أن يصور الحياة بعد الحياة والعيش في ظلال الجنة وخروج العصاة من الجنة بكائين في الأرض، وكيف جمع آفاق الخيال إلى صلب الواقع وكيف أحاط أسرار الكون بفلسفة الايمان ذلك الايمان المرفرف في أمراء لانهائية من الحب والطهارة والشرف والبعد عن الدنيا والتعفف عن

الرذيلة لوجه التعفف في ذاته وكيف تصطرع المشاعر الانسانية بين المادية البحتة متمثلة في الجنس والمال والسلطة وبين الروحانية الرفيعة متمثلة في النقاء والحب والزهد في كل ما هو دنيوي.

وكيف وكيف ولا نهاية لكيف.

هذه الرواية هي أصلح رواية لتنقل إلى العالم الغربي في شتى أنحائه ليتعرف على فننا الأدبي في أسمى صوره محملاً بعبق الشرق وفلسفاته ونفحات النبوة فيه واقداس الملائكة وكيد الشيطان ومكر الله بالمفسدين.

وهي للقارئ العربي متعة يظفر بها إن قرأها ولم يفهم كل ما يتخفى وراء أحداثها وشخوصها من أعماق بعيدة الغور معطاء وإن فهم ظفر بالفن وعمق النظرة إلى الحياة والموت والنشور جميعاً.

وبعد فأنا لا اهنئ استاذنا نجيب بهذه الرواية فالتهنئة لا توجه إليه وإنما توجه إلى العالم العربي أجمع إن ظهرت فيه هذه الرواية وهو بهذه التهنئة جد خليق.

القلم لا بد أن يكتب

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ن. والقلم وما يسطرون ﴾ وهل بعد القسم بالقلم إكرام لمخلوق .. ويقول جل وعلا : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم ﴾ وبهذه الآيات الكريمة بدأ رفيع الدرجات ذو العرش حديثه إلى نبيه ﷺ الذي اختاره أن يحمل رسالته إلى الناس كافة.

فالقلم إذن هو الذي علم به الله الانسان ما لم يعلم فهو أشرف ما يحمله إنسان وهو أيضاً أكرم ما يحمله بشر.

إذ نكس الكاتب الشريف قلمه ليكتب رفع للحق وللكرامة اعلاماً شامخة، وأعلى للحرية منارات، وأقام حصوناً وقلاعاً.

وقد عرف الحكام على مدى الأزمان قوة هذه الأداة هينة الحجم عظيمة الخطر، فكبلها كل حاكم ظالم فإذا هي مع التكبيل تزدهر وتنتشر وتقوى وإذا هي في أباء وجبروت تحطم الكبول، وتتحدى القيود وتنفذ من قضبان السجون إلى رحابة الحياة تملؤها نوراً وتنادي فيها بحرية الانسان، وكرامة البشرية، وعزة الأدمي.

وابدأ التاريخ من أوله إذا شئت، أو ابدأه من آخره فإنك واجد القلم مع كل حكم منارة هداية. وصوت حق، يكرم من يكرمه، ويحقر من يحقره، ويرفع من يرفعه، ويذل من يذله.

وحين يقول الرئيس حسني مبارك في خطابه بالمؤتمر الاقتصادي « لا حجر على رأي » يكون قد أعلن على العالم المتحضر أجمع أن مصر تعرف قيمة الرأي وشرف القلم، وأن رئيسها لا يخفي شيئاً يخشى أن يعلنه القلم ولا يستر خبثا يتحسب أن ينشره الرأي.

وحين قبل الزعيم السادات أن يكون الرئيس الفخري لاتحاد الكتاب أعلن إدراكه لكرامة الكاتب وعظمة الكتاب وشأنهم.

وأنت تعرف الدولة الحرة من مقدار الحرية التي يتمتع بها القلم بين ربوعها، فإذا رأيت دولة تنفي أقلامها وتحطمها، وتعصف بكتابها وعلمائها وتنزل العسف على أصحاب الكلمة فيها فاعلم أن هذه الدولة تقيم دعائمها على الظلم، وترسي القواعد فيها على الجبروت، وأنها تغتال أكرم ما وهب الله لشعوبه. وأنها اتخذت من الألفاظ الشعبية أستاراً وسدولاً تخفي ظلمها متشدقة بما ترفعه من لافتات الكادحين والجماهير والأغلبية فهذه دولة تقتل الكادحين باسم الكادحين، وتقضي على الشعب باسم الشعب، وتحطم الانسان داخل الانسان باسم الانسانية.

ووظيفة القلم أن يكشف عن الزيف مهما يتنكر الزيف بثياب الحق، وقد قام بوظيفته طوال السنين ومر الزمان.

وكم أضحك عندما أرى قوماً يريدون أن ينتسبوا إلى أصحاب الأقلام وما هم منهم. فيتكلمون عن أصحاب الأقلام، ثم يزجون بأنفسهم بينهم فجأة وكأن حملهم للقلم أمر مقرر لا شك فيه ولا شبه ولا ريب.

والقلم مشهر واضح معلن، والقلم نار ونور، والأمر في شأنه لا يحتاج إلى أعمال نظر أو اختلاف رأي.

فحملة الأقلام ليسوا عمالاً في سراديب، ولا هم موظفون في اطواء جدران، واسقف وخفاء.

وإنما القلم يخاطب الناس والناس يعرفون صاحب القلم معرفتهم لأبائهم وأبنائهم ولا يخطئون ولا يتشككون في أمره هنيهة من زمن.

فإن حاول أحدهم أن يصيح بأعلى صوت له أنه صاحب قلم فلن يلتفت الناس أمره ولن يعبأوا بصياحه ولن يميلوا إليه باذن صاغية أو غير صاغية. فصياحه عبث ودعواه كذب، وجهده مهما يكن شأن جهده ضياع.

ومن أعجب ما رأيت لبعض هؤلاء المدعين أنهم يريدون الكتاب أن يتعدوا عن الأشخاص ليتناولوا الحياة.

خاب رأيكم، كم هو هازل مضحك، وهل الحياة إلا أشخاص، وهل التاريخ إلا حكامه وهل السياسة إلا أفراد، وهل يستقيم الظل والعود أعوج.

إن الذين حكموا البلاد لا يموتون بموت جسومهم لأن أعمالهم تبقى بعد حياتهم أجيالاً وأجيالاً، تشقى بها البلاد أو تسعد، ويهون بها شأن الناس أو يكرم، لأن أفعالهم ينصرف أثرها إلى كل شعوبهم.

وانظر في التاريخ الحديث تجد هتلر الذي ملأ الدنيا انتصارات ثم انتهى أمره بهزيمة نكراء قد تكون بلاده مقسمة إلى دولتين بعد أن كانت دولة واحدة وتجد آثار حكمه ما زالت جاثمة على شعبه وقد مر على هزيمته قرابة أربعين عاماً.

وانظر إلى موسوليني الذي أصلح كثيراً من شأن بلاده وتقدم بها تقدماً عظيماً ولكنه جرها إلى حروب لم تكن مهيأة لها ليحقق لاسمه مجداً شخصياً فإنك واجد آثار موسوليني ما زالت طاغية على أمور ايطاليا حتى يومنا هذا، بل اترك هذه الحقبة التي مضى عليها أكثر من ثلاثة عقود واوغل في الزمن قليلاً، فإنك واجد هناك نابليون الذي أوشك أن يحتلَّ اوروبا جميعاً رافعاً علم فرنسا ليخفي به أنه يسعى لمجد نفسه وحدها والذي أبى أن يضع ممثل الكنيسة التاج على رأسه واختطفه من يده ليضعه هو على رأس نفسه معلناً أن التاج هنا بيدي أنا لا بيد الله وأنك واجد هذا الجبار الذي أراد أن يستذل الأرض جميعاً والذي رفض العون من السماء قد حطم بلاده شر تحطيم وما زالت آثار حكمه مؤثرة في سياسة فرنسا حتى يومنا هذا.

وبعد فما أنا بمؤرخ وإنما شاهد على عصري وقارئ للعصور التي سبقتني

وما أنا بمستطيع ولا يستطيع غيري أن يقدم كل الشواهد التي تؤكد أن حياة حاكم واحد تظل مؤثرة على حياة شعب أجيالاً قد تمتد إلى قرون.

وبعد مرة اخرى، فليس كل من أمسك القلم حامل قلم، فقد يمسك القلم طفل يلهو به على الورق ولا يقول شيئاً، وكل من يدعي أنه حامل قلم سيطالعه سؤال بسيط، ماذا كتبت به وماذا قدمت للناس؟ وحينئذ سيلبس الأبكم ولا يجد جواباً ويبهت الذي كفر، ولا يكون صاحب قلم إلا من يكتب به.

لا يشبهه جيل

رحم الله العقاد الشامخ كانت له جوامع الكلم في شعره إلى جانب مكتبته العملاقة التي أفاضت على العالم العربي علماً أصيلاً وعمقاً وتحليلاً لم تعرف لهما العربية من قبله مثيلاً. أذكره اليوم باكياً عليه في ذاكره وأذكره اليوم وأنا أقرأ كتاباً جليلاً للاستاذ صبري أبو المجد عن أحد الشامخين من رجال ثورة ١٩١٩، هو الاستاذ أمين الرافعي وقد وثبت إلى ذهني وأنا أقرأ الكتاب أبيات العقاد الخالد وهو يرثي أحد أعلام ثورة ١٩١٩ فيقول :

سلو الأوطان ينبئكم	بما يعلمه النيل
يحيى ناصر المصر	ي والمصري مخنول
وأول رافع صوتاً	وسيف الحرب مسلول
له في برها جيش	كجيش النمل موصول
وفي البحر أساطيل	وفي الجو أبابيل
إذا لم ينعه الأحيا	ء، والدنيا أباطيل
نعاه في العزيز	يه مدفون ومجدول
وجيل في حمى التا	ريخ لا يشبهه جيل

ألا ما أصدق العقاد أي جيل ذاك الذي أنبت كل هذه الأشجار السامقة الوارفة إختر أي ميدان شئت وانظر تجد جيل أمين الرافعي هو علمها ومنارتها وجبالها الشماء وروحها ونبضها لقد أذكى فيهم الاحتلال روح التحدي

وصمموا أن يصيحوا في وجه المحتل بعلمهم لا بصوتهم : أخرج من بلادنا فما نحن بحاجة إلى حضارتك فنحن أعمق منك في أغوار التاريخ حضارة وما نحن بحاجة إلى عملك فنحن قادرون على أن نكون أعظم منك علماً وفناً وثقافة، والعجيب أنهم أثبتوا القول بالعمل وبلغوا ببلادهم وهي في ظل الاحتلال وفي فترة قصيرة ما تتقاصر أن تبلغه كثير من الدول الحرة وإن تطاولت بها السنون.

وقد كان أمين الرافعي واحداً من هذا الجيل المذهل والحقيقة أن سني لم تسمح لي أن أعرف الرجل ولكنني نشأت وأنا أسمع أبي يمتدحه بما لم يمدح به إنساناً آخر فقد كان رحمه الله يرى فيه مثلاً أعلى في الرجولة والوطنية وشرف الكلمة وعمق الرأي والزهد في الدنيا والوقوف إلى جانب الحق وإن كان الموت هناك له بكل مرصد.

وقد جاء كتاب الاستاذ صبري أبو المجد مفصلاً لما كان يجعله رأي أبي وقد كتبه الكاتب في لغة أخاذة وفي استطراد مشوق فتجد الأحداث فيه يأخذ بعضها برقاب بعض في غير عنت عليك وفي تعمق للأحداث حتى يبلغ من حقائقها أقصى ما تستطيع أن تعطي.

يغري بعض الناس صحفياً ممن كانوا يعملون بجريدة الأخبار أن يذهب إلى دار السفارة البريطانية ليحصل على أخبار السودان ويذهب مندوب الأخبار ويقول إنه قديم بطاقته ليدخل إلى السكرتير الشرقي بها فإذا هو يقدمه على كل الصحفيين الآخرين ويروح للسكرتير يطري الرافعي وينوه بشرف خصومته ثم يسأل الصحفي عما يريد فيخبره فيقول له إذن أنت تريد أخباراً.

ــ نعم

ــ ولكنك مراسل جريدة خصيمة عنيدة تتهم الانجليز بأنهم كلاب قذرة ونحن لا نعطي هذه الأخبار إلا للصحف الموالية لنا قبل لك وقد جئت إلى دارنا أن تبلغ الاستاذ الرافعي أن هذه العبارة التي كتبها ابراهيم عبد القادر المازني تستحق الاعتذار حتى لا تتعرض الأخبار للمحاكمة.

ويخرج صحفي الأخبار ويبلغ الرافعي رئيس التحرير بما كان من أمر

السكرتير الشرفي فإذا الرافعي يبدأ حملة جديدة أشد في ألفاظها وأقسى من السابقة ويقول فيها بمنطق لا يقبل الجدل « إن الانجليز يرون في الكلمات شيئاً يستحق المحاكمة ولا يرون في ضرب الأبرياء الأمنين السودانيين ما يستحق المؤاخذة ».

وفي عام ١٩١٤ يشعر الرافعي أن انجلترا ستعلن الحماية على مصر وأنها ستمنع الخديوي عباس حلمي الثاني من العودة إلى مصر وأنها تستعين بدلاً منه بالأمير حسين كامل وكان من الطبيعي أن يدرك أن قرار إعلان الحماية لا بد من نشره في الصحف عند صدوره بسبب وجود الأحكام العرفية والرقابة على الصحف وينتظر الرافعي إعلان الحماية وقد بيت أمراً فما إن صدر الاعلان في جريدة مصرية تحمل اسمه ويصف الدكتور عبد العزيز رفاعي هذا القرار في كتابه ثورة مصر سنة ١٩١٩ بقوله إن قرار أمين الرافعي بوقف إصدار جريدة الشعب هو أول احتجاج مصري على الحماية البريطانية.

وهكذا كان الرافعي بذلك هو أول صوت مصري احتج على إعلان الحماية البريطانية وكان من الطبيعي أن يكون من أوائل المعتقلين.

وفي أثناء ثورة ١٩١٩ يقول الاستاذ صادق عنبر عن دور أمين الرافعي في لجنة الوفد المركزية : بقي أمين يدير دفة الحركة الوطنية في لجنة الوفد المركزية التي كان روحها وقوامها فكان يحرر قراراتها ونداءاتها ويدير حركاتها لمصلحة القضية الوطنية بإخلاص ونزاهة وهو الذي كتب المقالات الشهيرة « الوطنية ديننا والاستقلال » حياتنا باسم أحد أعضاء الوفد سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ فأحدثت تأثيراً كبيراً في الرأي العام وهو أول من دعا إلى مقاطعة لجنة ملنر في أنحاء القطر المصري ووافقه الوفد على فكرته فكانت هذه الحركة موضع إعجاب العالم بما أظهرته الامة من الاتحاد وتماسك الصفوف وصدق النظر واستأنف جهاده في الصحافة بإصدار جريدة الأخبار فنالت من المكانة لدى الجمهور ما كان للشعب واللواء من قبل.

ويقول الاستاذ أحمد وفيق : ما كان أمين الرافعي في أثناء وجود الوفد في

الخارج إلا محور اللجنة المركزية ومديراً لدفتها وقائدها الأعلى إلى الأمام ودائماً إلى الأمام في سبيل التمسك بالحق الكامل لمصر.

وبعد فإني أهنئ الاستاذ صبري أبو المجد لاختياره هذه الشخصية الرائعة لكتابه العظيم ولو كان الفنانون السينمائيون مصريين حقاً لأرخوا لتاريخ مصر بهؤلاء الاعلام الافذاذ وليس بتاريخ المواخير ورائدات الفجور عفا الله عنهم وعنهن. ولست بمستطيع أن أختم مقالي هذا ولا أذكر أبيات أمير الشعراء في رثاء أمين الرافعي :

يا أميـــن الحقـــوق أديت حتـــى
لم تخـــن مصر في الحقـــوق فتيـــلا
ولـــو استطـــعت زدت مصر من
الحـــق علـــى نيلهـــا المبـــارك نيـــلا
تنشد النـــاس في القضيـــة لحنـــا
كالحـــواري رتـــل الانجيـــلا
ما تبالـــي مضيت وحـــدك تحمـــي
حوزة الحـــق أم مضيت قبيـــلا

ويقول فيها :

أخـــذ المـــوت من يد الحـــق سيفـــا
خالـــدي القـــرار غضا صقيـــلا
من سيـــوف الجهـــاد فولاذه الحـــق
فهـــل كان قينـــه جبريـــلا
لمستـــه يد السمـــاء فكـــان الـــ
برق والرعـــد خفقـــة وصليـــلا
وأبـــاء الرجـــال أمضى من السيـــف
علـــى كف فارس مسلـــولا

ألم يقل لك العقاد إنه جيل لا يشبهه جيل.

الكلمة أمانة

كنت قد كتبت مقالا أدعو فيه ألا يكتب أحد في غير ما يتقن وما كنت أحسب أن هذا أمر يختلف حوله رأيان أو يتجادل بشأنه إنسان. ولكن عجبت أن البديهيات لم تصبح بديهيات والمسلمات أصبحت موضع تشكيك ونقاش، فقد وصل إليَّ بضعة خطابات في البريد وعرفت أن شخصاً ما كتب بإحدى المجلات تؤازر رأيه المجلة نفسها، أما الخطابات فتعرض الرأي في أدب وموضوعية أما المجهول الذي وقع مقال المجلة سابقاً اسمه بلقب دكتور فقد هوى إلى حضيض من الرخص دعاني أن أسأل عن شنانه وخاصة أنه ذكر اسماً معيناً وأثبتت له المجلة في صدر مقاله مرتئياً هو والمجلة معاً أنني إلى هذا الاسم قصدت، وكأن هذا الاسم ذاته مصونة لا تمس وكأنني كنت أعجز أن أسميه إذا كنت إليه وحده قصدت، بينما أنا قصدته مع غيره وغيره كثيرون يتصدون لما يجهلون، ولكن الدكتور الشيوعي ومجلته أحسا أو تصورا أنه وحده المقصود، وللشيوعيين فيما بينهم صفير كصفير الحاوي للأفاعي يطلقونه فتتناوح أصواتهم من كل الخلايا والجحور ويروح كل منهم يرسل فحيحه الشائه يحاربون الحق بالباطل، ويلبسون الزيف بالخداع، ويقول قائلهم بغير ما يعتقد ويرمي راميهم الفضل بالسفه، والحجة بالبهتان، والرأي بالتنابذ، والفحش والمهاترة.

فأما التطاول فإني عنه أضرب الصفح ولا ألتفت أمره.

أما أن يكتب كاتب في غير ما يجيد فربما احتاج الأمر مني إلى مزيد من

إيضاح إن لم يكن من أجل الدكتور التائه فمن أجل الخطابات الطيبة التي وصلت إلي.

إن الكلمة أمانة ونحن حين نتصدى لموضوع على صفحات الجرائد أو المجلات نتحمل مسؤولية كل كلمة نقولها، فليس الأمر مع القلم هيناً ولا هو كلمات تلقى على عواهنها تصيب مرة وتخطئ اخرى، ولا هو حديث يجري في غرفة مغلقة الأبواب صماء الجدران، وإنما هو إعلان على الملا، هذا الملا يمتد ويتسع فيشمل البلد الذي تكتب فيه وغيره من بلدان العالم.

فأنت إذا اتهمت شخصاً على صفحات الجرائد أنه لص وقع في ذمتك أن تثبت هذا الذي تدعي أو أنت واقع تحت القصاص لا محالة.

والكلمة لا يقف مداها في الزمن عند الاونة التي تكتب فيها وإنما هي ترض عليها إلى كل الأزمان. فليس الأمر إذن لهواً ولا ازجاء فراغ.

والشخص مها يكن شأنه أقل خطورة من المجتمع ومقدراته واقتصاده فإذا أنت تناولت أمور الدولة الاقتصادية أصبح من الحتم عليك ألا تجدف ولا ترمي ما لظن ولا تخبط في ليل من الحدس والتخمين. وأصبح من الحتم عليك أن تكون عالماً متخصصاً في هذا الذي تدلي فيه برأيك لأنك في اقتصادك مرتبط باقتصاد العالم، وهذا الترابط يجعل الحديث في صحفك موضع استطلاع واستيعاب من أصحاب رؤوس الأموال في الخارج وأنا أخشى أن يقودهم الكلام غير المدروس إلى استنتاجات غير صحيحة عن اتجاهات الدولة ومساراتها الاقتصادية.

وقد كان الرئيس حسني مبارك في مكان المسؤولية حين ندب للبحث الاقتصادي أئمة الاقتصاد في مصر وترك لهم الحرية الكاملة في الوصول إلى الداء والدواء فإن كان لأحد من غير الأعضاء فلا بأس عليه أن يكتبه ويرسل به إلى هذه اللجنة ليكون موضع مناقشة، أما أن ينفرد غير المتخصص بإبداء الرأي المبتسر ومن غير علم عميق غاية العمق فإني أخشى منه في هذه الفترة الاقتصادية الحرجة في حياة مصر أن يكون ذا تأثير لا أتصور أن وطنياً مخلصاً يريده لوطنه، فأنا إذن لا اصادر الرأي وإنما أرجو فقط أن يكتب

المختصون في تخصصهم عامة وفي الاقتصاد بصفة خاصة ومصر تمر بهذه الفترة العصيبة التي تحتاج فيها إلى كل ذرة من ثقة. فأنا أخشى أن يظن الناس خارج مصر أن ما تنشره الصحف وهي قومية إنما يعبر عن رأي الدولة ولكن الشيوعيين يريدون أن يبدي كل من هب ودب رأيه في الاقتصاد وربما تسمع منهم انهم يريدون البروليتاريا أن تبدي رأيها في النظريات الاقتصادية الكبرى هذه البروليتاريا المظلومة المسفوحة الحقوق من حملة قماقم الشيوعية ورافعي ألويتها الحمراء من دم البشر، هذه البروليتاريا التي يصدق عليها قول الشاعر القديم :

وتؤخـــذ باسمـــه الدنيـــا جميعـــا
ومـــا من ذلك شيٌ في يديـــه

وبعد فقد ترى إن خففت الوطء عن الدكتور التائه ولم أشأ أن أتناوله بما هو جدير وأنا حريص أن أبدي لك السبب فهو يحمل في اسمه الثاني والثالث إسم شخص صاحب فضل عظيم علي أنا شخصياً وعلى الأدب العربي كافة ولولا مكانة هذا السامي الرفيع لكان لي مع الدكتور التائه شأن أي شأن ومن أجل مكانة هذا السامي الرفيع ارتفعت باسمه أن أذكره في هذه الحماة المستونة من هذاء الجهلاء، فإن كان الدكتور التائه ينتسب إلى هذا العلم فقد وقفت حيث أحب أن أقف وإن لم يكن ينتسب إلا بتشابه الاسمين فإن مجرد اسم هذا الرجل العظيم يكفي وحده أن أقف منه ومن ذكراه موقف الاجلال والاحترام.

غير الأمين هو الساذج

الانسان هو معجزة السماء الكبرى، فهو وحده الذي خصه الله تعالى بالعقل، وبمعنى العقل أن يتدبر الانسان أمره ولا يقدم على ما يسيئ إليه وأن يبحث عن خير الوسائل له أن يعيش عيشة راضية هانئة قريرة، وفي اعتقادي وما أظنني بعيداً عن الصواب أن شر ما يواجه الانسان هو الخوف، ذلك الاضطراب المفزع الذي بداخل النفس فإذا الانسان كله هواجس وقلق وحذر وريبة من اللحظة القادمة وذعر من الغد، فأوقاته جميعاً بحر عاصف الأمواج ورياح قاصفة للهناء، يحسب كل صيحة عليه، ويرى في كل همس فتكا وفي كل حركة من الحياة قتلا، ويعرف الله سبحانه وتعالى كارثة الخوف، ومن يعرفها خيراً منه وهو الذي خلق الانسان وبرأ نفسه وسواها فإذا هو يقول في مرحمة بالناس وإشفاق ﴿ ولنبلونكم بشيئ من الخوف ﴾ ولا يقول الرحمن الرحيم ولنبلونهم بالخوف لأن الخوف الكامل لا يستطيع الانسان أن يحتمله.

ومع شيئ من الخوف تصبح الحياة بغيضة كريهة ويصبح الموت رحمة وسعادة وهناء.

فإذا تسلط الخوف على الانسان من خارجه وبأسباب لا يد له فيها فلا لوم عليه ولا تثريب، وماذا يستطيع أن يفعل مع حاكم ظالم، أو مع مجرم بلا قلب أو مع كلب مسعور، أو حيوان مجنون، أو ماذا يستطيع أن يفعل إن كان في الجو وتعطلت الطائرة أو كان في البحر وثار به موجه أو كان في بيته وهبت

به الرياح الأخذة المعربدة كل هذا لا بد للانسان فيه وليس عليه في خوفه من هذا جميعه حرج ولا لوم.

ولكن العجيب حقاً في أمر الانسان أن يصنع هو نفسه دواعي الخوف لنفسه فكل من يرتكب جريمة يصنع الخوف لنفسه وقد استثنى من هؤلاء من يشتجر الخلاف بينه وبين آخر فتتشابك الأيدي فيقتل أحدهما الآخر، فالجريمة هنا ليست مدبرة والانسان في هذه الحالة يخرج عن طبيعة الانسان ليصبح وحشاً بلا عقل ومن تخلى عنه عقله وجب له العذر وربما ذهبنا إلى أبعد من هذا وطلبنا له الرحمة والعطف لأنه حين يرشد إلى إنسانيته قد تنزل به نفسه من العقاب ما لا يستطيع المجتمع والقانون أن ينزلا به.

إنما الدهشة والعجب من أولئك الذين يدبرون الجرائم ويرسمون لها الخطط كيف يغيب عن الفرد من هؤلاء أن هذا التخطيط الذي يرسمه كلما ازداد اتقانه كانت عواقبه أوخم وأشد فتكا به هو فما دام قد أحسن التدبير فأغلب الأمر أنه سينفذ الجريمة دون أن يكشفه أحد وهو يدبرها، ولكن هناك أمران يغباهما دائماً المجرم، أما الأمر فهو هل يستطيع أن يهرب من نفسه؟ وإن استطاع فما هي الفترة التي سيستطيع فيها أن يهرب منها، فالنفس تلازم صاحبها في ليل ونهار وهي معه إن خلا وانفضّ من حوله الناس وهي معه في الزحام والناس حوله، فهل ستظل هادئة به لا تثير مكامن القلق والخوف منه وهو منتبه يقظان ولا تقض مضجعه وترد عنه النوم إذا حاول أن يأنس إلى فراش نوم أو غفوة راحة، وإذا فعل فإلى متى، وإن ردها عن إثارته والاطاحة باطمئنانه ورضاه إلى الأبد فهل يأمن لها أن تظل نفسه غافلة عنه في كل ساعات النهار والليل أم هي لا شك ستمضه وتعصف به من حين إلى آخر، ولحظة قلق واحدة تبيد لذاذات العمر كله، وقد يقول قائل إن كثيراً من المجرمين تعودوا الاجرام حتى يختفي الضمير من ساحات حياتهم بل هو لا يهدأ بهم إلا إذا ارتكبوا الجرائم وفي هذا أشك شكاً كبيراً فحتى القتلة الذين تعودوا القتل، يجدون من حياة الهرب والخوف من الانتقام شر عقاب ينزل بهم.

وأي عذاب شر من أن يجد الانسان نفسه قطعة هائمة بعيدة عن المجتمع منعزلة عنه مرفوضة منه.

أما الأمر الثاني الذي يغباه المجرم فهو يظن بالمجتمع الغفلة ويحسب في وهم كبير أنه يستطيع أن يخادع المجتمع عن نفسه إلى غير مدى، وهو في هذا ساذج غاية السذاجة، فلو ألقينا نظرة على تاريخ الاجرام ومصائر المجرمين من اشتهر منهم ولمن لم يشتهر لوجدنا المفلتين من العقاب قلة نادرة هي استثناء من القاعدة ذلك الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ولا يزلزلها، فإذا هرب إلى خارج القطر فعقابه من غربته أشد هولا وأعظم وقعا، وأي عقاب أقسى من أن يعيش الانسان ويموت غريبا بلا وطن ولا أهل.

ولهذا فإن الأعمال الأدبية الفنية من رواية وقصة ومسرحية قد جرت أغلبها على أن تنزل بالمجرم عقابه وهي في هذا لا تبحث عن النهاية الخلقية فحسب وإنما هي أيضاً تسير مع واقعية الحياة.

وهكذا نجد أن المجرم حين يعتبر الأمين ساذجاً أو عبيطاً يصدر في ذلك عن جهل بالحياة وعن سذاجته هو وعبطه، فالأمين هو الذي عرف الدنيا ولا أقول الدين فحسب وهو الذي أدرك أن نهاية الجريمة عقاب في الحياة حتى وإن لم يكن مؤمناً بالآخرة وعقابها.

وعقوبة الحياة لا تتمثل فيما تقرره القوانين من عقوبات فحسب وإنما عقوبة المجتمع واحتقاره للمجرم أشد وطأة .. وأثقل وقعاً .. وإن كان المجتمع يتعفن في بعض فترات من الحياة نتيجة ظروف قاهرة فأقصى ما يصل إليه التعفن ألا يعلن احتقاره للمجرمين وقد يوسع لهم في الاحترام ما داموا لم يواجهوا المحكمة والحكم ولكن هل هذا هو الاحترام الحقيقي في عميق نفوس الناس وفي دخيلة أفئدتهم وضمائرهم.

إنه مهما يتعفن المجتمع فإن الشرف يظل علماً خفاقاً على القيم وليس أدل على ذلك من أنك تجد غير الشرفاء هم أكثر الناس حديثاً عن الشرف لأنهم بهذا يريدون أن يؤكدوا شيئاً هم واثقون أن الناس تعلم عنهم عكسه فهم يحاولون أن يصيبوا بالحديث ما لم يستطيعوا أن يصيبوه بالعمل ورحم الله

زهير بن أبي سلمى حين قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم؟

من بيت الله

لماذا تعود الكتاب أن يلقوا على قرائهم الامهم ولا يشركوهم أفراحهم وهناءتهم أو كتب على القارئ ألا يسمع من كاتبه إلا الشكوى، أو ليس من حقه أن يسعد إذ سعد الكاتب؟

أوليست السعادة هي الهدف الأعلى للانسانية، فإذا أنا بلغتها ولمست بكفي أسبابها وشعرت بها تزغرد في جوانحي، أليس من حقك على أن تنال مما نلت وتصيب مما أصبت.

أكتب إليك هذا وأنا بجوار أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ، وبحسبي وبحسبك أن أقول محمدا فتجتمع في الحروف الأربعة أنبل ما عرفته الانسانية من المعاني الشماء والخلق الأسمق من السموق والرفعة الأسمى من الرفعة لا تقف نواياتها وأعاليها إلا عند رب العرش سبحانه وتعالى وتقدست أسماؤه الحسنى.

وأنا قبل زيارتي لسيد المرسلين كنت في أقدس رحاب أطوف بمثابة الناس المطهرة أول بيت رفع للناس، بيت الله الحرام وحسبه نسباً وشرفاً.

ولعلك تسأل .. أو كنت أول من اعتمر أو كنت آخرهم، ولعلك تتساءل فهل حتم علينا أن يصب علينا كل كاتب يزور الحرمين فيضا من مشاعره، أما رأيي أنا فهو يا ليت .. يا ليت أن كل كاتب يعتمر ويزور يقدم خوالج نفسه إلى الناس فإذا اتفقت هذه الخوالج فهي الانسانية إذن تلتقي جميعها عند

البيت الحرام وعند سيد المرسلين، وإن اختلفت المشاعر فلا بأس ولا ضير فإنه الانسان لم يكن ولن يكون قالباً واحداً ولا جزءاً من آلة ولا نسخة مطابقة من نموذج جامد لا يتغير ولا يختلف. قال خالقه في سعادة الخالق بما بدا أنه خلقه في أحسن تكوين، وأنه صنعه في أكرم صورة ثم قال عنه في معرفة الخالق بأدق دقائق خوالج مخلوقه : ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ .. فهو مزاج بين العظمة والكفر وبين الكرم والجحود.

فما البأس إذن أن يقول كل كاتب ما خالج نفسه وهو يلمس أستار الكعبة المشرفة ويقرأ الفاتحة أمام سيد مخلوقات الله وأشرفهم نسباً وأرفعهم مقاماً.

أما أنا ففي نعيم مقيم أحس في جوانحي روائح الجنة وريحانها، أنا هناك بعيد .. بعيد عن دنيا أحباؤنا فيها نحمل من أجلهم الخوف والقلق والاشفاق والذعر، وأعداؤنا فيها نتحمل منهم الظلم والجهل ومخادعة الحق والاعتداء على كل ما هو ثابت ومؤكد ومتين، وبين هؤلاء وهؤلاء من لا نكرههم ولا يكرهون يلقون علينا بأعبائهم .. الكلمة النافذة الجارحة أقرب إلى ألسنتهم من كلمة شكر أو عرفان أو حمد أو إنصاف.

أنا هناك بعيد بعيد .. في دنيا أنسامها الحق وموسيقاها الرفعة وأجواؤها حرية النفس وانطلاقها .. هناك تتحرر النفس من النفس فلا أغراض ولا شهوات ولا مطامع، أنا هناك دنياي أمل ودعواي حمد وأنفاس الحياة عند انطلاق وروحانية وشفيف نفس وبصر حديد، إن الحرية عند الناس خرافة فهم إذا نالوها أطبقت عليهم نفوسهم بالمطالب والرغبات من مال إلى شهرة إلى منصب فإذا هم لنفوسهم عبيد وشر من العبيد.

أما الحرية الحقة فلا يعرفها الانسان إلا هنا في بيت الله الحرام وهنا في جوار رسول رفض أن يمسك الشمس بيمينه والقمر بشماله من أجل أن يبلغ الناس كافة أشرف رسالة عرفتها البشرية وآخر رسالات السماء إلى الأرض والهداية المطلقة والحق الأمين. هنا تنسى النفس نفسها وهنا نعرف نحن البشر من الهناء ما يتأبى علينا أن نعرفه في أي بقعة من بقاع الأرض.

لقد زرت من العالم جانبه المتحضر ونصف المتحضر ولكن سموقي إلى

عليا المراقي لم أعرفها إلا وأنا أمسك بأستار الكعبة ورجفتي من السعادة والهناء والنفس القريرة الآمنة لم أعرفها إلا وأنا في جوار سيد المرسلين وسيد العالمين. طفنا بالرياض وبجدة وبمكة وبالمدينة المنورة .. ما هذا الذي صنعته الدولة في بضع سنوات .. إنني ما غبت عن مهبط الوحي إلا بضع سنوات وهاأنذا أعود فلا أذكر الا قوله تعالى، ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ .. العمران في كل مكان .. القصور للجميع وليس لفئة دون فئة والطرقات العامة تنفسح كأنها أهلا يقولها كريم في طول البلاد وعرضها، والناس هنا في سعادة .. والمصريون هنا بين أخوة لهم يلقون رعاية لا يلقاها إلا من تصله بالقوم صلة رحم قديم .. هيهات أن يمس الزمان مقدسها.

من قال إن المملكة العربية السعودية ملك لأبنائها إنها لجميع المسلمين، من كل أنحاء الأرض أليس في أرضها الحرمان وفي ترابها يرقد نبينا وفي سمائها لاح أول قرآننا ثم تتابعت آياته عليه ﷺ .. إني هنا بين أهلي تجمعني بهم أشرف ما يجمع فرد إلى مجموع وإنسان إلى ناس.

العواد شاعر الأرض المقدسة

يقول الاستاذ محمد سعيد الباعشن في مقدمته للكتاب القيم الذي ألفه بالاشتراك مع الاستاذ عبد الحميد مشخصي، بعنوان « دراسات فكرية » : عن العواد في أبعاده وملامحه : وعندما أطلق الملك حسين من مكة المكرمة دعوته للوحدة العربية كانت الساحة الفكرية والأدبية في الحجاز خالية من أفكار ورجال يحمون تلك الدعوة ويدافعون عنها فلا الملك حسين قد أوجد مناخاً تعشعش فيه الحرية وتبرز ولا جيل الشباب استطاع أن يواكب تلك النهضة التي ظهرت كرغبة شخصية لتحقيق زعامة اسرية دون دراسات إيديولوجية فلم يكن هناك وعي اجتماعي أو حتى صحافة تعكس ظلالا لهذه الانتفاضة وتساعد على ترسيخها في النفوس .. كانت جريدة أم القرى التي يرأس تحريرها محيي الدين الخطيب ويكتب جميع افتتاحياتها الملك حسين بنفسه هي الصوت الوحيد في الساحة الفكرية.

ويقفز الاستاذ الكاتب بعد ذلك إلى الحديث عن الرعيل الأول للأدب الحجازي ويذكر الأسماء التي تصدرت هذا الرعيل ويضع من بينها إن لم يكن في مقدمتها الشاعر محمد حسن عواد؟ ونلمس الروح العربية في شعر العواد الذي يقدمه لنا الاستاذان مشخصي والباعشن فنجده يكلم الانجليز قائلاً :

عاهـــدت جونبـــول ولكنـــه
لم يرع عهـدي ما أمـر الخـــلاب

وكـــان جيرانـــي أولـــى بأن
اوليهـم العهـد وعـون الصعــاب
شورى أمــام النــاس ولكنهــا
أبعـد عن نهـج الهـدى والصواب
مجلسهــا مستعبــد زائـــف
أصنامـــه مركـــوزة لا تهـــاب
ليس لهـــا رأي ولا حرمـــة
تلحــظ أو حريـــة تستجـــاب

وتحس في هذه النغمة صوت الشاعر المصري ورنين كتاب ثورة ١٩١٩ والأجيال التي أعقبتهم فمشاعرنا ومشاعر السعودية كانت وما زالت وسوف تظل واحدة وخفقنا وخفقهم كان وما زال وسوف يظل واحداً فما بعجيب أن يكون شاعرهم شاعرنا كما أن شاعرنا دائماً هو شاعرهم اسمعه يقوله :

عرب الجزيـرة قد تكـون سعيـدة
هذي الحيـاة بوحـدة الأبعـاد
تتوحـد الأشتـات في مجموعهـا
ويعـزز المجمـوع بالأفـراد
فيقـوم من بردى إلـى صنعائهـا
أمـل يرن صداه في بغـداد
إنـا ليربطنـا الشعـور تشدُّه
لغـة تغلغـل في ثرا الأكبـاد
فدعـوا التفـرق والتدابـر جانبـا
حسب اللبـيب دسائس الأضداد
والـى التسامـح والتسانـد يا بنـي
قومـي ونحـو مكـارم الأجـداد

وحين نقرأ الفهرست في ديوان العواد نجدد تحية لطه حسين وتحية للعقاد ورؤى أبولون ورثاء شوقي، تحس أنك تقرأ لشاعر مصري ولا يخطئك هذا

الاحساس فهو مصري بقدر ما نحن منتسبون إلى أرضه المقدسة .. اسمعه يقول عن الحجاز :

من هنـــا شع للحقيقـــة فجـــر
من قديـــم ومـــن هنـــا يتجـــدد

أدب نابـــه يقدمـــه الشعب إلـــى
النـــــاس من بلاد محمـــــــد

من هنـــــا من بلادنـــــا هذه
القائـــم فيهـــا هذا الفخـــار المؤيـــد

برز العاهـــل الـــذي ملك الدنيـــا
بنـــــور لا بالسلاح المحـــــدد

سيـــد العالميـــن من رفـــع الفجـــر
أمـــام الظـــلام حتـــى تبـــدد

وأكاد أحس أن هذه الأبيات موقع عليها من كل شاعر مسلم من أقصى الأرض إلى أقصاها وهل بيننا وبين أحد رحم أكرم علينا من الاسلام دينا ومن العروبة قومية وقرابة.

ما أجمل هذا الحريق

علاقة الابن بأبيه علاقة عنيفة آسرة، فالأبن دمي وحياتي وما بعد مماتي يختلف الابن مع أبيه وما أسرع ما يتبين الابن أن أباه على حق ولكن ما شعوره حين يتبين له الصواب الذي كان عليه أبوه؟، أيحبه ويحمد له أنه نصح فصدق النصيحة ونظر فأحسن النظر وتوقع فأفلح توقعه، أم هو يحس أن أباه دائماً يتقدمه، ويرى أبعد مما يراه هو، ويعرف أكثر مما يعرف؟، هل يحب الابن أباه إذا أخلص النصح وصدق منه الحدس أم يحس بالغيظ منه أنه توقع فأصاب في حين توقع هو فأكدى وأخطأ ولم يصب من الرأي مفاصله، أيحب الابن أباه لقاء حب أبيه له، أم يضيق به بحبه هذا الذي يقيد حركته ويحد حريته ويحبس عربدته، وماذا يستطيع الأب اليوم أن يفعل؟، أما في علاقة جيلنا نحن بأبائه فقد كانت المشكلة محسومة أو إذا شئت الحق لم تكن هناك مشكلة، وإنما كان الأب يأمر ولا يتصور الابن أن يكون جواب الأمر إلا الطاعة والخضوع والمسارعة إلى الاستجابة، وإنما اليوم قد انهارت كل القيم الموروثة، ماذا يستطيع الأب أن يفعل؟.. هل يوافق ابنه في كل ما يذهب إليه ويتركه يخوض تجربته مقدراً أن الناس اليوم لم تعد تؤمن بتجارب الآخرين وإنما تؤمن الأغلبية العظمى منهم أن ما يقع للآخرين لا يمكن أن يقع لهم، وكل إنسان يحسب أنه جنس وحده غير البشر وأن ما يصدق على أحاد الناس وجماعاتهم لا يمكن أن يحدث لهم هم. إذن أفيترك الأب ابنه يخوض تجربته أم يقف في كبريات الامور وقفة حاسمة حازمة ليعلم الابن أن الأب

واحد من العقبات التي لا بد أن يتخطاها إلى مبتغاه ومطلبه، وقد يكون كبرى العقبات وأشدها مراساً وأصلبها عوداً وأعتاها مكراً؟.

إن حب الآباء العنيف لأبنائهم قد يؤدي بهم آخر الأمر إلى كراهيتهم في بعض الأحيان لأنهم يرون فيهم أسرهم ورعبهم وخوفهم وقلقهم وزوال اسمهم وزعزعة حياتهم، فهم خيول جامحة ثائرة تنطلق ولا تفكر تسير في الطريق قد يبدو أوله ممهداً في حين يعرف الآباء أن الهاوية نهايته يفرضون على الآباء رغباتهم حتى وإن كانت هدماً لرغبات أبويهم وقد يبلغ الآباء من العمر مكاناً يطمئنون عنده على قابل أيامهم ولكن يظل الأبناء هم رعب أيامهم، وتهديد أمنهم، ومصدر شقائهم الذي هو في نفس الوقت مصدر سعادتهم. من كثرة ما يخاف الآباء على الأبناء يخافون عليهم وهم يتعثرون في الطريق ويرعبون على مستقبلهم وهم في قمة نجاحهم فالأب يخشى على ابنه المتعثر لتعثره، ويخشى على ابنه الناجح ألا يدوم له النجاح وحين ترى أبا يروي عن أبنائه ويكثر من الرواية فلا تلمه ولا تضق به فليس إلى أملالك يقصد وإنما يستمد منك الطمأنينة ويتلمس في ابتسامتك الثقة في المستقبل فهؤلاء الأبناء مصدر شقاء أبائهم من كثرة ما يثيرون في نفوسهم من القلق ومن شدة ما يؤججون من الرعب. ومن عجب أن يجتمع في معين واحد الهناء والشقاء، والأمل واليأس، والطمأنينة والرعب وحين يفكر الآباء في كل هذا يكرهون أبناءهم أو يكادون من كثرة ما يحبونهم حياً مدمراً عاصفاً يلتهم كالحريق حياتنا ولكن ما أجمل هذا الحريق وما أحبه إلى الآباء.

ثار في نفسي هذا جميعه وأنا في طليطلة أقف على أعتاب قصر الكزار والكزار هو الاسم الذي تنطقه وما هو في الحقيقة إلا كلمة القصر ينطقها الأسبان الكثر بفتح الكاف وسكون الثاء وينطقها السياح الكزار وتختلف الألفاظ لتؤدي معنى واحداً هو القصر ..

في إحدى غرفات هذا القصر قصة أنقل مضمونها إليك ولا تعجب أن تثير في نفسي كل هذا الذي قدمته بها فإننا نستطيع أن نسيطر على عقولنا أو قد نسيطر على قلوبنا مع كثير من الجهد ولكن هيهات لنا أن نسيطر على خيالنا،

وبنا الآن إلى قصة القصر أنها تروي عن الجنرال سكردوه في الحرب الأهلية الاسبانية وقد كان جنرالا بالجيش ومتحصنا مع قواته في القصر فإذا بالتليفون يدق عنده وإذا المتحدث زعيم القوات الشيوعية المعادية له وإذا هو يبلغه أنهم أسروا ابنه وهم يخيرونه بين أن يسلم القصر أو يقتلوا ابنه وفي هدوء يقول الجنرال :

ــ دعوني أكلم ابني.

ويمسك ابنه بالتليفون ويعرف الأب بدماثة قلبة لا باذنه صوت الابن ويقول له :

ــ ولدي أنا أضحي بك في سبيل وطني .. في سبيل إسبانيا.

ويقول الابن :

ــ هكذا اريدك أن تكون

ولا يصل إلى قلب الجنرال بعد ذلك أو أذنه إلا صوت طلق ناري نقل الابن إلى السماء وترك الأب لا في الأرض وإنما في السماء أيضاً بما قدم من تضحية.

ترى هل دارت بنفس الابن أو أبيه همسة أو خلجة من تلك الخلجات التي قدمت بها قصتهما الخالدة .. من يدري ولكن لنا نحن أن نروي بيت شوقي :

وللأوطـــــان في دم كل حر يد سلـــفت وديـــن مستحـــق

وأي وفاء لدين يؤديه وطني لوطنه أعظم من الابن؟ فالنفس وهي النفس أقل شأنا وأهون عند الأب ألف مرة من جرح يصيب ابنه أو حتى يخدشه فكيف إذا كان وفاء الدين للوطن هو حياة الابن جميعا .. دم الانسان وحياته وما بعد الحياة.

لست وحيداً

يخطئ من يظن أن الانسان إذا اختار الحق طريقاً والصدق منهجاً يلقى دائماً التأييد من الناس، فليست الحياة بهذا العدل الذي قد يظن وإلا ما سميت الدنيا دنيا، وما سادت فيها الفوضى ولا تعملق الأقزام ولا ساد الهزلاء ولا استأسد البغاث.

فصاحب الحق من الطريق كواكب الأسد قد اختار أصعب الوسائل مركباً وأبعدها عن الأمن فما هو مركب ذلول، وما هذا بعجيب فالطريق الذي اختاره وعر يعنف بالسائر فيه أشد العنف ويزلزل كيانه كل مزلزل حتى ليكاد يرميه عن الطريق إلى طرق اخرى كلها يسر ونعومة وهناء ورغد.

فالمؤيد للحق مؤيد لأقل فريق في الدنيا عدداً، فأغلب الناس على غير الحق منهم الباحث عن مال مهما تكن الوسيلة إليه خطفاً أو سرقة أو دعارة خلقية، ومنهم الباحث عن الجاه قد اتخذ سبيله إليه نفاقاً وخداعاً وكذباً، ودفاعاً عن الباطل، ومساندة للظالم بستار المظلوم، وتأييداً للسفاح برده للفضيلة، ومنهم الباحث عن سرداب إلى منصب أو كنز من ذهب مسروق وليس يعنيه أسباب وصوله وطرائقه فالطرائق كلها عفن، وإهدار لكرامة، وسفك للدماء وإراقة لماء الوجه، وبعد كل البعد عن الحياء.

وينظر السائر على طريق الحق إلى البشر الآخرين على هذه الطريق فيجدهم يصلون إلى غاياتهم بهزة من مومس يستجلبونها، أو قبضة مال من

خزائن لا يملكونها، أو سكباً من نفاق يبذله من لا حياء له لمن لا عقل له، ثم تنفتح المغاليق ويبلغ السائر على الموبقات إلى هدفه ومبتغاه.

وقد تعود الناس ــ أغلب الناس ــ ذلك من الناس ــ أغلب الناس، حتى أصبح جمهور البشر لا يصدقون أن أحداً يمكن أن يقول الحق لوجه الحق فهم دائماً يبحثون عن سبب خبيث للرأي الطيب فإن عزهم أن يجدوه وأعياهم البحث اختلقوا من الخبث ما حلا لهم ولفقوا من التهم ما يعن لأفكارهم.

وحين يتبينون أن صاحب الكلمة الحق كان يقولها لوجه الله والشرف والضمير يكون القائل قد مات أو يكون قد قارب الموت حتى لا يعنيه أنصفه الناس أم ظلموا وليس يبالي إن كانوا أدركوا أنه كان يصدقهم ولا يخادعهم أم لم يدركوا.

وهكذا ــ والحديث إلى الشباب ــ لا تنتظر أن تنال من طريق الحق إذا أنت اخترته تكريماً أو إعجاباً بموقفك الصلب في سبيل الحق فإذا كنت ترضي الناس ــ أغلب الناس ــ فاختر غير الحق طريقاً وغير الضمير شريعة وغير الشرف سبيلا، وابتعد ما استطعت البعد عن مثل هذه المعاني السامية واختر عكسها تماما رفيقاً ومنهجا.

ولكن لا تحسب أنك إذا سرت مع الشرف فلن تنال أحسن الجزاء، بل أنك ستنال ما لا يستطيع غيرك أن يحصل عليه بشرط أن تقدر هذا الذي تحصل عليه فإن الجوهرة المنقطعة النظير لا تصبح ذات قيمة إلا إذا وقعت في يد من يقدرها.

من المؤكد يا أخي أنك لن ترضي كل الناس بل ومن المؤكد أيضاً أن لن ترضي أغلب الناس، ولكنك سترضي أهم مخلوق في حياتك وهو أنت وضميرك، إذا كان ضميرك خالصاً وأرضيته فقد أرضيت ربك وأرضيت الشخص الوحيد الذي يلازمك لا يفارقك في صحو وفي نوم وفي زحمة الناس وفي انفراد، تراه في المرآة وتراه وأنت لا تراه فإن رضي عنك هذا

الذي هو أنت فقد بلغت ما لم يبلغه أحد مهما يكن له من جاه ومال وسلطان.

وحتى يرضى عنك هذا الأنت الذي هو ضميرك الخالص لله لا بد أن تدفع الثمن من حقد الحاقد الذي يريد أن يصبح مثلك ولا يستطيع ومن كيد المنافق الذي يبيع نفسه لكل من يدفع الثمن ومن غضب السفلة على الشرفاء وسخط الوضيع على الكرام وحسد الخطاة لمن يبتغون إلى الله الوسيلة.

وإذا وجدت قليلاً من الناس معك في الطريق يعينونك على الوحدة ويؤيدون موقفك ويشدون أزرك فالفرد من هؤلاء أمة بأسرها، فالجزاء كما ترى أعظم بكثير مما تتصور بشرط أن تقدره وتحسن تقديره وتذكر البيتين الرائعين :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنّا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

الانسان ودون كيشوت

في الرحلة من مدريد إلي الأندلس مررنا في أول المطاف بقرية صغيرة نزلنا فيها بمقهى لا أقول أنيقاً وإنما هو ذو طابع خاص، وفي صدر فنائه تمثال لدون كيشوت بل الروائي الرائد سرفانتس وعلى لافتة بالمقهى تبين لنا أن هذه البلدة كان يعيش بها سرفانتس وأن أهلها يخلدونه بإطلاق اسم بطله على هذا المقهى الذي يقال فيما يقال إن سرفانتس كان يعيش فيه والعهدة في ذلك على الراوي.

وقالت الدليلة التي تقود الرحلة إن رواية دون كيشوت من أعظم الروايات العالمية ثم ذكرت ما قاله بعض النقاد عنها ولم يكن ما قالته جديداً علي فقد قيل إن رواية دون كيشوت يقرؤها الطفل فيضحك ويقرؤها الشاب فيبتسم ويقرؤها الشيخ فيبكي ولما كان الطريق طويلاً فقد لذ لي أن أفكر في هذا الذي قاله النقاد أو بعض النقاد فالنقاد أحياناً يطلقون أحكامهم مبهورين بصياغة أحكامهم ـــ دون أن يقدموا الحيثيات لهذه الأحكام ـــ ويتركون لنا بعد ذلك أن نفسر نحن ونبحث عن الحيثيات.

أما أن الطفل يضحك إذا قرأ دون كيشوت فهذا أمر طبيعي فمواقف دون كيشوت وخادمه تثير في ظاهرها الضحك وكل الضحك والطفل يأخذ من الامور ظواهرها ولا شأن له بما وراء هذه الظواهر من معان متخفية، وكم تمنينا حين امتد بنا العمر وشببنا عن طوق الطفولة إلى ريق الشباب وحين

دلفنا من نضرة الشباب إلى الكهولة لو ارتد بنا العمر إلى هذه الأيام النضرة الساذجة من حياتنا أيام كنا نقرأ الأعمال فإذا قراءتنا متعة خالصة.

فلا نحن نبحث عن الهدف ولا عن المضمون ولا نحن نستقصي ما أراد الكاتب وما لم يرد وإنما هو انطباع عام ينسرب إلى دخيلة نفوسنا لا ندري مأتاه ولا مصادره، ولست أنسى أيام كنت أقرأ للمازني وأنا في حجرة منفردة فإذا أنا أقهقه ضاحكاً حتى ليصيب الذعر أهل بيتي ويحسبون أنني أرى من النافذة ما لا يرون ويسارعون إلى الحجرة يفتحونها فإذا أنا قصيٌّ عن الشباك بعيداً لا صلة بيني وبين الحياة إلا هذا الكتاب فيتولاهم العجب والدهشة وينصرفون عني يمصمصون شفاههم من عبطي وأظل مع كتابي نافذتي الكبرى إلى عوالم من المتعة فقدناها منذ أصبحت القراءة والكتابة حرفة لا هواية ومنذ أصبحنا نبحث عن المضمون والهدف والشكل والفورم.

فليس عجيباً إذن أن يضحك الطفل وهو يقرأ دون كيشوت فهو يتلقى العمل بمرآة صافية جديدة من نوع خالص تختزن كل ما تراه فإذا غاب عنها أصل الصورة بقيت منها على صفحة المرآة ظلال وانطباعات ليس يمحوها الزمان.

أما ابتسام الشباب حين يقرأ دون كيشوت فليس غريباً أيضاً، فالشباب هو زمن الحكمة الزائفة حين يظن الفتى أو الفتاة وهو في هذا السن الرائعة أنه أحكم الحكماء وأنه أعقل الناس وأغزرهم علماً وأكثرهم تجربة وأن ما يعرفه هو لا يعرفه أحد وأن التجارب التي مرت به هيهات لغيره أن يتعرض لها، فما له إذن لا يبتسم ابتسامة سخرية من دون كيشوت هذا الذي يحارب طواحين الهواء والذي يعرض نفسه لمواقف لا تستدعي إلا الهزء والاستخفاف بصاحبها وإنزاله إلى درك من البشرية بعيد كل البعد عن الاقدام ومع ذلك يصر هو دون كيشوت على أنه بطل الأبطال وأنه رجل فذ لم تلد الامهات له مثيلا، فمن الطبيعي إذن أن يبتسم الشاب ابتسامة الحكماء وابتسامة الهزء أيضاً، فهو واثق أنه لا يمكن أن يصنع ما يصنعه هذا الأبله دون كيشوت ولا يمكن أن يسمح للناس أن يسخروا منه سخريتهم من ذلك البطل الحالم الذي

يحارب الجماد ويعترك في غير معترك ويجيش من الوهم جيوشاً ليحارب بها من لا وجود له، للشباب إذن أن يبتسم.

أما الشيخ فهو أجدر الثلاثة بما يفعل، فإنه يقال إن الشيخ إذا قرأ دون كيشوت يبكي، وحق له البكاء، فإن الشيخ حين يصير شيخاً ويصل إلى سن النضج وينظر إلى ما مر من أيامه وإلى طول حياته ما يلبث أن يتبين عبث الحياة جميعاً ويصبح ولا أمل له إلا الحياة الاخرى تتعلق بها آماله وتهفو إليها روحه وعندما تنعقد المقارنة بين دنيا الخلود عند ملك لا يمنع الظل لائذا والصفح ثوابا ولا العفو راجيا وبين دنيا يسود فيها البطش، والجبروت والانتقام والخسة. وحين تنعقد المقارنة بين خشية الله وخشية الناس، وبين الورع والنفاق وبين العليا والدنيا وبين الخالدة والفانية تهمي دموع الشيخ فإنه سرعان ما يتبين له أن حياته كلها كانت مثل حياة دون كيشوت وأنه حارب ما حارب ولم يخرج من الدنيا إلا بحطام وأوهام وآلام وسقم، وتذكر رواية العجوز والبحر لهمنجواي فنجدها إعادة بارعة عملاقة لبدايات الرواية العالمية المتمثلة في دون كيشوت لسرفانتس.

والعجوز في خالدة همنجواي خرج من جهاده كله بنظام ودون كيشوت عند سرفانتس لم يخرج بشيء، والرجل العجوز حين يقرأ هذه أو تلك لا بد له أن يبكي فإنه سرعان ما يتبين له أنه ظل طوال حياته يحارب طواحين الهواء وأنه عاد من الحرب بهيكله هذا الفاني وأنه مسافر إلى الناحية الاخرى وليس له من زاد إلا وجه ربه وهو سبحانه العدل المطلق وويل للانسان من العدل المطلق وما أضيع الانسان إن لم يدركه سبحانه برحمته إلى جانب عمله وبغفرانه يكسو به محكم أحكامه.

لقد حاربت طواحين الرجال

طبيعة عملنا تجعلنا نستقبل الكثير من الخطابات منها الذي يرضى عنا ويرسل إلى نفوسنا نسمة رطبة في هجير الحياة، أو اخرى دافئة في جليد المشاعر من حولنا.

ومنها ما لا يرضى عما نكتب ولا يقبله، وكلا النوعين كريم عندنا يلقى القبول والاجلال ..

وأنا رجل صلتي بالكتابة تمتد قرابة أربعين عاماً إلا قليلا ولكن خطابا لم ينفذ إلى مكامن السعادة والأسى، والفرح والأسف من نفسي كما نفذ هذا الخطاب الذي أعرض له اليوم من ذلك الشاب الذي شاء أن يوغل في إكرامي بتوقيعه : ابنكم رائد شرطة جمال عيسى.

والخطاب تعليق على مقال لي كنت نشرته بالأهرام منذ بضعة أسابيع قليلة بعنوان « الانسان ودون كيشوت ». ودعني كلمتان أطو عنك ما صدر به مقاله من إبداء رأيه فيما أكتب فتلك صلة حميمة بين كاتب وقارئ شاء القارئ أن يرفع من شأن الكاتب فيجعل منه أبا فهي إذن صلة ليس من شأنها أن تعلن للناس، فاغفر لي إذن أن أطويها عنك ولأذهب معك إلى المأخذ الذي أخذه على ففي نشر مأخذ الأبناء على أبائهم إكراماً للأباء والأبناء معاً، يقول إبني الرائد الذي لم أشرف برؤيته تعليقاً على مقال دون كيشوت ..

... هل تعني في مقالك أن الانسان ـــ حتى المصلحين والفكرين ـــ مثل دون كيشوت.

هل تريد أن تقول إن الكل باطل وقبض ريح؟ حتى إن كنت تؤمن بهذا أو وصلت إلى هذه النتيجة فما ينبغي لك أن تقولها ودعنا ودع كل من أوذي في سبيل الحق يأخذ حقه من الشعور بالتفوق والفخر على من ظلموه.

سيدي لن يفرح بقولك سوى السلبي واللامبالي .. لقد ظلمت وحوربت واتهمت لأنني جاهدت من أجل خير لا يصيبني بل يصيب زمرة فقيرة من جنود مطافئ ميناء سفاجا بالبحر الأحمر، ولم يصدق أحد أن جهادي هذا كان من أجلهم فقط فلما تأكدوا كالوا لي الاتهامات والظلم ولكنني حين قرأت مقالاتك السابقة على مقالك هذا «دون كيشوت» عادني شعور بالاطمئنان وأحسست أنني أكبر ممن ظلموني وها أنت بمقالك الأخير تخنق هذا الاطمئنان، شتان يا سيدي بين من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وبين المهرج السلبي، سيدي إن كنت لم تستطع أن تغير العالم للأفضل بفضل المبادئ والأفكار السامية التي تجملها بين جنباتك، فليس معنى ذلك أن هذه المبادئ والأفكار غير ذات قيمة، وتذكر أن المحيط يتكون من قطرات الماء الصغيرة وأن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة وبدونها لا تكون هناك رحلة على الاطلاق، سيدي لقد زرعت في املا تبرعم فلا تقتله في مهده، وقل إن ليس كل إنسان هو دون كيشوت، قل إن البعض مثله وإن ذوي العقول يختلفون عنه، قل إنه ليس كل جهاد في سبيل الحق هو قتال لطواحين الهواء، قل إن من لم يقاتل في سبيل الحق فلا أمل له في رحمة الله، قل يا سيدي وقل للناس أن يقولوا مثلك ولئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حصر النعم.

وأكتفي بهذا الذي قدمت من خطاب ابني جمال عيسى وابادر فاعتذر إليه، فنحن يا بني بشر من البشر تضيق بنا النفس أحياناً ويحيط بنا اليأس وإن كنا لا نقنط من رحمة الله فإنّا نقنط من رحمة البشر ومن النفس الضائقة والآمال اليائسة والقنوط من البشرية يجري القلم بما أخذته علي وبما آخذه على نفسي

معك وكفى بي حزنا أنني جعلت رجلا مثلك حارب طواحين الرجال من الذين يحطمون المثل ويرفضون الشرف ويخنقون الكرامة ويسفحون دماء القيم ترتجف في نفس المعايير ويهب إلى قلمه يكتب هذا الذي كتبته لي خاشياً أن أكون أعني من الناس كل الناس وأتقصد الحياة كلها فارسيها بالعبث كل العبث واللهو غاية اللهو فإذا رجفتك يا بني تنتقل إلى قلبي مضاعفة ألف ضعف وتزيد من هول الأمانة التي أضم عليها أناملي .. ويل للكتاب من أمانة القلم وويل لهم أي ويل إذا هم نسوا لحظة أنهم بكلمة قد يقتلون معنى كريما وقتل المعنى الكريم قتل لملايين من البشر وأنهم بكلمة قد يحيون جانباً من الحياة شريفاً وإحياء جانب شريف من الحياة لملايين من البشر آخرين.

وتصيبني القشعريرة حين أذكر قوله تعالى ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ سورة المائدة « ٣٣ » وقد يستطيع الانسان أن يقتل إنساناً بالسلاح أو بالوحشية ولكن الانسان لا يحيي إنساناً إحياء مادياً قط فكيف إذن يكون الاحياء إلا بالكلمة ..

ويل كل ويل إذن لمن كتب الله عليه أن يكون الحرف صناعته، فقد تعلق بسن قلمه حياة قوم لا إنسان واحد وأي ويل من هذا أشد.

فإن كنت يا بني أخطأت فيما كتبت فمن حق البشر مثلي أن يخطئ وما دمت أنت قد حاربت الفساد فقد صرت من الملائكة ومن واجب الملائكة أن تغفر، فعد يا بني إلى طمأنينة من نفسك وإلى رضا عن شمائلك واغفر لمن شرفته ببنوتك أن يكون قد زلزل منك أمنا أو هز من رضائك مستقراً فهو فيما فعل على غير حق وأنت فيما رضيت به نفسك على حق كل الحق.

الانسان وثور الحلبة

رأيت في مدريد مصارعة الثيران ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي أراها فيها فقد شهدتها قبل ذلك مرة في الاسكندرية عندنا في مصر ولكن لا مجال للمقارنة بين المرتين فقد شهدتها في المرة الاولى على أرض صغيرة في النادي الاوليمبي ليست معدة بطبيعتها لهذا النوع من الرياضة أما في مدريد فأنا أراها في مكانها الأصلي وموطنها الحقيقي .. والمقارنة ظالمة على أية حال ولا داعي لها.

ولست بصدد وصف مصارعة الثيران فلا أنا جغرافي ولا رحالة وإنما أنا رجل كتب عليه أن يكون مرآة لجميع الناس تنعكس الصورة على نفسه ويعكسها بعد ذلك للآخرين وقد اكتسبت من خزائن خوالجي ما اكتسبت ومن نبض تجاربي وأرائي ما حلا لها أو حلا لي أن تصحبه وهي تقدم نفسها للقراء.

فلست إذن بذاك الانسان الذي يقص عليك في افاضة ما ألممت به من معلومات ضئيلة اهتبلتها في رؤية عابرة ولمرة واحدة وإنما لست أدري لماذا يلح علي أن أستعرض ما قيل حول هذه الرياضة وما شعرت به أنا نحوها، قال الناس فميا قالوا انها منيزي ومباراة لا كفاءة فيها بين الفريقين. وأين ثور بقرنين من إنسان يحمل السهام والسيوف والعقل والحيلة، وقال آخرون ولكن الثور ثائر والثائر لا عقل له ولا رزانة إن كان إنساناً فكيف به إن كان حيوانا

لا يعي ما يفعل ولا يعف عن مقتله ولا يتند عن شراسة، وقيل فيما قيل إنها رغبة الانسان في التظاهر وعرض الذات والنرجسية بلغت به إمداء ليس لها نهاية ورمت به إلى غير حدود، وقيل أيضاً بل حب الكسب وقيل بل حب الشهرة وقيل بل هذا جميعاً، ولكن الثمن فادح وهل أفدح من الحياة ثمناً، ثم قال آخرون وما الحياة، إنها فترة إلى انقضاء وملاوة من عمر لها بداية ولا بد لها من نهاية ثم هي في لوح مسطور مرصودة في موعد لها لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص.

فكل إنسان إلى موت وكل موت مقدر في يومه بل في ساعته بل في لحظته لا يتأخر عنها ولا يتقدم، فماذا يمكن أن يخسر منازل الثور إذا لم يكسب، قيل قد يخسر رجله فيظل قعيداً ما بقي له من حياة ولكن هذا أيضاً مقدور وإن كان الله في علياء سمائه قد كتب عليه أن يكون قعيداً فهو قعيد، ولهذا ليس بغريب أن يكون مصارعو الثيران من أكثر الناس إيماناً بالله ..

وإنما الذي أعجب له هو هذا الثور، يرى زميله قد نزل قبله إلى الحلبة وعذب كل معذب ولقي من الجراح والجهد ما لا يطيقه مخلوق ويطعن بالحراب ثم بالسهام ثم يقتل بالسيف ومع ذلك لا يخاف ولا يرعوي ولا يتردد، وليس انعدام العقل سبباً كافياً فكثير من غير ذوي العقل يأخذون العبرة مما حدث لغيرهم ولكن يبدو أن في الثيران رعونة ليست في الوحوش الاخرى، فتراه في أول نزوله إلى حلقة المصارعة يندفع في غير تحسب ويروح يمرح في عرض الحلبة وطولها واثقاً أن ما وقع للثيران الآخرين لا يمكن أن يقع له وانه هو نسيج وحده وأن الذي خلقه لم يخلق له مثلا، ترى الوثوق بنفسه بل الغرور إن شئت متمثلاً في كل حركة من حركاته وفي كل رواحه وغدوه فهو يجري ويجري فإذا وجد ذلك الفارس على الحصان راح يناطحه ويناطح الحصان في وقت معاً وقد لا يقوى الحصان على قرنيه الصلبين فيزداد غروراً ومراحاً ثم تبدأ السهام تنهال عليه فيكابر ويناطح ويحاوره المصارع بذلك الرداء الأحمر الشهير ويروح الفتى يزهى بنفسه إذا أحسن اللفتة أو الدورة ويعلو اسم الجلالة باللفظ العربي المحرف من

الجماهير أوليُّ. محرفة عن ألفظ الله سبحانه وتعالى ويملأ الزهو المصارع وتمر لحظات ليست قليلة تجد الزهو والغرور مسيطرين على الحلبة جميعاً، على المصارع وعلى الثور معاً.

كلاهما يظن أنه خرق الأرض وبلغ الجمال طولاً وتمر الدقائق وتنتهي المصارعة كما تنتهي أغلب الأمر بموت الثور وانتصار المصارع انتصاراً قد يكون متواضعاً هزيلاً وقد يكون رائعاً جليلاً، لا يهم.

وأنا الذي افكر فيه أليس الثور ــ لا المصارع ــ يشبه الانسان في هذه الدنيا يواجهها أول ما يواجهها في شبابه وهو يقول في نفسه ليس في هذه الدنيا من هو أعظم مني ذكاء ونشاطاً وخفة وقوة وعظمة، ويمرح في أرجائها أعراضاً وأطوالاً وحين يصيبه سهمها الأول يقذف به بعيداً ويكاد لا يحس ألم الجرح ويظل على غروره ونزقه ومراحه وعنفوانه، وتتوالى السهام فينماع منه الغرور ويجنح إلى بعض تواضع ولكن السن تكون قد علت به وهدت من جبروته ودكت من عنفوانه فيتراجع ويصبح كل أمله أن يلقي السهام ولا يسددها وأن يدرأ عن نفسه الحياة بجنة الخوف ودرع التقية فتلاحقه فيبدأ يهرب من الحياة وحينئذ ربما تنصرف عنه الحياة فيعود إلى حلبائها رافضاً أن تنساه مصراً أن يذكرها بنفسه ولو كان الثمن هو نفسه.

وإذا كنا نعجب من الثور الذي لا يأخذ العبرة مما حدث للثيران التي سبقته أليس من الطبيعي أن يكون عجبنا من الانسان أشد وهو صاحب العقل والنهي لماذا يظن كثير من الناس أنه صنف وحده من الناس وأن النسيج الذي صنع منه لم يصنع منه غيره وأن ما يقع للآخرين لا يمكن أن يقع له، فالقاتل رأى مئات القتلة وقد أعدموا والسارق رأى آلاف اللصوص وقد عوقبوا ولكن القاتل لا يزال يقتل والسارق لا يزال يسرق، ويظن القاتل أنه سينجو لأنه أذكى من القتلة الذين سبقوه ويحسب السارق أنه بمأمن لأنه أعظم صدقاً من اللصوص الذين وقع عليهم العقاب قبله، ما أشبه الانسان بثور الحلبة أو لعل الأخلق بنا أن نقول ما أشبه الثور في الحلبة ببعض الناس في الحياة وسبحان من خلق الثور والانسان جميعاً.

أنت أدرى بما تسأل عنه

جاءني هذا الخطاب الكريم من الاستاذ الكبير محمد عبد الغني حسن، وإني أضع الكتاب بنصه متغاضياً عما أكرمني به الشاعر الكبير فما أظن أن قلماً في العالم العربي يجرؤ أن يمتد إلى كلمة يكتبها من هو في مكانة محمد عبد الغني حسن .. وأعتذر للقارئ بادئاً أنني تركت ما به من مديح لي فهو مديح مفروض علي فرضاً بما مكانه رفيعة لعلم صاحبه الكاتب والشاعر الكبير وأرجو أن يعتبر القارئ هذا المديح تحية كريمة لي من استاذ كريم في شهر كريم ..

القاهرة

١١ من رمضان — ٢ يوليو ١٩٨٢

أخي الكريم الاستاذ القاص الكبير ثروت أباظة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فإني أشكر « رمضان » ونفحاته المباركة التي ساقتني إليك بعد انقضاض لجنتنا التي كنا نسعد فيها بلقائك من حين إلى حين ..

والحق أن مسلسلا تليفزيونياً من مسلسلات رمضان عن الثائر الجوال : (عبد الله النديم) هو الذي قادني إلى طلب الحديث إليك .. فهو قصة حياة « النديم » وأنت من رواد القصة العربية حين تكتب، أو حين تسلسل أو حين تكون فيلماً على الشاشة الكبيرة ..

ولعل فترة الجمام عقب الافطار ــ قبل الله صيامك وصيامنا ــ أتاحت لك الاستمتاع بهذا المسلسل الذي حشدت فيه طاقات فنية ذات شأن، ولكن لاحظت يا أخي أن النديم هنا قد عرض على أوسم خلقه.. وأحلى صورة .. عرضه « عزت العلايلي » في صباحة وجه، وملاحة شكل ــ أو أراد له مخرج المسلسل على هذه الصورة على الرغم مما نعرفه من كتب الأدب والتاريخ والتراجم أن النديم لم يكن وسيما ولا كان له حظ من حسن خلقة .. بل صرح شيخنا العظيم أحمد تيمور باشا رحمه الله في كتابه الثمين : (تراجم أعيان القرن الثالث عشر) يصف شكله قائلاً ــ وهو العلامة العف اللسان المهذب القول : (لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر، فرأيت رجلاً في ذكاء إياس، وفصاحة سحبان، وقبح الجاحظ ..) وهذه أقسى عبارة وقعت عليها فيها أعرف وأحفظ من أدب أحمد تيمور.

على أن هناك حادثة تاريخية اخرى تظاهر وصف تيمور لعبدالله النديم، فقد سمع عنه « شاهين باشا تنج » مفتش الوجه البحري، وسمع أبياتاً تغني من شعره يغنيها غلام مليح حسن الصوت تابع لأحد العلماء بالمسجد الأحمدي بطنطا، وتمنى الباشا لو رأى صاحب هذا الشعر، (فلما حضر إلى طنطا وواجهه استقبح صورته، إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه ومال إليه، فاتخذه نديماً لا يمل ورفيقاً حيث حل ..)

وليس من بأس أن يكون عبد الله النديم قبيحاً أو غير وسيم ولا حسن الملامح، فذلك خلق الله، وتلك إرادته حين يسوي خلقه، فلا يسوي بينهم في الجمال والمال، أو في الهدي والضلال .. ولكن البأس أن يتصرف المخرج في إخراج اللوحة عن الشخصية التي يعرضها، بما يجافي الواقع ويجانب الصواب، وإلا خرجت اللوحة مهزوزة مغايرة لأصلها.

وهنا موطن السؤال يا صديقي القصاص العظيم : هل كلمتان يجوز لك أن تتجاوز الحقيقة حين ترسم صورة قلمية لشخصية تعالجها في قصصك مع ما هو معروف ومقرر عن حقيقة الملامح الجسمية لهذا الشخص، وهل يجوز للمخرج التليفزيوني أو السينمائي ما لا نجيزه لك، ولا تجيزه أنت لفنك؟

ثم ما هو تقتضي العدول عن الواقع إلى صورة إلا تطابق الواقع؟ أهو التجميل؟ لا يا سيدي؟ لقد كانت عزبة « النديم » في ظرفه ولطفه وخفة روحه، مع الذي لم يتح له من جمال الخلقة وحسن الصورة.

لعل المخرج سامحه الله على هذا التجاوز ــ قد فاته هذا الملحظ من صورة النديم، فضاع منه بين زحم الملاحظة واللفتات واللقطات الاخرى التي لم تفت بصيرته.

أود أن أعرف رأيك أيها القصاص العظيم في هذا التجاوز غير المستقيم.

والله حافظك لأخيك

محمد عبد الغني

أما بعد فيا سيدي الاستاذ لقد شاء لك تواضعك الجم أن تجعل خطابك لي في شكل استفسار وقد شاء لك أسلوبك الرفيع أن تقول في استفسارك رأيك وقد قلته. ولم تخرج عن الجادة ولا أنت جانبت الصواب.

فالكاتب الدرامي حرفي استهام التاريخ إذا كان يروي واقعة مستوحاة من التاريخ وإن له حينذاك أن يغير من الأحداث ما شاء له التسلسل، لأن الكاتب الروائي حينئذ أو المسرحي أو التليفزيوني لا يكون متقصداً التاريخ لذاته وانما هو يستوحي التاريخ ليقول به شيئاً آخر غير الحدث التاريخي .. ولا يكون التاريخ هنا إلا مصدر وحي فقط ولا جناح حينئذ على المؤلف أن يغير فيه ما حلا له التغيير، وهذا ما صنعه أستاذنا عميد الأدب الدكتور طه حسين حين كتب على هامش السيرة لأنه بهذا الكتاب الخالد انما هدف إلى إدخال الملحمة في الأدب العربي ولم يقصد التاريخ، أما حين كتب الفتنة الكبرى والشيخان ومرأة الاسلام فقد كان التاريخ هو الهدف وهو الغاية.

ولهذا تغيا الدقة كل الدقة فيما روى في هذه الكتب من أحداث.

أما مسلسلة إمام العبد فهي مسلسلة تاريخية والكاتب فيها ملزم بالصدق التاريخي لأن هذا الصدق إن تخلى عنها لم يبق منها شيْ فما المسلسل كلها فيما شاهدته منها حتى اليوم واحسب أننا أشرفنا على نهايتها لم تقل شيئاً إلا

كيف كان أمام العبد يهرب من السلطة وليس غيرتهم هو تحري أسماء بعينها أغلبها من واقع الحياة، فكان حتى على المخرج أن يحاول جاهداً أن يقارب في الشبه بين المثل وبين الشخصية التاريخية وقد كان التنكر جديراً فإن يقوم بهذه المهمة خير قيام إلا أنني أشهد الحق وأشهدك يا استاذنا أن الاستاذ عزت العلايلي كان في إدائه قمة سامقة تفوق فيها على نفسه واستطاع أن يستر بمهارة على اللهجة الخطابية التي كتبت بها المسلسلة، وأشهد أن هذه اللهجة المرتفعة قد سقطت بالنص بصورة أوشك أن أقول مفجعة.

إلا أنني يا سيدي الاستاذ أرى أن إليك أن يتجه التليفزيون إلى الأعمال الجادة الرفيعة وإن كان هذا النص قد علا منه الصوت وهرب من الدراما إلى الخطب المنبرية فإني لا أشك أن المؤلف نفسه سيقدم في المرة القادمة عملاً أكثر اتقاناً من الناحية الفنية فقلمه ينبئ عن قدرة موفورة أن تكون قد تخفت منه في هذه المرة وراء الحماس فلا شك أنها واجدة في مرة قادمة فرصتها في التحرر من الخطابة لتلوذ إلى الفن.

وسلام الله عليك ودعائي الله العلي القدير أن يديم عليك نعمة الصحة والعافية.

كتاب من السعودية

أحس الآن أنني أجلس في غير مقعدي وأتناول قلماً وطالما راودني هذا الاحساس وأنا أتصدى لعرض كتاب أو رواية، فقد أحسب نفسي روائياً ولا أعتقد أن عرض الكتب أو التصدي للأعمال الفنية مما ينبغي لي أن أقوم به. فأنا لم أدرس الأدب دراسة أكاديمية تتيح لي هذا التصدي وإنما بدأ الأدب عندي هواية جامحة ثم صار مع الأيام حرفة شأني في ذلك شأن الأغلبية الكاثرة ممن يعتبرهم الناس كتاباً منشئين، ولكن ماذا أفعل؟ وقد أصبح النقاد الأكاديميون في معزل عن حياتنا الأدبية وشغلوا أنفسهم بما لا ينبغي لهم أن يشغلوا به أنفسهم. ومن يدري ربما ألحت عليهم الحياة بمطالبها فعزفوا عن النقد الذي لا يعود عليهم إلا بأقل القليل وراحوا يبحثون بدراساتهم الأدبية عن موارد تستطيع أن تعينهم على الحياة.

وقد أرى أننا هنا في مصر لا نفي الأدب العربي حقه من العناية وهذا أمر مؤسف فما أدبنا المصري إلا جزء من الأدب العربي يتفاعل معه وبه ويتأثر به ويؤثر فيه فإذا لم تكن على علم بما يكتب في شتى البلاد العربية فإننا نضع أنفسنا في غربة أدبية تعزلنا عن أصولنا وفروعنا في وقت معاً.

وإني أجد الكاتب المصري يهتم كل الاهتمام أن يترجم له كتاب الى لغة عربية ولا يعني أن يعرف أثر كتابه في العالم العربي الذي يكتب له والذي هو ميدانه الأصيل والذي به عاش ويعيش وسيعيش والذي بغيره ينعدم وجوده

ويصبح وكأنه لم يكن، فإن وجودنا نحن الكتاب العرب إنما يقوم على القراء العرب وبغيرهم نحن لم نوجد.

طافت بذهني هذه الأفكار وأنا أقلب صفحات كتاب من أمتع الكتب التي قرأتها في الفترة الأخيرة، وهو كتاب « إلى ابنتي شيرين » للشاعر السعودي الشهير حمزة شحاتة وفي الكتاب مقدمتان : أما الاولى فهي للاستاذ عزيز ضياء يروي فيها جانباً من حياة صاحب الرسائل في اسلوب مبين طيع.

وأما المقدمة الثانية فهي بعنوان كلمة من القلب بقلم شيرين حمزة شحاتة الابنة التي توجهت إليها الرسائل موضوع الكتاب. والحقيقة أنني أسفت أن صاحبة هذا القلم المتمكن القادر بعيدة عن حياتنا الأدبية ولست أدري كيف طاوعتها ملكتها الأدبية أن تحبس قلمها أن ينطلق، فاسلوبها من أجمل الأساليب التي قرأتها ولغتها عربية أصيلة عريقة وهي في نفس الوقت حديثة آخذة من التطور الأدبي والتحرر الفني بأجمل ما فيه.

وهي تعرض في هذه المقدمة ترددها بين نشر هذه الرسائل أو إبقائها على الكتمان وهي في هذا العرض تتيح لنا أن نعيش بنبض ابنة أديبة رقيقة المشاعر تحب أباها وتزهى بحبه لها وتتيح لنا أيضاً أن نطلع خوالج نفس تؤمن بالقيم العليا الرفيعة التي بغيرها تنهدم أجمل مقومات الحياة.

والكتاب في موضوعه جديد على الأدب العربي فنحن العرب نخجل أن نبين عن مشاعرنا نحو أبنائنا وأهل بيتنا، وكأنما هذه العلاقات أشياء ينبغي لها ألا يعرفها عنا الناس، بينما هي في اعتقادي أسمى ما نتميز به عن سائر أبناء البشرية، وأي شيءً في البشرية أكرم من الحب، وأي حب أشرف من حب الزوج لزوجته وسبحان من قال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾، وأي حب أشرف من حب الأب لابنته ولابنه، ذلك الحب الذي كلما فاض وازدهر دل على إنسانية الانسان وشفافيته.

والخطابات التي يجمعها الكتاب تبدأ بعد أن تزوجت الابنة وتركت بيت أبيها الأديب الكبير الخالد وأحس الأب أنه يريد أن يتحدث إلى ابنته كما

تعود أن يتحدث فلما لم يجدها لجأ إلى قلمه وتلك النعمة التي خص الله بها بعض عباده تعينهم عند الشدة وتبل شوقهم عند اللهفة وتكون معهم عند حزنهم وإشراقة أفراحهم عند خير وأمل غدهم وهموم يومهم وأمسهم.

يقول لابنته في إحدى هذه الرسائل :

« لقد شاطرتني في الماضي أيتها الحبيبة متاعبي وآلامي، بل كانت نفسك الكريمة تحمل عني أثقلها وأشدها وطأة. فمن حقك علي الآن أن أخلصك من الشعور بهذا ... يكفيني أن أشعر في داخل نفسي بأنك معي أينما كنت وعندما يتخلى عني الجميع. إنك دائماً أمامي وصوتك ينساب إلى اذني وقلبي رقيقاً حانياً وأنفاسك تتردد على وجهي وبين عيني فتلطف حرارة إحساسي بالضعف والمرارة والعذاب. عندما أتخلص من هذا الشعور ... وعندما أفيق من غمرة الذهول الذي يطوح بي في هذا الفراغ الرهيب الذي خلفه لي بعادك أستطيع أن أكتب لك كتابة أصفى لا تجدين فيها أثر الألم والدموع ».

أرأيت أكرم من هذه المشاعر، هي حنينه إليها وإليها هي يشكو. وهي دموعه وإلى سببها هي يبث ألمه.

حلوة هي الابوة وعذبة هي في نفس الوقت قاسية عاتية تعتصر قلوبنا على أبنائنا وبناتنا حباً وخوفاً فناء فيهم وإشفاقاً عليهم، حدبا ورهبة، نفرح بهم ونجزع لهم، نسعد بسعادتهم ونشقى من مجرد التفكير في غدهم أن يكونوا أقل سعادة مما نرجو لهم. على صفحات وجوهنا تلقينا أنفاسهم الاولى في الحياة ونعيش ما نعيش لا أمل لنا إلا أن يستقبلوا هم آخر أنفاسنا نحن في هذه الحياة، إنهم أمل الآباء والمهم فرحهم وبكاؤهم هم إشراقة الحياة للآباء والامهات أن يكون غروب حياة الأب والأم بين يدي أبنائهم. وطوبى لمن يتحقق لهم هذا الأمل.

شددت الشمس من مغربها

وهل من بأس علينا أن يكون العيد عندنا مجلبة لفرح ومبعثا لسعادة وداعياً لهناء، فأعياد العالم أجمع أفراح وسرور وحبور، وأعيادنا نحن نستقر فيها الحزن ونستثير الأشجان ونمزق الجراح حتى وإن كانت التأمت وكساها من الله الرؤوف لطفاً ومن مرحمته ندى يرطب هجيرها ويطفئ نيرانها.

إن أعيادنا أمر من الله سبحانه وتعالى أن يكون عباده سعداء وإن نظرت إلى العيدين الاسلاميين لوجدت عيد الفطر يعقب رمضان الذي أدى فيه المسلمون فريضة من أكرم الفرائض التي كتبها الله عليهم في أكرم شهر إسلامي أنزلت فيه معجزة الاسلام الخالدة الباقية إلى أبد الأبدين، وأما العيد الآخر فهو عيد الأضحى الذي راح إبراهيم فيه يطيع أمراً تلقاه من ربه في رؤيا نائم أن يذبح فلذة كبده الذي أصبح بهذه الواقعة نبياً هو الآخر أن يطلب من إبنه ﴿ يا أبت إفعل ما تؤمن ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ ويختار الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم ليكون يوم اجتماع المسلمين من فجاح الأرض وأقطارها وأي عيد أعظم من أن يجتمع أخوة تضمهم وشيجة الله ويؤلفهم دينه الأقوم ويلتام شتاتهم على لبيك اللهم لبيك.

فالعيدان إذن أفراح وبشائر وسعادة وهناء فما لنا نحن في مصر نحاول أن نجعل منهما حزناً وأسى ونقول لأنفسنا أو لمن يسألنا إنّا نحزن أن يأتي العيد ولا نجد من مات عنا بيننا، وما أرى حزنهم هذا إلا نكولا عن التصديق بأن

فقيدهم من الأبرار الذين هم عند ربهم فكهون في جنات ونعيم لدى مليك مقتدر في مقعد صدق على سرر متقابلين.

ولو أمنوا بهذا وما ينبغي لهم إلا أن يؤمنوا به لفرحوا بما صار إليه فقيدهم وبما استقر فيه هناك حيث لا قلق على الدنيا ولا خوف من الناس ولا جزع من الغد ولا هم لنقص في مال ولا كبر لزيادة نشب الدنيا وجاهها ومالها.

إذا كنت غير قادر على أن تفرح فأنا قمين أن أبعث الفرح إلى نفسك في عيدنا هذا فقد تعودنا نحن الذين جاوزنا الخمسين من عمرنا أن نتحسر على الخلق والقيم في شبابنا وكم تبادلنا الحديث عن الشباب في أيامهم هذه وقد انعدم من نفوسهم عز الرجال ونخوة الانسان واخوة الأدمي للبشرية وغابت عنهم تلك المشاعر الرقيقة الحبيبة التي نحسها في إغاثة ملهوف ونجدة الانسان لأنه إنسان.

وكانت شمس الأمل قد غربت في نفوسنا حتى وقع لي هذا الحدث البسيط الطريف في أمسي القريب والذي كان بطله مصطفى ولن أكمل اسمه حتى يظل كما أحب أن يكون مجرد شاب من شباب اليوم استطاع بقروش قليلة أن يشد الشمس الغاربة في نفسي ليجعلها مرة اخرى تشرق وتتألق في سماء الأمل ملقية على شباب اليوم ضياء باهراً، إن كان بين هذا الشباب من غيب شمس الأمل فإن منه أيضاً من أعادها إلى مشرقها .. وأي جيل سلم من السوء، إن كان في جيلنا خير فقد كان فيه وما زال شر وكذلك كان كل جيل قبلنا وكذلك سيكون كل جيل بعدنا، سنة الله في كونه ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

ركبنا أنا وزوجتي القطار من الاسكندرية قاصدين الى القاهرة وبعض القطارات في هذه الأيام مقسمة إلى دواوين فهي عربات نوم خصصتها المصلحة في أيام الصيف لتواجه الزحام، وفي كل ديوان ثلاثة أشخاص فكان رفيق سفرنا شاب ضابط في القوات المسلحة أحسب أن النجمة الثانية على كتفه لم تسطع إلا منذ قريب، صوت رفيق سفرنا فيه حياء وفي وجهه إشراق وكان المغرب قد وجب ونحن في انتظار القطار فكسرنا صيامنا أنا وزوجتي

بكسرات قليلة وركبنا وطلبنا من ساعي القطار زجاجتين من المياه الغازية نرد بهما عطش الصياء وأحضر الساعي طلبنا ولم ندفع له ثمنها على عادة الناس أن يدفعوا عندما يأتي الساعي ليسترد الزجاجات الفارغة، وطال غياب الساعي وأحببت أنا وزوجتي أن نرى ذلك النادي الذي أنبأنا عنه ميكرفون القطار عسانا نقطع الوقت الذي يطول دائماً عند السفر وذهبنا إلى النادي واستمتعنا بكراسيه المريحة ودفعنا ثمن جلستنا غالياً فالطلبات في ذلك النادي القطاري ــ نسبة إلى القطار لا أعلم إن كانت صحيحة أم لا ــ مرتفعة الأثمان باهظة.

وبعد وقت لا أدري طال أم قصر عدنا إلى الديوان ووجدنا رفيق سفرنا على حاله ولم أجد الزجاجات الفارغة فقلت لزوجتي :

ــ لقد جاء الساعي وأخذ الزجاجات ولم يأخذ الأجر فماذا سنفعل الآن؟

قالت :

ــ لا بد أن في الديوان جرساً فلندقه له

قلت :

ــ فلننتظر .. أظنه هذا

وهممت أن أدق الجرس فإذا بصوت لم نسمعه طوال الرحلة ينبعث من رفيق سفرنا :

ــ لا داعي

ولم أسمع أو خيل إلي أنني لم أسمع

ــ ماذا؟!

ــ لا داعي فقد دفعت الحساب

دهشت وشكرته وحاولت أن أرد ما دفع فإذا نظرة حاسمة وابتسامة رادعة تطالعانني منه وارد قروشي إلى جيبي وأعجب.

إنه لم يقل شيئاً حين رآنا ولم يقل شيئاً ونحن نتحاور بشأن دفع الحساب حتى إذا رأى أننا سنتخذ إجراء إيجابياً صات بهذه الكلمات في خجل وحياء وأدب ولست أدعي أن الشاب عرفني فقد سألته عن اسمه وعرفته ووجدت في الاسم مصداقاً لخلق الشاب وعرفته بنفسي فقال في حيائه وأدبه :

ـــ الكاتب

قلت :

ـــ نعم

فهو إذن لم يكن يعرفني حين أكرم غيبتي ورد عني عادية سوء الظن وأسعدني الفتى سعادة لا يدري مقدارها وحسبه أنه كما قلت شد من مغربها في نفسي شمس أمل وأعادها إلى الاشراق، أمتعه الله وأهله بهذا العيد الذي جعل منه لي عيدين وأسعد به أباه وأخوته الذين علمت أنه إنما كان يقوم بزيارتهم في الاسكندرية وما أجمل أن أجد أخا يسافر خصيصاً ليزور اخته ويشعرها أن لها في الحياة إلى جانب أبيها أطال الله عمره أخا وسنداً وظهيراً.

حتى لا يعوج القلم

يسأل الله الانسان سؤال استنكار عما غره بربه الكريم الذي خلقه فسواه فعدله على أحسن صورة؟ وطبيعي ألا يجد الانسان جواباً ولا يجد لغروره منطقاً يذود به سؤال بارئه سبحانه.

والحقيقة أن أمر الانسان عجيب مذهل يدعو إلى الحيرة والدهشة من أمره، يخلقه الله عاقلاً ويهب له التمييز بين الخير والشر والقويم والاعوج والسليم والفاسد والصحيح والناقص، فيأبى أن يختار إلا الشر الأعوج الفاسد الناقص، وقد يكون ذلك معقولاً إذا كان الانسان جاهلاً، أو إذا غفله ولكن أن يختار طريقه المدمر عن بينة وبصيرة ووعي كامل وإدراك فهذا هو الأمر المذهل وإذا قبلنا هذا من بعض الناس فلا أتصور أن نقبله من بعض الكتاب أو من يظنون أنفسهم أنهم كتاب.

فالكاتب لقومه بصيرة، وقبس من هدى، وضياء يجعل الطريق بينا، ويكشف عنه الظلمة والجهالة فكيف إذا كان هو نفسه لا يعرف قدر نفسه ولا يدرك طريقه ولا يستنير بعلمه، وكيف لمن يجهل أن يعلم الآخرين، وكيف لمن أظلم عقله أن يضيءَ الطريق لسائر الناس.

أرى الكاتب من هؤلاء يكتب في كل شيءٍ كتابة العالم المتعمق الخبير، وهذا وحده دليل على الجهل التام بكل شيءٍ، فكيف لانسان مهما يكن شأنه أن يكون عالماً في السياسة كأنه التاريخ، وفي الاقتصاد كأنه أكاديمية

اقتصادية وفي الشريعة الاسلامية وكأنه الأزهر، بتاريخه كله، وفي القانون وكأنه المحكمة الدستورية العليا ومحكمة النقض منذ إنشائها، وفي الأدب وكأنه هوميروس وشكسبير وملتن وفولتير وشوقي وطه حسين وأجيالهم ومن جاء قبلهم ومن جاء بعدهم وفي الفن وكأنه مجمع فنون وفي الموسيقى وكأنه أوتي مزامير داود.

إن هذا وحده من الكاتب دليل على أنه غبي وهل هناك أغبى في الحياة ممن يظن أنه إله وليس إنساناً وأنه خالق وليس مخلوق، ويوغل به الغباء وفي العماية فيناقش المختصين ويجادلهم وكأنه أعلم بالأمر منهم، وللعالم أمام الجاهل وجمة، وللجاهل أمام العالم غفلة، فهو يظن إذا سكت عنه العالم أنه إنما سكت عجزاً لا احتقاراً، وأنه أحجم فلم يجب، ولا يستطيع المتعالم أن يدرك أن العالم حين يسكت عنه فهو إنما يكرم علمه أن يخاطب به من لا يريد أن يفهم.

واذكر المثل الانجليزي الشهير : الصبي في كل صنعة لن يكون معلماً في أي صنعة ، وقولا لكاتب انجليزي كبير لا أذكر اسمه « لست صغيراً لدرجة أنني أعرف كل شيٌ ».

ولست أشك أن بعض الكتاب هذا قد قرأ هذين القولين فيما قرأ ولكن هناك فرقاً كبيراً بين أن تقرأ الشيُ وبين أن تعمل به.

وليس يكفي أن يتاح للكاتب مكان في الجريدة ليكون كاتباً إنما المهم أن يقول الكاتب شيئاً فيما اتيح له من مكان في الجريدة وإلا أصبح عنواناً لمقال لم يقل أو غلافاً لكتاب لم يكتب.

وهناك بعض الكتاب رمى بهم حظ لهم عاثر أن يصبحوا على كراسي لا يطيقون الجلوس فيها .. وقد كان أمرهم قبل أن يصلوا إلى كراسيهم مستوراً فجهلهم مكتوم غير مفضوح مستتر غير مشهور، وألقى بهم سوء طالعهم إلى الضياء فإذا ما كان مستوراً قد افتضح وما كان سراً قد اشتهر وسقطوا إلى الهاوية تتقاذفهم مهانة الجهالة ويعلو صوت خيبتهم على الملأ ويصبح الكرسي الذي ظنوا أنه جالب لهم المجد والسلطة هو مصدر احتقار الناس

واستصغارهم لشأنهم. ذلك لأن الكراسي دائماً تكبر وتصغر بالجالسين فيها ولأن الكراسي بسر الهي فيها تفضح الصغير فتجعله يزداد صغراً وتكبر بالكبير وتجعله يزداد تألقاً وازدهاراً وتعملقاً.

وشأن هؤلاء الصغار أن يحقدوا على الكبار لأن الكبار في أي مكان يشغلونه يظلون كباراً ولأنهم بطلعتهم يظهرون مقدار تفاهة الصغير وضآلة حجمه والناس تحب دائماً أن تقارن، قرأت فيما قرأت مقالاً لكاتب كبير لا يزيد عن خمسين كلمة ظهر في جريدة كبرى فإذا هو يلقف مقالات في نفس الجريدة مكونة من خمسين عموداً وكان الموضوع لسوء حظ الصغار واحداً، ولكن الكبير حين يكتب لا يستطيع إلا أن يكون كبيراً بموهبته، وبعلمه وبصدقه مع نفسه، وبما حق يتحراه، فلا يتعرض لغير ما يتقن، ولا يقول إلا ما يمليه ضميره، ولا يتسقط شعارات جوفاء أطلقها جهلاء أو أصحاب غرض ليجعل منها مادة مقالته، تلك مثل عارض ذكرته ولو أردت أن أمضي في هذه الذكريات لما وقف بي القلم ولا استقر وإذا من الذين يحبون أن يكون القلم مستقراً في يدهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً فلا يعوج بي ولا يلتوي اللههم بحق عزتك هيئ لنا هذا الرشد ..

عصامنا وملاذنا وأملنا

كثير من الشيوعيين يغضبون حين نقول عنهم « كفار ملحدون »، ويسألني سائلهم أن الكفر والايمان صلة بين العبد وربه فكيف يصل إنسان إلى ضمير إنسان آخر، وهذا القول مثل كثير من حججهم حق استعمل في موضع الباطل.

أما أن الكفر والايمان صلة بين العبد وربه فأمر لا ريب فيه، وأما أن العبد لا يستطيع أن يعرف صلة إنسان بربه فهذا أيضاً لا ريب فيه، ولكن بشرط واحد هو أن تكون الصلة غير معلنة، أما إذا صاح عبد أنه كافر بالله لا يؤمن به ولا برسله ولا باليوم الآخر فهنا لا تصبح الصلة بين العبد وربه وإنما تصبح بين العبد والمجتمع، وهو إنما يعلن على الملا كفره بالله وحينئذ تسقط الأستار عن تلك الصفة التي تكون بين الانسان وربه وتصبح جهيرة لا شهيرة لا تحتاج لأحد أن يتسلل إلى داخل النفوس ليعرفها.

وقد كان ماركس أذكى من أتباعه .. وقد كان يعلم أن نظريته لا تستقيم عند قوم يؤمنون بالله فأعلن كفره به وأعلن أن نظريته لا تقوم إلا مع هذا الكفر.

ولكن أتباعه بغباء شديد أرادوا أن يخادعوا الناس عن عقيدتهم وراح بعض منهم كثير يقول إنه شيوعي مؤمن بالله، وهو قول لا يصمد للمناقشة ولا يستقيم في الأذهان، إلا أن يكون قول إنسان ما إنه يؤمن بالله ولا يؤمن

بالآخرة قولاً مقبولاً .. فالذي يؤمن بالله لا بد أن يؤمن بما يقول الله ما دام الله يعدنا ويتوعدنا بالآخرة فالايمان بالآخرة هو في ذاته إيمان بالله.

فإذا نظرنا إلى أركان الاسلام وجدناها خمسة أولها الشهادة أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولا إسلام لمن يقول لا إله إلا الله ولا يؤمن أن محمدا رسول الله.

وما دمنا شهدنا أنه ﷺ رسول الله فلا بد أن نؤمن أن الله أرسله، ولا بد أن نؤمن أنه أرسله بالقرآن فليس مسلماً من لا يؤمن أن القرآن من عند الله، والقرآن وحده، ولا يقبل الايمان ممن يرتضي شقا من القرآن ويرفض شقا منه آخر ولا اختيار للمسلم في هذا، إنما اختياره أن يكون مسلماً أو غير مسلم أما أن يكون مسلماً ويقبل حكم الله في الزكاة ولا يقبله في ميراث الأبناء للأباء فهو غير مسلم مهما يرتفع منه الصوت أنه مسلم.

ومهما يلبس الجبة والعمامة ومهما يطلق لحيته .. هو غير مسلم، والشيوعي يرفض الملكية بأطلاقها فهو إذن يرفض الميراث من باب اولى فكيف يكون مسلماً؟ وعلى أي منطق يريد أن يزور علينا إيمانه ونحن هنا لا نتدسس على ضميره وإنما نأخذه بالعقيدة التي يؤمن بها الشيوعية، إنها تقوم في أساسها على رفض الدين وهو يقول بها فنحن إذن لا نتدخل بينه وبين ربه فهو لا يؤمن بربه بنص إعلانه عن مذهبه.

الشيوعي الذي اختار الشيوعية مرتد وأبناؤه الذين يولدون له وهو شيوعي ملحدون حتى يبلغوا الرشد ويختاروا الدين الذي يؤمنون به وإن كان حد الردة يقع على الشيوعي المسلم الذي اختار الشيوعية فهو لا يقع على ابنه الذي ولد له وهو شيوعي لأنه أصلا لم يدخل إلى الاسلام حتى يكون مرتداً.

وإذا جاء يوم وطبق القانون الاسلامي بحدوده الجنائية في المحاكم فلا بد أن المحاكم ستطبق على الشيوعي حد المرتدين لأنهم بنظريتهم تركوا الاسلام وهم لم يتركوه سراً وإنما تركوه علناً وبصريح نظريتهم.

والشيوعيون الذي يدعون الاسلام لا يملكون أنفسهم ولا يملك الكتاب

منهم أخلاقهم فهي كثيراً ما تتمرد عليهم وتجعلهم يكتبون كلاماً حقيراً ساقطاً في معرض الحديث عن الدين، منهم كثير من المتبجحين الذي بلغ بهم التبجح أنهم يريدون أيضاً أن يشرحوا القرآن، وبطبيعة إلحادهم يريدون أن يشرحوا على هواهم وعلى ما يريده لهم كفرهم، وأعجب؟ ما لهم ولهذا؟ ولكن فيم العجب وهل تنمو الشيوعية إلا في العفن وهل يكون العفن إلا في ظل الكفر والبعد عن الله عصامنا حين لا عصام لنا وملاذنا إذا انقطع بنا الملاذ وأملنا إذا استحكم اليأس، ولكن الشيوعيين لا يريدون لنا عصاما ولا ملاذا ولا أملا حتى يفشو فينا رجسهم ساء ما يطلبون، وبئسهم من كفرة وملحدين، ولا إله إلا الله وإن رغمت منهم كل الانوف؟

صورة وهمية .. أمنية لن تتحقق

أقرأ لكتاب كثيرين وأتحسر على حظهم العاثر الذي فرض عليهم أن يكونوا كتاباً يعرضون عقولهم وثقافتهم وأسلوبهم وعرضهم على الملا وعلى الأجيال، وأتمنى لو أنهم قرأوا ما يكتبون بعد كتابته، وأتصور أن الله لو كان يريد لهم الستر لكان هؤلاء الكتاب كتاب أرشيف في إحدى الوزارات يقيد الواحد منهم الصادر والوارد في دقائق معدودات في تلك الغرفة الرطبة المتهالكة التي تعود الارشيف أن يختارها لمقامه والتي تقوم جدرانها من الدوسيهات كومتها السنون.

وينتهي الكاتب من قيد الصادر أو الوارد ثم يفرغ لزملائه ويقول .. وحينئذ يتاح له ما لا يجوز أن يتاح لكثير من الكتاب الذين أقرأ لهم باخرة في الصحف، لأنه إذا كان موظف أرشيف فإن من حقه أن ينتقد ما حلا له النقد دون أن يكون في حاجة إلى تبرير نقده وما حاجته إلى التبرير إنما المهم أن يقول وأن ينتقد ويدش حتى إذا انتهى من النقد والشتم والسب والتهجم تكلم في كل المواضيع التي يطيب له أن يبدو أمام زملائه أنه على علم بها فيتكلم في الذرة وبقايا الذرة وكيف ينبغي أن تدفن ثم يتكم في الأيونات ثم يعرج إلى القمر والصعود إليه وكيف ينبغي لمصر أن تسارع باعتلائه ولا بأس عليه إذا تكلم أيضاً عن الصعود إلى الشمس وليس يعنيه معقولة ما يقول أو عدم معقوليته ثم يتكلم عن الاقتصاد وكيف نعالجه في مصر وحينئذ سيتكلم بطبيعة الحال في الاقتصاد في جميع أنحاء العالم فهو والحمد لله يتكلم إلى إخوان له

ليس يعنيهم من كلمة الاقتصاد إلا التوفير ليزوج الواحد منهم ابنته ويسترها أو ليدفع مهر ابنه ويؤدي واجبه نحوه كما أدى أبوه هو واجبه. فهو إذن حين يسمع زميله يتكلم عن اقتصاد بولندا لن يناقشه وإنما سيتركه يقول ما يشاء دون أي معارضة.

ولكن الوقت طويل والسنة ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وأحياناً ستة وستون وهذه المواضيع كلها لا تكفي لقطع الوقت على الرغم من الاجازات الكثيرة التي تنفرد بها مصر دون سائر بلدان العالم مثل عيد الوحدة والفاتح من سبتمبر وأعياد النصر الذي تم في وسائل الاعلام وحدها وغير ذلك من أعياد الأحزان في مصر على الرغم من كل هذه الاجازات تبقى الأيام متطاولة وحينئذ لا يجد كاتب الأرشيف مناصة في أن يتكلم في الدين، ويفسر القرآن كما يفهمه هو وليس الكاتب محتاجاً أن يقول أن من حق كل إنسان أن يفسر القران فإن أحداً لن يطالبه بالمراجع حين يقول هذه المقالة فهو سيفسر وهم سيصمتون فالوقت المتطاول عليه متطاول عليهم أيضاً وما داموا لا يجدون شيئاً يصنعونه فما عليهم لو أنهم استمعوا إلى أي حديث حتى إذا انتهى من تفسير القرآن بادئاً من الفاتحة وسورة البقرة منتهياً إلى سورة الناس دلف إلى السياسة الدولية فإذا ضاقت به سبلها بدأ يتناول وزارات مصر الواحدة تلو الاخرى وراح يفيض في مقترحاته ولا عليه إن كانت هذه المقترحات كفيلة بمشيئة الرحمن أن تكون قاصمة الظهر لمصر ولكن لا بأس عليه فإن شيئاً من مقترحاته لن يخرج من باب الأرشيف.

وأتصور هذا الموظف متزوجاً من سيدة تظل طوال النهار تطهو له طعامه حتى إذا عاد تصدرت هي مكان الحديث فتروح تكلمه عن أسعار الخضار واللحم والأدوات التي استلفتها من جارتها وما أستفته منها وأذكر شطر البيت وما من ظالم إلا ويبلى بأظلم فزوجته بالعدل الالهي تنتقم لزملائه بالديوان منه ويظل هو صامتاً بطول غداته، ثم ينام قليلاً ليرتاح من حديثه الذي قاله ومن حديث زوجته الذي استمع له أو لم يستمع حتى إذا صحا من القيلولة ذهب إلى المقهى ليلعب الطاولة راحت زوجته تلف على الجيران تجمع الأخبار

تتنطس الأسرار ويلتقي الزوجان في الموهن الأول من الليل وتروح زوجته تنفض على مسمعه حصيلة دورانها على الجارات حتى إذا تعبت من الحديث راح هو يحدثها عن الأيونات وينتقد لها الساسة والسياسيين في شرق وغرب ويفسر لها القرآن ويشتم إليها الوزراء ويعرض عليها مقترحات التغيير وهي تتفوق على زملائه في الأرشيف بأنها دائبة على الاعجاب به تحصنه بالحي القيوم وتذود عنه العين باسم رب الفلق وتحرسه وتضمنه باسم النبي.

كاتب الأرشيف هذا أحسده على النعيم الذي يقضي فيه صباحه وعصره ومساءه وأتمنى للكتاب الذين يعرضون أراءهم على الناس لو كانوا جميعاً هذا الموظف حتى لا يذيع جهلهم ولا ينشو بين الناس ما ينبغي أن يستر من عيهم وعجزهم، ولكن الله سبحانه وتعالى لحكمة لا يعلمها إلا هو كتب عليهم أن ينشروا ما يخطون على الورق وأن يطبع هذا الذي يخطون ويقرأه الناس فيما يقرأون والأمر من قبل ومن بعد لصاحب الأمر وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الشياطين والديوان

جاء في كتاب عيون الأخبار الذي اعيد قراءته في هذه الأيام :

« وقال بعض أهل الأدب إنه قيل ديوان لموضع الكتبة والحساب لأنه يقال للكتاب بالفارسية ديوان أي شياطين، لحذقهم بالأمور ولطفهم فسمي موضعهم باسمهم.

وقد وقفت طويلاً عند هذا النص كيف استطاع الناس من فارسيين وعرب أن يقرنوا الشياطين بالموظفين في الديوان، لا حسب أنهم كانوا في تلك الوقت إذا أرادوا أن يصفوا إنساناً بالمهارة الفائقة ألحقوه بالشياطين، والشواهد حاضرة من قريب فها أنت ذا رأيت الديوان وشيطنته وأني مذكرك بغيره مما تعرف.

فإنهم حين وصفوا الشخص النابغة إختاروا له لقب عبقري والعبقري هو الشيطان الذي يسكن وادي عبقر ويقول القاموس إنه موضع كانت العرب تزعم أنه كثير الجن فالعبقرية أيضاً شيطنة.

وليس العرب بعيدين عن العوالم الاخرى فالناطقون بالانجليزية يقولون جينيس وهي كلمة مشتقة من الجن العربية أما الناطقون بالفرنسية فهم أكثر صراحة فهم يقولون جيني وكلا اللفظين يعني المتفوق المنفرد الذي لا يماثله أو لا يكاد يماثله في فنه إنسان.

فهناك إذن شبه إجماع عالمي على إطلاق الشيطنة في مواضع الاعجاب

ولكن العجيب أني طالعني باخره هو ذلك الوصف الذي أطلقوه على الموظفين من أنهم شياطين هم أيضاً ويضمهم الديوان الذي يعني مجمع الجان.

نرى لو أن هؤلاء الذي أطلقوا صيغة الاعجاب المبهر هذه على الموظفين رأوا ما تصنعه اليوم القوى العاملة بالموظفين أكانوا يطلقون اسم الديوان على الشياطين.

وكيف لهم أن يفعلوا وهم لن يجدوا في كل ديوان إلا موظفاً أو اثنين يعرفون خفايا وظائفهم بعض المعرفة ثم هم واجدون شياطين الديوان بعد ذلك أقرب إلى الشيطان الذي يستعيذ المؤمنون بالله منه في كل لسان سيجدون موظفي الديوان لا يصنعون شيئاً إلا أن يشربوا القهوة ويتصفحوا الجرائد دون أن يقرأوها أو يوقعوا ثم يغادروا الديوان لا يعودون إليه إلا وقت التوقيع للانصراف، وهؤلاء خيرهم ولكن منهم من لا يذهب إطلاقاً ويكتفي بأن يوقع عنه أحد زملائه في صباح وظهيرة ومنذ أيام روى لي صديق هذا الحوار بينه وبين موظف حكومي يعمل عنده بعد الظهر، وكان أحياناً يقوم بأعمال قليلة له في الصباح فإذا هو يقول له يوماً : لا مؤاخذة يا أستاذ لن أستطيع بعد اليوم أن أقوم بأعمال الصباح

لماذا؟ ــ جاءنا مدير جديد غاية في الرذالة

ــ كيف

ــ تصور سعادتك أنه يريدنا أن نذهب إلى الديوان كل يوم

ــ ماذا .. أهذه رذالة

ــ طبعاً

ــ أليس الأصل والطبيعي أن تذهبوا كل يوم

ــ لقد كان كل منا يذهب يوماً واحداً في الاسبوع يوقع عن نفسه وعن جميع زملائه وباقي موظفي الديوان لا يذهبون أبداً. وبعد هذا الحوار لك أن تعرف أي نوع من الديوانين ديوان اليوم أهو ديوان العباقرة أم هو ديوان الذي نفتتح كل عمل لنا بالتعوذ بالله منه .. ولكن العمل يقتضينا أن نمضي في الأمر

إلى غايته، إن شياطين اليوم معذورون فيما يفعلون فالمرتبات التي يتقاضونها يستحيل عليهم وإن كانوا عباقرة وجنا وشياطين أن يواجهوا بها أبسط مطالب الحياة ..

والنفس بطبيعتها تضيق أشد الضيق إذا وجدت فئة تطغى على فئة، ولا شك أن هناك فئات كثيرة نالت حقوقها كاملة ولا تقوم بواجباتها ولا تكاد تكون مسؤولة أمام رؤساء وتنتضع بأوقات فراغها انتضاعاً يعود عليها بالثراء المبهر الذي ينفق أغلب الأمر على المخدرات وكلمة المخدرات تطلق على الجنس الآخر أيضاً لأنهن كن في الزمان القديم من ذوات الخدور وفي نفس الوقت نجد الموظفين في الحكومة والقطاع العام مضيقا عليهم في الرزق أشد الضيق وحين يجد هؤلاء وخاصة الذين نالوا منهم الشهادات العالية أنهم وحدهم الذين يضيق عليهم في الرزق يتحتم علينا أن نلتمس لهم العذر فالجزاء لا يكون إلا إذا توافر العدل وإنني لا أراه متوافراً، وإنما أرى سرفاً في جانب وتقتيراً في جانب ونحن كلنا أبناء مصر وننتظر من أمنا العدالة فإن ظلم ذوي القربى أشد مرارة على النفس من وقع الحسام المهند.

وقد تردد في يوم من الأيام أن الحكومة لن تقوم بتعيين كل الخريجيين وإنما ستقدم لهم مرتبات ثابتة إلى أن يتمكنوا من الحصول على عمل وربما كان في هذا الرأي بعض المنطق وإنما يكمله أن تزداد مرتبات الذين يعملون بجد وإخلاص وتتجمد مرتبات الذين لا يعملون وهذا يتطلب الا كلمتان يحابي الرؤساء الاصدقاء والمنافقين على حساب المخلصين الجادين. وهكذا نعود مرة اخرى إلى أنواع الشيطنة فإن في المشرفين على الموظفين شياطين مهرة صادقين في أحكامهم لا يميلون مع الهوى ولا يخرجون عن الجادة وإن فيهم أيضاً شياطين من هؤلاء الذين يستعيذ منهم المؤمنون بالله اللهم حوالينا ولا علينا واللهم ألهمنا فيما تراكم على أخلاقنا وقيمنا القوة أن نزيح الركام فلو أن القيم وحدها عادت لعادت إلى مصر بل عادت إلى الشرق كل إشراقته وعاد مجده إنك وحدك القدير العزيز.

فكيف يخونه دمه

حين تصنع المعروف هل تنتظر الشكر ممن تصنعه له، إذن فأنت لا تدرك معنى الذي تصنع، أو أنت، على الأقل لا تتعمق نفسك وأنت تقدم الفضل. الحقيقة أنك تسعد بأن الله سبحانه وتعالى مكنك أن تقدم للنفس خيراً، وهل هناك جزاء أعظم من أن ترى سعادة مشرقة على وجه إنسان، ما معنى الحياة إذا كنت لا ترى من حولك سعداء، وما قيمة سعادتك إذا هي أحيطت بالشقاء.

إذا كنت ستنتظر إلى شكرك مقابل فضلك فأنت إذن لا تدرك حقيقة ما تقدم من فضل، إنه في ذاته يحمل لك الجزاء الأوفى.

ولكن هناك سؤال آخر يلح على الناس الذين يحبون أن يصنعوا المعروف فإن كثيراً منهم يخشى قالة الناس إنهم يقدمون عونهم ليشتروا مديح الناس لهم ولو أن أصحاب الفضل استمعوا إلى مثل هؤلاء لما قدم أحد إلى آخر فضلاً، فإن هناك جبلات من البشر وليسوا من البشر يحبون أن يروا الناس تعساء وعلى رأس هؤلاء الشيوعيون فإن مذهبهم لا ينمو إلا في الشقاء فإن اغتصبوا السلطة أصبح اشقاء الناس هوايتهم وحرفتهم، ولكن ما لنا ولهؤلاء فما أردت الحديث عنهم اليوم وإنما تذكرتهم حين ذكرت الوحشية في المعاملة والرغبة العارمة عند بعض المنتسبين إلى الأدمية في إشقاء إخوانهم من الأدميين وهيهات لانسان سوي أن يذكر الوحشية والشقاء ولا يذكر الشيوعية والشيوعيين.

إنني أفكر في أمر صانع المعروف وهل يجوز له أن يرده كلام الناس عما يجب أن يصنعه للناس من خير، سيقال عنه إنه متظاهر وانه يتكلف الأفضال وما هو من الفضل في شيئ واذكر قصة من أروع ما حمله إلينا التاريخ الاسلامي، يوم تمكن علي كرم الله وجهه من عدو له وشهر عليه سيفه يوشك أن يقتله فصاح العدو « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » وفي لحظة أحس علي أن الرجل إنما نطق الشهادة ليتقي القتل ولم ينطقها عن إقتناع فأهوى بسيفه عليه وقتله، وعرف النبي ﷺ بالواقعة فقال لعلي :

ـــ قتلت امرءاً مسلماً

وقال علي

ـــ إنما أسلم خوفاً ولم يسلم عن عقيدة

فقال عليه الصلاة والسلام

ـــ هل اطلعت على قلبه

فالسريرة لا يعلمها إلا الله، فإذا كان الناس يتهمون من يقدم المعروف بالتظاهر أو تكلف غير طبعه فهم إنما يرجمون بالغيب ويحاولون أن يدحروا الخير بين الناس بالشر الذي تمزج به نفوسهم.

ولما كان الشر والخير هما محورا الصراع منذ بدء الخليقة فإنه ينبغي على كل شريف أن يكون حرباً لا تعرف الهوادة على الشر فللشر وسائل كثيرة لا يملكها الخير .. الشر يملك القتل .. والخير يقتل القاتل .. والشر يتخفى وراء الملذات والخير لا يخشى الوضوح، والشر يصاحب المتع العاجلة والخير ينظر إلى قيمة الانسان ويرفض منه أن يكون مجرد حيوان، ولهذا لم يكن عجيباً أن يقول رسول البشرية ﷺ « الجنة حفت بالمكاره ».

فالمتع العاجلة لها لذتها وقمع النفس عنها كريه وصعب ولكن الانسان إذا أخذ نفسه بالشرف تعودت نفسه ذلك وأصبح حب الخير جزءا منه ورحم الله العقاد حين قال مادحاً أحد الماجدين « وحب الخير في دمه فكيف يخونه دمه ».

ولكن هل حب الخير وصنعه يحتاج حقاً إلى جهد من صانعه؟ أما أنا

فأعتقد أن حب الخير وصنعه هو متعة في ذاته، ربما ترددت قليلاً وأنت تقدم بعض المال إلى محتاج ولكنك حين ترى هدأة القلق وطمأنينة الحيران وانحسار اللهفة عن الملهوف ارتدت إليك نفسك بسعادة لا يعدلها مال العالم أجمع.

وليقل عنك الناس ما شاؤوا فما دمت أنت صادقاً مع نفسك وربك فماذا يعنيك من الناس، وكن على ثقة أن أهل الخير من أمثالك هم الغالبية العظمى من الناس وإن كان الشر أكثر وضوحاً في الحياة فذلك لأن الشر ذو صوت مرتفع جهير والخير يهمس ويطن ويخافت ولا يصيح، ومع مرور الزمن لا بد أن يمدحك الناس، ولا أستطيع أن أنسى حواراً قرأته في كتاب من كتب التراث : قال أحدهم :

ــ والله ما أبالي مدحني الناس أم ذموا

فأجاب آخر :

ــ إسترحت من حيث تعب الكرام

وليس الخير مجرد استجلاب لمديح وإنما هو كما قال العقاد : أمر يجري في العروق مجرى الدماء وهيهات للدماء أن تخون صاحبها.

ملبس أجرب لزمن ممزق

ما هذا الزمان الذي أصبحت فيه القذارة هي مظهر الأناقة والصعلكة هي التطور والملابس الممزقة هي مجاراة العصر، ومظهر إشراقه وجماله لقد تمزق العصر وظهر تمزقه على الملابس، وأصبحت القيم هي الاخرى جرباء فأصبح الملبس أجرب.

رأيت نساء حليقات الشعر كأنهن الرجال، بل رأيت في التليفزيون الفرنسي إمرأة ملونة بلا شعر على الاطلاق وما زال كثير من الشباب — وإن كان أقل من ذي قبل — يطلقون شعورهم فما أثار منظر اشمئزازي قدر منظر المرأة بلا شعر ومرأى الرجل يطلق لشعره العنان.

ورأيت في لوزان آنسة كان يمكن أن تكون جميلة ولكنها راحت تحارب ما وهب الله لها من جمال بشتى الوسائل والحيل حتى نجحت فيما قصدته وبلغت من أهداف القبح ما سعت إليه، فشعر منفوش يوحي بالقذارة وملبسها مترهل عن عمد لا عن فقر، فواضح أنه قد كلفها من المال كثيراً وإن كان لم يكلفها من الذوق شيئاً.

ورأيت شباباً لحاهم مهملة فلا هي حليقة ولا هي مطلقة وإنما شيٌ بين الاثنين لا أدري كيف يحافظون عليه على حاله هذا دون تغيير.

وأرى كثيراً من مدعي الفن يطلقون لحاهم علم الله أنهم يريدون أن يلفتوا

إليهم الأنظار، وقعدت بهم مواهبهم أن يلفتوا الشهرة إليهم بأعمالهم فحاولوا ذلك بلحاهم ولن يهب الله فنا لمجرد لحية.

وإن كانوا يحتجون بالحرية فإن أحداً لا يمنعهم أن يصنعوا بشعورهم وملابسهم ومظهرهم ما يشاؤون ولكن ما داموا يرون أنهم مارسوا حريتهم بهذا القدر فليسمحوا لنا أن نقول نحن أيضاً رأينا مستعملين حقنا في الحرية نفسها.

إنكم كثيرو القرف والاشمئزاز والتقزز وإن كان هذا ما سعيتم إليه فبشراكم قد بلغتم من الدنيا مناكم وبئست المنى.

وهنيئاً لكم زمنكم الأجرب الذي اغتال الزعيم الوحيد الذي حقق نصراً للعرب في العصر الحديث، وبأيدي أقوام يدعون حرصهم على دين العرب.

وعلم الله ما دعاهم إلى القتل إلا التكالب على الفانية وليس النظر إلى الباقية والحرص على الدنيا والرفض للعليا، والسعي إلى المنصب والرئاسة والتحكم في عباد الله بما لا يرضي الله.

وهنيئاً لكم زمنكم الأجرب الذي سمح لهنات الناس وبغاتهم أن يهاجموا الأئمة الشم الذين أدوا رسالاتهم أكرم ما تؤدي الرسالة وأوفى ما يكون القيام بالأمانة.

فهذا عميد الأدب العربي الذي تخرج الأدب الحديث على يديه طه حسين يواجه حملة ضارية من المجاهيل الضائعين يريدون هدم مجده ونسف ركنه ومحو الشامخ من بنائه، ويصيح بهم الحق أن ما سطره التاريخ لا يمحوه الصغار ولا حتى الكبار.

وهذا شاعر الأجيال الحديثة جميعها شوقي يعتدي على عرشه الهوف والحمقى ومدعو الشعر يريدون أن ينزلوه عنه ويجذبوه من قمته التي لم يقتعدها شاعر قبله ولا شاعر بعده هناك في ذؤابة الشعر العربي كله، ووسيلتهم إلى ذلك كلام لا هو من الشعر ولا هو من النثر، ولا هو شكل ولا

هو معنى، وإنما ترجح بين السقم والضحالة، وبين العي والفهاهة، وبين العجمى والفصحى، وبين العربية باللفظة والغربية بالفكر والانتماء.

زمان أجرب لاتخذ الملبس الأجرب لقيم جرباء ولفظ أكثر جربا.

الفن فيه صوت لا يؤدي معنى ونغم ناشز وصخب في غير حلاوة وضجة في غير طرب.

يقول المغني الهذاء والسخف والألفاظ التي لا تركب جملة والحروف التي لا تكون لفظاً فتسكب عليه أموال الاعجاب ويصبح اسمه علماً على عصره .. وقد وافق شن طبقة وتلاءم غناؤه وتفاهة الزمن وتواكبا واصطحبا واشتهر غليظ الصوت بجمال النغمة وأصبحت الحشرجة طرباً والقبح حسناً والخوف فناً.

زمان سقطت فيه القيم وعلا فيه الانحطاط، وهان فيه الرفيع من شيمنا وساد فيه الدنيُ من أخلاقنا.

وسقطت المثل الرفيعة، ليحيا المال وحده بغير عنان من شرف يلوي به عن السرف أو مسكة من ضمير توقف جبروته وطغيانه فهو وحده المعبود وهو وحده السيد المتصرف .. بطانته الجهل والجنس والجبروت والتكبر بلا كبرياء والترفع بلا رفعة والتطاول بلا طول والاعتداء على كل مقدس، والقتل لكل فضيلة أو فاضل. والبعد كل البعد عن المرحمة والحب والانسانية ولا أقول النوارنية، فهيهات.

لهم الله المؤمنون المحسنون من أبناء العصر، فلولا إيمان بالله عميق لم يبق فيها من خير ولتركوها مختارين رافضين أن ينتظروا حتى يطويهم ما أصبحوا يتوقون إليه لينقلهم هناك عند عزيز السماوات صاحب العرش والكرسي حيث ترعى عنده وعنده وحده سبحانه حرمات شاء أن تصان .. وإنها ببعض قليل من عباده مصونة وإن رغم أنف الزمن الأجرب.

ولكن أخلاق الرجال تضيق

ما أعظم الأبيات التي صادفتها في قراءتي ذلك البيت العظيم.

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

فالبيت مع جمال صياغته يضع قاعدة وطنية تظل الأيام ترددها وتؤيدها على مدى السنوات الطوال وقد قيل هذا البيت منذ ألف عام ونيف، وباليقين لم يكن الشاعر يدري أن مصر ستلاقي من العنت والقهر ما لاقته ولم يكن يدري أن الآلاف من أبنائها سيتركونها مهاجرين ويتركها أيضاً غير أبنائها الذين اتخذوا منها موطناً واختاروها دون بلاد الله بلداً لهم، ولكن المصري الذي يهاجر يحمل مصر معه ويأبى في اعتزاز لا أعرف له مثيلا أن يتخلى عن جنسيته المصرية قد يقبل أن يحمل جنيسة أخرى ولكنه قط لم يترك جنسيته المصرية، بل أن الأغلبية الكاثرة منهم تتوق أن ترجع إلى مصر ليكون ملاذه الأخير ومراح اطمئنانه ومبعث دفئه من برد الغربة وهجير الوحدة.

وكنت مع أخي وصديقي الأديب الفنان فاروق خورشيد في اليونان وكنا نمشي في شوارع أثينا نتبادل الحديث باللغة العربية فإذا أقوام يتحلقون حولنا وقد رنت في أذانهم أنغام اللغة المصرية ولا أقول العربية فهم لا يعرفون إلا اللغة المصرية أو أكثرهم على الأقل لا يعرف غيرها ويصيحون بي وبصديقي : أنتم من مصر ... أنتم من البلد الحبيب ... كيف الحال هناك، أنستطيع أن نرجع الآن، وفي يوم كنت أحادث صديقي فاروق ونحن في

طريقنا إلى صيدلية لنشتري منها بعض دواء، ودخلت إلى الصيدلية ووجهت حديثي بالانجليزية إلى صاحبها فإذا هو يجيب في لغة عربية خالصة وليست مصرية وفي لسان فصيح ليس فيه من العجمة أثر قال صاحب الصيدلية :

ــ نعم يا سيدي إن هذا الدواء عندي

ودهشت وصديقي من هذه اللهجة العربية والنقية وسألته :

ــ كيف عرفت أنني أتكلم العربية وضحك وهو يقول :

ــ لقد سمعت حديثكما وأنتما قادمان إلى الصيدلية

وراح الرجل المثقف يسأل عن أنباء مصر ولم تكن حتى ذلك الحين تسر فرحنا نحن نحاول أن نتستر على ما بها وما ندري إن كنا أفلحنا أم تعثر بنا الكذب.

وأرى في كل عام في لوزان سويسرا عائلة يونانية تصر على أن تلتقي بي وتتعرف مني ومن زوجتي على أنباء مصر وعلم الله أننا قد نجد الاسرة تعلم من أنبائنا ما لا نعلمه.

فإذا كان هذا حال الأجانب الذي تمصروا أو أقاموا في مصر دون تمصر فما ظنك بنا نحن الذي رضعنا لبانها وسرت شوارعها وحواريها وأزقتها وريفها وبحرها في الخوافي البعيدة من مسارب نفوسنا، لنا بين ربوعها ذكريات الطفولة والصبا والشباب ومن أقام لحقت به أيدي الكهولة والشيخوخة ولنا في باطن أرضها أجداد أجداد اجدادنا وابنائنا ولنا مشرق بسمة أبنائنا وخطى أقدامهم في لعب وفي جد ولنا مستقبل هؤلاء الأبناء وغدهم الذي أصبح غدنا نحن ما عشنا وأهم جزء منا إذا نحن فارقنا الحياة، ولا أستطيع أن أذكر مصر ولا أذكر الحنين إليها عند ملك الشعر العربي شوقي الخالد وهو يقول :

إذا الزمـــان بنـــــا غينـــــاء زاهيـــــة
ترف أوقاتنـــــا فيهـــــا رياحينـــــــا

الـــوصل صافيـــة والعـــــيشة ناغيـــــة
والسعـــد حاشيـــة والدهـــر ماشينـــــا

والشمس تختـال في العقيـان نحسبهـا
بلقـيس ترفـل في وشي اليمانينـا
والنيـل يقبـل كالدنيـا إذا احتفـلت
لو كان فيهـا وفـاء للمصافينـا
والسعـد لو دام، والنعمـة لو أطـردت
والسيـل لو عف والمقـدار لو دينـا
لم يجـر للدهـر أعـذار ولا عرس
إلا بأيامنـا أو في ليالينـا
وهـذه الأرض من سهـل ومـن جبـل
قبـل القيـاصر دناهـا فراعينـا
ولـم يضع حجـر بان علـى حجـر
إلا علـى آثارنـا أو في ليالينـا
كأن أهـرام مصر حائـط نهضت
به يد الدهـر لا بنيـان فانينـا

وعدت على مصر العوادي وما زلنا وأحسب أننا سنظل لسنوات نعاني آثار الزلزال المدمر الذي ترك مرافق مصر ركاماً متهتك الأوصال ممزق النواحي والناس تصرخ وتشكو، والناس تحب الشكوى، منذ وعيت السياسة لم يرض الشعب المصري عن حزب حاكم قط حتى وإن كان هو الذي اختاره وأجلسه على كرسي الوزرة وحسبي لأذكرك مثالاً لا تنساه مصر، ألم ينجح الوفد في آخر انتخابات دستورية في مصر قبل الثورة وكان نجاحه عارماً أخاذاً فقد كانت الانتخابات بعد أن ظل مبعداً عن الحكم أكثر من خمس سنوات، ومع ذلك فحريق القاهرة وقع بعد سنة وبضعة شهور قليلة من تولي الوفد مقاليد الحكم، ومهما قلت إن هذا الحريق كان وليد مؤامرة فالذي لا شك أن الشعب لو أراد لتصدّى للمعتدين ولردهم على أعقابهم دون أن يلحقوا بالقاهرة الحبيبة ما ألحقوه بها من خراب.

وفي الأمس القريب يصل إلي خطاب من مجهول وإن كانت الجهة التي

تفضلت بإرساله إلي غير غير مجهولة .. وأعف عن الرد عما جاء بالخطاب من دناءة فما تعودنا من هذه الجهة الأمثل هذا وإنما أجيب في شأن واحد مما جاء في الخطاب وهو غضبه على أنني لا أتكلم في مشاكل الشعب، لكم يتاجرون بك أيها الشعب العظيم. وهل يحتاج الشعب لأحد أن يذكر له مشاكله، أليس هو أدرى الناس بها، ما أسخف الطبيب إذا وصف للمريض داءه الذي هو أدرى الناس به دون أن يصف الدواء.

فإذا أنا تصديت لهذه المشاكل على غير علم مني مكين بدوائها فأنا ذلك الطبيب الذي يردد على مسامع المريض أعراض مرضه ثم يتركه ويمضي دون أن يذكر له الدواء.

وإنما قصارى الأمر معي أن أهيب بالحكومة أن تنفذ رأي العلماء، فهي قد استشارت رجال الاقتصاد وأئمته افتراها نفذت شيئاً من آرائهم.

أما أن أتكلم عن مشاكل التليفونات فمن أي لي الخبرة بذلك ولكن لماذا لا يمتدح الناس التقدم الذي تحقق في هذا المرفق انسوا أن وسط القاهرة ومصر الجديدة والمعادي ظلت سنوات لا ينطق فيها تليفون، ألا ينبغي علينا أن نحمد التقدم حتى يجد العاملون عندنا بعض الاعتراف بالفضل بدلاً من انهار الدم التي لا يقف سيبها.

أو أتكلم على مياه الصرف أو غير ذلك فإنني أكون كذلك الطبيب السخيف، أنا لن اردد كالببغاء ما يعرفه الناس مهتبلا بالحديث الفرصة لاهاجم الحكومة فلست بذلك، فما أصبح الهجوم على الحكومة اليوم بطولة. وفيم البطولة وجرائد المعارضة تقول ما تشاء وتختلق ما تشاء أيضاً وتصدر مع ذلك في مواعيدها بل وتسافر إلى الخارج أيضاً تحمل أنسام الحرية التي تشهدها مصر إلى العالم المتحضر الذي أصبحت الحرية فيه أمراً لا يحتاج إلى الاشادة به وتعلن هذا العالم أن نسير في هذا الطريق وإننا عنه لا تنكس، فلنضرب إذن صفحاً عن الخطاب وأصحابه وعن ذلك المجهول المعروف ولا أحب أن أروي بيت المتنبي المعروف فقدر ما أبغض الناقصين أبغض أيضاً أن أمدح نفسي.

تحطيم الهواء

يشهر الكاتب المبتدئ قلمه الطفل ويشرع سنه الأخضر الغض ويهتف صارخاً .. سأحطم وأول ما يتصور أنه سيحطمه التقاليد، فهي عنده تلك القيود التي رثت على تعاقب الأزمان والتي عبرت الأجيال مقدسة الخطى بفضل جمود العقول في رأيه، موفورة الجلال بفضل جهل الشعوب التي تأخذ بها فيما يظن.

ويحسب الكاتب النصير الأهاب أنه أصاب من الأمر مفاصله وأنه وقع على طلبته ووجد الشيءُ الذي إذا حطمه سيصفق له الشباب والمتحررون بتفكريهم والمتسامون بعقولهم.

ويكتب الطفل وما هي إلا بعض سطور حتى يجد التقاليد تحيط به من كل جانب وإن القيم الكبرى التي اعترفت بها البشرية قبل ظهور الأديان ثم أكدت الأديان معانيها وثبتت رواسيها وشدت أطنابها من المثل الثابتة التي لا تستطيع أي قوة شريفة أن تقف في مواجهتها بل أن القوى الوضيعة إذا ما واجهتها فإنما تواجهها خفية متسترة بأستار هذه القيم نفسها متشحة بخمار هذه المثل الرفيعة محاولة أن تميل بها عن طريقها، وتحيد بها عن جادتها، وتصرفها عن سمتها الواضح الجلي الذي لا سمت غيره فالشرف واضح والصدق جلي والخلق الرفيع هو الخلق الرفيع مهما تتكالب حوله الأعراض وتثعلت دونه شراذم اللئام، ماذا يستطيع الكتاب الذين يريدون أن يحطموا التقاليد أن يحطموا.

أيستطيعون إن يحطموا الشرف، أيستطيعون إن يحطموا الحب، كيف ..! يمتدحون البغض مثلاً؟ والكراهية والحقد والسخيمة السوداء والغل المعتم الوضيع.

أيستطيعون أن يقولوا أن الأمانة شر، وإن السرقة رفعة أم أن الصدق سقيم، وإن الكذب متعة.

إن القيم الثابتة لا تتغير، وكل الذي تغيرهم الناس، فقد أصبحوا يعرفون الشر ويأتون علانية ولكنهم بعد لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يدافعوا عنه.

إن الشباب الذي يريد أن يحطم التقاليد لا يحطم إلا الأعراض الهينة الساذجة البسيطة التي لا تمثل إلا مظاهر هذه القيم والتي لا تصل إلى لبابها أو حقيقتها.

فمن الأمور مثلاً التي يصر الكتاب من الشباب على تأكيدها حرية الفتاة في الاختيار، ويتوهم الشباب أنه أتى بجديدة يحطم بها التقاليد وقد يكون في إرغام الفتاة شيٌ من التقاليد، ولكنها تقاليد لا تمثل القيم الحقيقية بل هي حتى لا تمثل الدين وهو القمة الرفيعة لعليا القيم، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يرى أن الفتى يجب أن يرى عروسه مقبلة مدبرة ويرى عليه الصلاة والسلام أنه أحرى بالعروسين أن يؤدم بينهما أي يأكلان معاً، وكان الرأي في الاسلام أن الفتاة لها أن تختار زوجها وكتب التراث مليئة بالروايات عن الفتيات اللواتي رفضن الخاطبين لهن.

فأنت إذن أيها الكاتب الشاب لم تحطم قيمة فالقيمة ثابتة وإنما حطمت مظهراً ليس من القيم في شيٌ، وحين يكتب الشباب عن احترام الأبناء لآبائهم فهم إنما يحاولون أن يحطموا عماد البيت وأساسه، ولكنهم إذا مالوا إلى مظاهر هذا الاحترام فإنهم سيجدون مشعا ومراحا، لم يعد الأبناء يحترمون الأباء بمظاهر خارجية وإنما يقل الاحترام في دخيلة نفوسهم والاحترام علاقة متبادلة، فالأب غير المحترم لن يحترمه أبناؤه، فإذا وقفوا له رائحا وغاديا فهم قردة لا يدل وقوفهم إلا على السخرية والتحقير وليس يعني مطلقاً الاجلال أو التوقير.

والفتاة في تصرفاتها قد تعدو على المظاهر وقد نجد مؤلفين من الشبان أو مؤلفات من الثائرات يقولون لها إصنعي ما شئت فما دمت شريفة فقد حل لك أن تخرجي حين شئت وترجعي حين أردت والعبرة بما تصنعين وليس بما يبدو منك والكتاب هنا يوقعون الفتيات في كارثة ما من سبيل إلى علاجها فالشرف سمعة .. وأقولها ثانية وثالثة وعشرا ..

الشرف سمعة ... فإذا راحت الفتاة تعبث بهذه السمعة بغير حكمة ولا تعقل أو بصيرة أصبحت في نظر المجتمع عاهرة وهي التي ستدفع الثمن وحدها. والمصيبة الكبرى حين تكون شريفة وترمى بهذه الوصمة، والناس لهم الظاهر وهم معذورون فما من أحد يصل في أمر الشرف إلى الحقيقة العارية وإنما الأمر كله سماعي حين يتجاوز الفاعلين.

ليت هؤلاء الشباب من الكتاب يوجهون همهم إلى الدولة وليس إلى التقاليد .. ليتهم يقولون للدولة ونقول معهم .لا تظلمي فئة على حساب فئة ... ولا تطحني الموظفين في ساحتك حتى لا يشب الحقد بنفوسهم وتغلي مراجل الغضب في ضلوعهم على كل المجتمع، ليتهم يقولون للدولة لقد ملكت فاسجحي .. وحمت فاعدلي ..

فالعدل قديم وليس فيه جديد .. والعدل قيمة لا سبيل أن نعدوها.

ليت الشباب من الكتاب يقولون للناس إذا ضاقت فإلى فرج إن أدلهم الليل فسوف ينكشف عن صباح.

فإن الأمل بالشباب خليق وبالمؤمنين منهم أخلق، ليت الشباب من الكاتبين يكفون عنا تلك السموم التي تموج بها رواياتهم فكلها يأس أسود مرير شديد المرة وكلها قاتم داكن القتامة لا فرجة فيه لأمل.

ليت الشباب يكتفون بما تكرر من المعاني السقيمة التي تثير طبقات المجتمع بعضها على بعض والتي تفتعل الاحن والعداوات بين أبناء الوطن الواحد، فتلك نغمة يصطنعها الشيوعيون ليدمروا بها المجتمعات لأنهم هم لا يسيطرون إلا على المجتمعات التي تم تدميرها.

إلى من ينجح .. لقد نجحت فويل لك

لا يحسبن الناجح أنه حين ينجح فقد انتهت متاعبه وآلامه ومشاكله ..

ألا فليعلم أن هذا الذي فرغ منه أبداً هو أهون المتاعب وأقلها شأناً وربما كانت المتعة التي تصاحب العمل والتي ترادف أداء الواجب وإرضاء الضمير تجعل هذا الذي فرغت منه ذكريات تنثال إلى مشاعرك بالسعادة والهناء.

ولكنني يا أخي أخاف عليك مما يعقب نجاحك فأنت ـــ لا شك ـــ تتوقع الابتسامة المشرقة والاعجاب بك، والفرحة الغامرة من سائر الناس عند لقائك. وربما توقعت في غمرة من طيبة نفسك ـــ فالناجح في أغلب الأمر إنسان طيب ـــ إن حفلات التكريم ستنهال عليك وكلمات الأكبار ستنسكب إرسالا على اذنيك.

ومن أجل هذا التوقع منك أسارع إليك .. فأنني أخشى أن أتركك وشأنك فتروعك الحقيقة، ويصدمك الناس، ويحطم الحقد ما قد يداعب نفسك النقية من آمال.

أما أن نفسك نقية فهذا أمر طبيعي لأنك شغلت نفسك بأن تتقن عملك وصرفتها عن الحقد على الانسان وتقصي الصغائر والتعامي عن كبريات الأمور وعظائمها وقلت كما يقول المتنبي :

وتكبـــر في عيـــن الصغيـــر صغارهـــا
وتصغـــر في عيـــن العظيـــم العظائـــم

ومن هذا النقاء ينفذ إليك أبناء الحقد الأسود والسخيمة الداكنة ويلوثون الشريف من نقائك والرفيع الكريم من أعمالك.

وسيلتهم طيعة من قريب تستجيب لهم كما تستجيب الأفاعي للحواة.

فإن كنت رجل أعمال وأصبت النجاح فأنت لص مستغل متحايل، وإن كنت رجل علم ونلت شهادة الدكتوراه، فأنت غشاش والذين أعطوك الدرجة العلمية جهلاء والكلية التي منحتك إياها مزورة، وإذا كنت صاحب فن فأنت سطحي إن كنت كاتباً وأنت مفتعل إذا كنت في مهنة التمثيل، وأنت أجش الصوت إن كنت مطرباً، وأنت ناشز النغمات إن كنت ملحناً، وأنت باهت الألوان إن كنت مصوراً.

وأنت لن تنال هذا الحقد إلا إذا كنت ناجحاً بلغت من النجاح رضاء الجمهور الشريف الذي لا يصدر حكماً في الفنون إلا بطبيعة بريئة بعيدة كل البعد عن الغرض .. خالصة الشوائب من الأحقاد، رفيعة عن التنطع عالية عن الدناءة بريئة إلا من الحق والصدق .. وهؤلاء الحاقدون لن يراعوا لك حرمة ولا يتقون الله في حكم لهم، وقد تبلغ بهم الدناءة أن يهاجموك وأنت ما زلت تفتتح حياتك وأنت بعد غض نضير تروض جناحين من ريش النجاح الجديد ولكنهم في قساوتهم لا يرحمون جناحيك الهشين ولا تطلعك المتفائل إلى مشرق أمال عراض وأيام وضاء ومستقبل في فنك بشر به حاضر وباركه من الجماهير رضاء وميل إليك.

لا عليك فهم كما يركبون إلى نجاحك مراكب القسوة والوحشية يركبون إلى الشيخ الجليل الذي يقتعد القمم الرفيعة من مجده الغني مراكب الشطط والاعتداء على جلال مكانته وسامق شواهقه فهم بلا حياء يردهم إلى بعض خلق، وبلا خجل يقف بهم إلى بعض شرف، إنهم ساقطون في حمأة عفنة من مهاوي الكفر بكل شيً وبكل ثابت وبكل رفيع، فلا يقتصدون بعض القصد إن هاجموا وإنما ينطلقون لا تمسك بهم أخلاق ولا قيم ولا اصول، ومن أين لهم بهذا وهم بالله قد كفروا ومن كفر بالله فطبيعي أن يكفر بكل شريف في كل حياة.

فالحاقد كافر لأنه يفقد جميل الظن بالله وجميل الظن بالانسان، والحاقد فاشل يحاول أن يبرر الفشل الذي أصابه بالتنقص من نجاح الآخرين وكل ناجح في الحياة مسؤول بعد الله الذي يكفر به عن الفشل الذي يرزح هو فيه، وهو يأبى أن يرجع فشله إلى خيبته وهو وكسله وإلى مسارعته إلى اللذة العاجلة وإلى بعده كل البعد عن الجد في الحياة وإلى عزوفه كل العزوف أن يبذل بعض جهد أو يرتقي من مراقي الحياة حضيضها ورفيعها وإنما هو دائماً يهبط لأن الهبوط سهل وهو دائماً ينزل لأن النزول يسير.

حتى إذا بلغ أقصى مهاوي الفشل فزع إلى الناجحين يصب عليهم حمم حقده ويريدهم أن يدفعوا هم من نجاحهم ثمن خيبته وفشله.

ويل لك أيها الناجح الجديد من هؤلاء، فإن الفاشلين كثرة وإنما لهم طبول كعزيف الجن إن كنت تعرف ما عزيف الجن والناس تحب أن تستمع إلى القدح أكثر مما تحب أن تستمع إلى المدح.

ولعلك تسأل وماذا أنا صانع بهؤلاء وإني كما أفزعتك مطمئنك.

إنجح وأزدد نجاحاً، وامض في حياتك قدما إلى مراقي الرفعة، واجعل نباحهم موسيقى نجاحك وعزيف جنهم عزف التكريم لتساميك وارتفاعك ولا تلتفت إلى سخيمهم فإنما يقتلهم كبرياؤك بقدر ما يقتلهم صغارهم، ويسحقهم دوام نجاحك بقدر ما يسحقهم ارتكاسهم في أقذر حضيض من الفشل المتعفن بالحقد المسربل بالكفر والزيغ عن الحق والبعيد كل البعد عن لا إله إلا الله محمد رسول الله، جماع إيمان المسلمين وعن قول الانجيل أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم فهم بحمد الله لا يؤمنون بأي دين حتى يؤمنوا بالحب الذي هو أساس رسالات السماء.

مكانك قد ظلمت

لا تعطي الحياة حقاً إلا وترتب أمامه واجباً، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

فإذا كان الناس يقدمون الاحترام للكاتب فهم يرتبون عليه واجبات حتم عليه أن يحتملها فإذا كان كل الناس يستطيعون أن يجلسوا في مقاهيهم ويشاهدوا ويطلقوا الأحكام الجامعة المانعة على ما يشاهدون فإن أحداً لا يستطيع أن يطالبهم بحيثيات لأحكامهم، فهي رأيهم وهم أحرار كل الحرية أن يرضوا عما يشاؤون ويرفضوا ما يرفضون ..

ولكن الكاتب لا يملك هذا الحق المتاح لمن لا يمسك قلماً، فإنه إذا أبدى رأياً تحتم عليه أن يقدم لرأيه الحيثيات فإذا كان حكمه بلا أسباب أصبح في غير حل أن يذيع رأيه.

فليس لكاتب ما أن يكتب في جريدته أن صوت فلانة أو فلان لا يعجبه إلا أن يذكر في تقييم علمي ــ إذا كان بالموسيقى عالماً ــ ولا بد له ما دام قد تعرض لصوت موسيقي أن يكون عالماً بالموسيقى ــ الأسباب التي بنى حكمه عليها، فإن لم يشفع الكاتب حكمه بالأسباب المرتكزة على العلم العميق وقع حكمه باطلاً، ولكن هذا البطلان ــ للأسف الشديد ــ لا يملك المحكوم عليه به أن يستأنفه لدى محكمة أخرى، وإنما هو اعتداء صارخ

على أهم عنصر من عناصر حياته الفنية لا يملك له دفعاً ولا سبيل له أن يرد عن نفسه هذا العدوان الطاغي الجبار الملحق.

فحكم الكاتب المنشور أشد على النفس وأعظم في الأثر آلاف المرات من حكم القاضي في محكمة، لأن حكم القاضي له استئناف ولا استئناف لحكم الكاتب ولأن حكم القاضي يمكن أن يصدر وينفذ ولا يعرف به إلا قلة قليلة بينما حكم الكاتب مشهر معلن على الملأ.

وليس هذا الحديث منصرفاً إلى هذا المثال الذي سقته وإنما هو يصدق على كل حكم منشور سواء كان هذا الحكم على كاتب أو برنامج إذاعي أو تليفزيوني أو طبيب أو مهندس أو محام أو غير هؤلاء جميعاً، فإنه لا يجوز بأي صورة من الصور أن يطلق الكاتب كلمة كأنها أوامر خديوية لا يسبقها ولا يلحق بها أسباب وحيثيات تكون وجيهة غاية الوجاهة قوية كل القوة قائمة على وطائد ركينة حتى يمكن لمن حكم عليه أن يناقشها إذا شاء نقاشها أو يقتنع بها اقتناعاً ثابتاً ينفي عنه الشعور بالظلم.

فليس لكاتب أن يقول لم يعجبني فلان أو لم يعجبني هذا البرنامج ثم يصمت إلا أن يقول هذا في حجرته الخاصة وبين أهله الآخرين أما أن ينشر هذا الرأي على الناس كحكم صادر من السماء فهيهات أن يجوز له ذلك، فإن الله وحده هو الذي يحكم ولا معقب لحكمه لأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهو وحده سبحانه خص نفسه بعلم ما لا يعلم عباده.

أما نحن البشر فنصيب ونخطئ فإذا حكمنا لزمنا أن يصحب حكمنا أسبابه وحيثياته ودواعيه.

كل هذا الحديث أسوقه لما طالعنا به أخي وصديقي الفنان صلاح جاهين من حكم بالغ القسوة وسخرية غاية في العنف على برنامج من خيرة البرامج الجادة التي يعرضها التليفزيون، وهو برنامج حدث في مثل هذا اليوم وقد ركز الاستاذ صلاح هجومه كله تقريباً على صوت مقدم البرنامج الذي اقسم أنني

لا أعرفه وإنما هزني ما صبه عليه الفنان صلاح جاهين من إساءة بالغة لم يذكر لنا أسبابها أو دواعيها.

وصلاح جاهين فنان يدرك ما قد يعانيه المظلوم إذا وقع عليه الظلم، ونحن أبناء جيله تعرضنا جميعاً للسخيمة والأحقاد والظلم وخضنا لأيام بحاراً من دم الحقيقة إلى أن بلغنا ما نحن فيه اليوم من مكان مهما يكن شأن هذا المكان. فأصبح يقع على كواهلنا أنا وصلاح جاهين وأبناء جيلنا أن نصرخ في وجه الظالم مكانك قد ظلمت .. أما أن يقع الظلم منا نحن فهذا ما لا أرضاه لرفيق جيلي وترب طريقي صلاح جاهين.

وما دمت قد رأيت أن برنامج حدث في مثل هذا اليوم برنامج يستحق التقدير وتمشيا مع ما ذهبت إليه من وجوب تقديم الأسباب ينبغي على أن أذكر ما أعجب به في هذا البرنامج فهو برنامج يرد إلينا أيام التاريخ القريب والبعيد في صور، والمعلق عليه يتحدث في صوت جاد لا ميوعة فيه فهو يحس أنه صوت التاريخ ثم هو لا يفتعل هذا الصوت ولا يصطنعه إنما هو صوته الطبيعي فالصوت المفتعل يعرف ولا يخفى أمره، وهو صوت رخيم طبيعي وحتى أكون شريفا في حكمي يتحتم علي أن أرجو صاحب هذا الصوت أن يصحح الأخطاء النحوية القليلة التي يقع فيها أحياناً، وبعد فالله وحده يعلم الدافع لي فيما أكتب وحسب رحاب الله متجهاً وقبلة.

رفض الحقد حب

وافاني البريد بخطاب لاسم أعتقد أنه مزعوم هو عبد الفتاح خيلف المصري، بدأ الخطاب بمديح لي استغرق سطرين أو ثلاثة الله وحده يعلم إن كان مدحاً صادقاً أم يقصد به غير ذلك وكبا به التعبير، على أية حال ما لبث أن انتقل المرسل بعد ذلك إلى ذم وقدح وهجاء فذكرني بأبيات شوقي الخالد :

رفـــعت قيسا فجعلتـــه القمـــر
ثم أغـــريت بقتلـــه الزمـــر
كفعـــل جزار اليهـــود بالبقـــر
براهـــا من العيـــوب وعقـــر

والكاتب يعيب علي أنني اناقش الفكر بالهجوم ثم هو يرى أنني بذلك أشيع الحقد مع أنني أدعي أنني أهاجم الحقد.

وأبدأ فأسأل المرسل، فماذا تصنع أنت بخطابك هذا إلي، ألم تهاجمني هجوماً ضارياً وتدعي أن تلامذتك وهم تلامذتك ترفض منهم ما تقرأه لأديب تقول عنه إنه كبير وأنت في كل هجومك هذا لم تذكر لي سطراً واحداً مما كتبت أنا ومما ترفضه أنت حتى اناقشك فيه وإنما اكتفيت بهذا الذي كتبت والذي أعف بقلمي أن يصفه لقد كتبت أنت دون أي موضوعية ودون حتى أن تكلف نفسك عناء تقديم مثال واحد أعرف به ما أثار نفسه هذه الثورة

وأنت في نفس الوقت تدعي علي أنا أنني غير موضوعي ولو استقام لك بعض منطق لفطنت إلى الصورة التي ترديت فيها.

وخطاب مثل خطابك كثير عليه أن أضعه أمامي وأرد عليه.

وإنما مصيره الطبيعي المحتوم أنت تعرفه وأحسب أن هذا مصير كل ما تكتب، ولكن شيئاً في الخطاب جعلني أقفز فوقه إلى قضية عامة، هي لماذا نناقش الحاقدين وهم حاقدون ولماذا نناقش الملحدين والايمان بالله أرفع من كل نقاش، ولماذا نناقش الشيوعيين الملحدين وانتماؤهم إلى الشيوعية أصبح طريق حياتهم المادية الذي إن تركوه انقطعت عنهم موارد الكسب المالي التي تنسكب عليهم ..

إن كنا نناقشهم لنرد الحاقد إلى الحب، أو الملحد إلى الايمان، أو الشيوعي إلى الوطن فنحن إذن واهمون فما لهؤلاء من عودة.

فالحقد مرض لا يشفيه إلا بارئ النفوس وما كان لبشر أن يبرئوا منه المريض به والملحد كتلة صماء من العفن لا ينفذ إلى قلبها ومشاعرها إلا العلي القدير وحده والشيوعي الملحد اختار طريق الغربة عن الدين والوطن والناس ليكون حرباً على الدين والوطن والناس وينال من أجل حربه هذا الأجر المادي المالي والانضمام إلى فئة تعرف كيف تهلل له وتصفق.

فالحديث إذن حين نسوقه إلى هؤلاء حديثُ غير مفيد ولن يجديهم في شيٍّ ولن يردهم عما اختاره لأنفسهم أو عما اختاره لهم الشيطان أو الشياطين.

وإنما نحن نخاطب الأبرياء من الناس والشباب ونرفض أن يسمعوا من مصدر واحد وباذن واحدة ونضع بين أيديهم الرأي الآخر حتى لا تطغى على أذانهم طبول الزور والتهريج وحتى لا تجلو في أذانهم الألفاظ الجوفاء وحتى لا يميل بهم المنطق المنهار ..

فإنما أمسكنا أقلامنا لنقول بها حقا .. وما كان للحق أن يترك الباطل يعيث فسادا أفلا يرده الرأي الشريف وإنما أمسكنا أقلامنا لنفشي الحب بين

الناس وما كان الحب ليفشو بين الناس والحقد يطلق أصواته النكيرة ويشق حناجره صباح مساء برفض الدين والوطن وإنسانية الانسان.

وأما هذا الغر المفتون الذي كتب الخطاب إلي فحسب كل الحسب أنني جعلت منه مطية لالقي هذا الحديث إلى الناس، وإن كان يريد أن يعرف أين الحقد والقتل وهدم إنسانية الاسنان فليذكر ما كان بمصر قبل ١٥ مايو وليذكر ما كان في المجر من سحق الأطفال والشيوخ والنساء بالدبابات، وليذكر مقتلة مائة وخمسين ألفاً في يوم وبعض يوم هناك وليذكر ما حدث في تشيكوسلوفاكيا ولينظر إن كان على قدر ولو ضئيل من البصيرة ما يحدث اليوم في أفغانستان وليقل لي أو ليقل لنفسه فإنني أرجو ألا يخاطبني بعد وإن خاطبني فلن يجد لخطابه إلا الصمت .. أين الحب في هذه الأمثلة التي أسوقها إليه وماذا نناقش في أعراض تستحل، وأموال تنتهب، وأنفس بشرية وأبدان تسوى بالأرض بفعل الدبابات وحريات تنتهك، وإنسانية يعتدى على كرامتها بوحشية يعف عنها الحيوان.

ليس الحب لفظاً وإنما الحب أولا وقبل كل شيً حق يرعى، وإنسانية تحترم وكرامة تصان، والحب يرفض الحقد، ورفض الحقد أول درجات الحب، ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ فإذا كان مجرد الغيبة عند الله أكل لحم الاخوة موتى فما ظنك بالحقد عنده ..

والله أعد للظالمين ناراً وقودها الناس والحجارة لا يموتون فيها ولا يحيون، وبارئ النفوس جل وعلا هو الأعلم كيف يعامل الحاقدين الظالمين الكافرين الملحدين الخائنين للبشر والأوطان.

وهو نفسه سبحانه من أعد للمحسنين الذين عرفوا الحب بكل معانيه ... حب الله وأنبيائه وحب اخوتهم في البشرية وحب الخير والجمال والاشراف .. والطيبة والسماحة جنات تجري من تحتها الأنهار متكئين فيها على رفرف خضر وعبقري حسان وعلى سرر هناك متقابلين.

والذي أعد نار جهنم والحميم والأسفلين هو نفسه سبحانه الرحمن الرحيم الذي هيأ جنات النعيم والسندس والاستبرق والحلى والأساور من الذهب والفضة والياقوت والمرجان والسرر المتقابلة والتحية هناك سلام ..

تجديف في الهواء

للاستاذ نجيب محفوظ قصة واضحة الرمزية لم يقف عنها ذكاء الكاتب القدير العميق وهي ترسم صورة بيت لعروسين دلفا إليه في ليلة العرس فإذا بأيدي قوم كأنهم من الجن أو العفاريت قد جعلت منه ركاماً وإذا هو على حد تعبير القرآن الكريم يمسي صعيداً زلقا فأثاثه حطام أقرب إلى التراب منه إلى مكونات المنزل التي يعرفها الناس من فرش وأستار.

وتلح على ذهني هذه الصورة وأوغل فيها قدما، وأتصور أن أهل العروسين لا شك قد جاؤا من كل حدب وصوب وتجمع الجيران والمارة ووقفوا أمام تلال الخراب هذه.

أما بعضهم فكان حاسماً حازماً فقبض على المخربين وسار بهم إلى مصيرهم المحتوم، وأما بعضهم فراح يزيل الأطلال في صبر ودأب وعزيمة وأما بعضهم وهم قلة إلا أن أصواتهم عالية مرتفعة فقد وقفوا على أبواب الدار، منهم من يصيح بأعلى صوته أسيفاً على مصير المخربين.

ــ لماذا تأخذون هؤلاء الأبطال إلى هذا المصير، إنهم يحطمون الرأسمالية ويقهرون الترف ويدمرون الفرش الوثيرة والأدوات التي يصنعها الاستعمار وعملاؤه، أولئك الذين يتغذون من عرق الفلاحين والعمال ومن جهد البروليتاريا للاستعمار الغربي ما أنتم يا من قبضتم على المخربين إلا اتباع للاستعمار الغربي وما أنتم إلا البرجوازية المتطلعة إلى طحن البروليتاريا، إننا

نعتبركم أنتم المخربين للبشرية ونحملكم مسؤولية عملكم، وسيكون جزاؤكم وبيلا يوم نتولى الأمر، إننا نشجب قبضكم على المخربين ونشجب محاولتكم إعادة البناء، ونشجب أن تزول هذه الأثار ونشجب أن يعيش أحد في أمان. ونشجب أن يستمتع أحد بالحياة ونشجب أن يطعم إنسان في مكان نظيف، ونشجب أن تكون لكل أسرة أكثر من حجرة، بل إننا نشجب أن يكون لها حجرة وحدها، ونشجب أن يعيش الانسان مثل الانسان فلا بأس مطلقاً أن يكون الانسان مثل الحيوان.

وليتم أربعة أزواج وثمانية أزواج في غرفة واحدة وليكن معهم أطفالهم ولترجع الانسانية إلى العصر الحجري، نشجب أن يكون للانسان سيطرة ما لم يكن مؤمنا مثلنا بالبروليتاريا فإن آمن بالبروليتاريا الكادحة من العمال والفلاحين فلا بأس أن يكون له بدل السيارة سيارتان وعشران أراد وشقة وبيت وقصر إذا أراد لأننا نحن المؤمنين بالبروليتاريا من العمال والفلاحين وحدنا الذين نستحق أن نعيش وليس البروليتاريا فالبروليتاريا على استعداد لأن تهب جهدها وحياتها ودماءها لهؤلاء الذين يؤمنون بها من أمثالنا أما البروليتاريا من العمال والفلاحين نفسها فلتكدح ولتعرق ولتشق ولتعش مكممة الأفواه لا تقول منقبضة الأسارير لا تبتسم مضيقاً عليها في المطعم فلا تأكل إلا ما يقيم الأود وفي الملبس فلا ترتدي إلا ما يستر العورة وليس من الضروري حتى أن يكون ملبسها قادراً على رد البرد أو الحر.

وهذا الحديث الذي أتخيله أتحت لنفسي أن أخلط فيه بين ما يدور في نفس هذه الفئة وبين ما يمكن أن تلوكه ألسنتها، وعند الخيال يستباح خلط همسات النفس وجمجمة اللسان وصراخ الخناجر.

وعلى أبواب الخراب وقفت فئة أخرى تقول : ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ـــ خربوا كل شيْ .. دمروا كل شيْ لم يبق في المكان شيْ ضاع المكان وسكان المكان وانهدت الأركان وانهارت الأمال واختفى من الغد إشراقه وعم الظلام كل مكان واحتوى اليأس النفوس، يا لهول المصاب، لقد خدعنا

حسبناه موسى فإذا هو فرعون .. كنا نظنهم مصلحين فإذا هم فجرة مفسدون، يا لضيعة الأمل بالخراب الديار ..

كل هذا وفي داخل البيت العمل دائب : ازيلت الأطلال وبدأ البناء وتمت انتصارات على الدمار المادي والنفسي وعم المكان سلام والناس تسعى تزيل ما بقي من الأطلال، معظمهم نظيف مخلص صادق مع ربه ومع نفسه ومع الآخرين وبعضهم لص ينتهز من العاملين انشغالهم عنه ويسرق ويتعرفون على بعض اللصوص أو يخادعهم بعض آخرون ولكن العمل ماض والجهد جهيد والعزم شديد، ضربوا بأيديهم أفاق الغد فانشق عن الأمل الوليد، ولكن الواقفين على أبواب الحياة لا عمل لهم إلا صراخ العاجزين منهم فئة يمزقها الاصلاح لأنها فئة لا تعيش إلا على الخراب وفئة تقول حزناً لأنها لا تعرف إلا أن تقول، وفئة تعمل لأن الحياة أقوى من الخراب ولأن الاخلاص هو الأساس في الحياة وما عداه استثناء وتجديف في الهواء.

وبعد فماذا أقصد أنا وماذا يقصد استاذنا نجيب محفوظ، وهل تراه تصور أن يمسك أحد بقصته وينشئ عليها هذا الأثر الذي لا أدري والذي انتظر من صديقي نجيب أن يخبرني إلى أي لون من ألوان الأدب ينتسب، أهو قصة أم هو مقال أم هو حديث يساق أم إيغال في واجهة صورة وفيما تشعه وليس في أعماقها، أم هو هذا جميعاً في إطار واحد ..!!

هيبة كاتب

تأتي الفكرة إلى الكاتب وتروق له ولا يمعن فيها النظر ولا يمعن فيها الفكر وإنما يسارع إلى القلم ويكتبها وقد يظن أنه جاء بما لم يأت به الأوائل ولا الأواخر أو قد يتهاون ويظن أنها مجرد كلمة يقرأها القارئ في بعض من دقائق ثم يرمي بها دبر نفسه فكأنه ما قرأ شيئاً.

ويل للكاتب إن كان هذا دأبه فإن القارئ يرصد على كاتبه كل كلمة يقولها وقد يطالع القارئ كاتبه بكلمة قالها منذ سنوات وسنوات.

والكاتب لا يستطيع أن يذكر كل ما كتبه وخاصة إذا كان كاتباً منتظماً في جريدة أو مجلة، لا عاصم للكاتب ألا يناقض نفسه إلا أن يكون صادقاً مع نفسه هذه فالنفس لا تتناقض، قد يختلف بها الحال من الرضا إلى السخط ومن الاقبال إلى النفور ومن الانشراح إلى الضيق ولكنها في رضاها وسخطها وفي إقبالها ونفورها وفي انشراحها وضيقها تظل كما هي. لا تنماع مقوماتها ولا تتغير دعائمها ولا تختلف القيم الأسياسية التي تتوطد على أطنابها معالمها واتجاهاتها.

والكاتب إنسان قسم الله له أن يكون مرسوم تعيينه صادراً عن السماء وهو مرسوم من مادتين : المادة الاولى صادرة إلى الكاتب كن كاتباً فيكون. والمادة الثانية للقراء إقرؤا لهذا الكاتب فيقرأوا ولا يكون الكاتب كاتباً إلا إذا اكتمل المرسوم بمادته الثانية تلك، فليس هناك كاتب بلا قراء.

وقد كان الكتاب في مصر قوماً يستعينون على إقامة مكانتهم في المجتمع بوظائف اخرى فمنهم من كان يعمل رئيساً لتحرير جريدة ومنهم من كان يعمل موظفاً ويحرص على هذه الوظيفة ومنهم من بلغ كرسي الوزارة على سن قلمه ونال رتبة الباشوية بأدبه. ولكن كاتباً واحداً في تاريخ مصر صمم أن تكون قيمة الكاتب في مصر مستمدة من أنه يحمل لقب كاتب وفقط فما استعان في بناء قيمته بوظيفة ولا سعى إلى رتبة وإن كانت الرتب والنياشين والأوسمة والقلائد قد سعت إليه، ذلك هو استاذنا واستاذ الجيل الذي سبقنا كبير كتاب العالم العربي اليوم توفيق الحكيم.

فكما أنشأ توفيق الحكيم المسرح العربي المصري، أنشأ في نفس الوقت القيمة السامقة للكاتب بما هو كاتب فقط لا بما هو باشا ولا بك ولا بابا هو وزير أو نائب وزيراً ووكيل وزارة.

وعلى نسقه مشى نجيب محفوظ ومشت الأجيال اللاحقة تستمد القيمة العليا لنفسها في المجتمع بلقب كاتب فقط مدركين أنهم يحملون هذا اللقب بمرسوم صادر من فوق سبع سماوات لا يلغيه إنسان ولا يعوقه عن أن يكون حقيقة دامغة لا تقبل الجدل سلطان مهما يكن شأنه ولا جماعة مما تكن كافرة عادية على الحق ولا قوة في الأرض بالغة ما بلغت هذه القوة من جبروت.

وقد مررنا بأزمان عسيرة، ووقف الكاتب الشريف ليكون الضياء الوحيد في حالك الظلمات ولتكون كلمته نور الحق في جانح الظلم وفي جوانح الليالي الداكنة السوداء.

وبهؤلاء الكاتب ظل وجه مصر مشرقاً في طول البلاد العربية وعرضها بل وعلى اتساع العالم والمعمورة أجمع تعلن أن مصر الخالدة الباقية فيها الكلمة الشريفة وفيها من يستطيع دائماً أن يقول الله أكبر على كل من طغى وتجبر فأنا لا أعرف وظيفة في العالم تعدل أن يكون الانسان كاتباً لأن كل وظيفة إنها يصدر الأمر بها إنسان أو جماعة ولكن الكاتب تصدر الأمر بكينونته كاتباً السماء وهيهات للأرض أن تطاول السماء.

إنسان واحد هو الذي يستطيع أن يعزل الكاتب من وظيفته هو الكاتب نفسه لأن الله حين منحه موهبة الكتابة أخذ عليه عهداً غير مكتوب أن يكون شريفاً لا يخادع الناس ولا يقول إلا ما يؤمن به ولا يفشي إلا الخير ولا يدعو إلا لما هو الأسمى والأرفع من قيم الحياة. لقد وهب الله للكاتب قبسة من نوره وما كان لقبسة من نور الله أن تكون خداعا أو مينا أو غشا أو كذبا أو دعوة للسفول أو اعتداء على الحق أو اعتسافا لكرامة الانسان. فإذا خان الكاتب العهد سقط عنه اللقب وأصبح حفنة من تراب الحياة. تراب الموت بالنسبة إليها أمل وأي أمل ومهما يبلغ الكاتب من وظائف فهو إنما يتولى هذه الوظائف ليؤدي واجبه نحو وطنه ولا ينكص عن ندب بلاده له أن يقف في خدمتها في الميدان الذي تريده فيه أن يكون. ولكن مهما تكن هذه الوظيفة رفيعة ومهما تكسبه من سلطان وهيبة. يظل لقب الكاتب أعظم رفعة وهيبة كلمة كاتب لا تلحق بها هيبة.

صورة قصصية .. ملحق البهلوان

لعل القارئ لا يعرف من هو هذا المداح وكيف كان شكله، والحقيقة أنه نموذج بشري قديم مغرق في القدم شهدته أنا في طفولتي الباكرة وكان في ذلك الحين بقية من فئة أوشكت على الاندثار، وكان دأب هذه الفئة أن تمر وفي يدها طبلة تدقها على منازل الأعيان في الريف تنشئ في مديحه القصائد المرتجلة الهزيلة التي تتغنى بكرمه وجوده وأصله وعراقته وطبعاً ليس يهم المداح أن يكون قريباً من الحقيقة أي قرب أو بعيداً عنها غاية البعد إنما المهم فقط أن يمدح ويبالغ في المديح ثم ينال بعد ذلك ما قدر له أن يناله ثم ينصرف مادحاً على أية حال سواء كان ما أصابه وفرا وغدقا، أم كان صبابة هينة لا تساوي ما بذل من جهد ومن نفاق، كان هكذا شأن المداحين وأحسب أن بعض الناس أسموهم في دارج الحديث المطيباتية، وأصبحت هذه اللفظة تطلق على كل منافق في الجلسة أو في الحياة. وهكذا فإنه إن تكن جماعة المداحين قد اندثرت على شكل جماعة فقد اندثرت أفراداً تجوب بنفاقها المجتمعات وتجوب أيضاً الأجيال والأزمان.

وربما تسألني ما الذي أذكرك بهؤلاء جماعات كانوا أو كانوا أفرادا، وربما لا تسألني وإنما أسأل أنا نفسي ولا أبحث عن الاجابة فهذه نماذج من الناس تذكرك بنفسها في إلحاح وإصرار مهما تحاول أن تنشغل عنها. ولكن قد يكون الباعث لي إلى الكتابة عنها اليوم شخص بذاته كلما طالعني اسمه ذكرت فئته واصولها وفروعها شاهت اصولا وذلت فروعا.

مسكين هو، فقد كان في زاوية هينة من زواية الجهل لا يعرفه أحد وإن كان يسعى إلى معرفة كل أحد. وكان يبذل في سبيل تعرفه بالناس ماء وجهه الذي سرعان ما نضب فما هي إلا شخصية أو شخصيتان حتى أصبح بلا ماء وجه على الاطلاق.

وماء الوجه حين يراق ويجف يصبح صاحبه السابق وقد تملك سلاحا لا يملكه من الناس إلا قلة في العالم نادرة .. هذا السلاح السفاك الباتر النفاذ هو الصفاقة، والمقدرة على بيع كيانه البشري ليكون مطية لكل من يريد يركب.

وقد تعرف من لا اسميه هذا على مهرج في السيرك ما لبث أن عرف سره وبلغ إلى الخوافي الحقيقة في حياته، فهو في السيرك مهرج وهو في الحياة مجرم سفاح لص قاتل يستبيح كل الحرمات ويستهين بكل ما هو كريم في الانسانية وقد وجد من لا كرامة له خير ملجأ له عند من لا ضمير له، وتلازما في الحياة المهرج يسرق ويقتل ويثري ويهرج في السيرك وناضب ماء الوجه يطيب له ويكيل المديح ويبرر له كل ما يصنعه من اعتداء على الحياة وعلى الكرامة ومن سلب للاعراض وقتل لكل نبيل في الحياة واستحياء لكل خسيس عفن من جوانبها بل كانا يبتدعان من الخسة والعفن ألواناً لم تشهدها البشرية ولم تسمع بها ولم يتخيل أبناء البشر أنهم سيسمعون عنها في يوم من الأيام، واستطاع مهرج أن يجد لمن لا حياء له وظيفه في السيرك فكان يهيئ للمهرج الساحة ويفرش له الرمال ويضع له معدات التهريج وتعلم من لا حياء له أن يقفز في بعض الأحيان قفزات بهلوانية تخيب في أغلب الأمر فينال عليها الضحك والسخرية والتصفيق الذي يعني الاستهانة والاحتقار ولا يعني — على أية حال — إعجابا أو استمتاعا، ولكنه كان يفرح بهذا التصفيق والصيحات المستهجنة المصاحبة له وصار من لا حياء له ملازماً لمن لا ضمير له عند مشاهدي السير فإن ذكروا أحدهما ذكروا الآخر دون تفكير وإنما كلاهما تهريج يذكر بتهريج وسخف يوحي بسخف وسقوط حياء يرادفه سقوط كرامة.

وتعود من لا حياء له هذه الحياة وجنى منها مالا ما كان يحلم أن يصيبه

أوسع الميادين مجلبة للغنى وانعدام الضمير من أعظم شباك الثراء نجاحاً فإذا واكبه انعدام الحياء أيضاً أصبحت الأموال غدقاً وصار الغنى فاحشاً.

وجاب السفاح المهرج والمداح الصفيق أقطار الحياة وساحا في أرجائها وأصبح اسم كل منهما على ألسنة رواد السيرك جميعاً، وراح يذكرهما في غير تصريح كل من أصابه في ماله أو عرضه أو أصابا أحداً من أقاربه في حياته. وتدور الأيام وإن الأيام دائماً تدور، وذلك أعظم سنن الكون وأرفعها شأنا وأعلاها دستوراً، ومات المهرج، والمهرج هو الأصل والمداح نبات عليه متسلق لا يحيا بدونه ولا يعيش بغير وجوده.

ولكنه صفيق. أصر أن يبقى في حلبة السيرك وحاول أن يتقافز كما كان يتقافز ولكن الجمهور في هذه المرة ثار عليه ثورة جادة لا هزل فيها، وأعاد هو المحاولة في يوم تال، ثم في أيام توال، ولكن الجمهور أصر أن يظل ثائراً به لا يريد أن يرى إليه ولا يجد في وجوده بالحلبة أي معنى، فقد كان قطعة مكملة لآلة مضحكة وقد هلكت الآلة فما معنى بقاء هذه القطعة المكملة لها. كان يمكن أن تصلح الآلة بغير القطعة ولكن هيهات أن تصلح القطعة بغير الآلة.

رفضت الحياة وجهه الصفيق وأبعدته عن الحلبة قصيا زريا كالكلب لا يحب أحد أن يراه ولا يشتهي أحد أن يذكره.

ولكن المسكين كان قد تعود أن يتقافز في الحلبة ونزل عليه أبعاده عنها نزول الصاعقة وإن كان من ماله الذي انتهبه في بحبوحة وغنى ولكن المسكين كان قد تعود مع المال التصفيق الساخر والصيحات المستهينة.

وهو اليوم يريد أن يتقافز ولكن الحلبة الكبرى قد أغلقت دونه، وهكذا لم يعد غريباً أن يراه الناس في بعض الحارات والأزقة يقوم بحركاته البهلوانية الفاشلة ويتجمع حوله بعض المارة، فأما من يتبين ماضيه فينصرف عنه راضي النفس سعيداً أن الزمن دار وأن ملحق البهلوان قد صار إلى هذا المصير. وأما من لا يعرفه وهم الكثرة فما هي إلا نظرة عابرة يلقيها إليه ثم ينصرف عنه وكأنه ما رأى شيئاً.

خلقه .. فسواه .. فعدله

يقع كثير من الناس في خطأ فادح حين يقسمون الناس إلى طبقات ويطلقون على كل طبقة أحكاماً عامة وكأنهم فصائل من البقر والماشية يصدق على الوحدة منها ما يصدق على المجموع والفضل في تصنيف هؤلاء البشر يرجع إلى النظرية الشيوعية فهي التي تشابه البقر عليها وجعلت البشر وهم البشر فصائل من خشب وحديد. فالنظرية لا تعترف بالروح ومن ثم فهي لا تعترف بإنسانية الانسان. وكل غني شرير سافل مستغل وكل فقير شريف نبيل مظلوم.

ويأبى الواقع هذا، فأنت تجد بين الأغنياء الشريف واللص، والنبيل والسافل والكريم والخسيس، وتجد هذا التباين نفسه في كل فئة من فئات المجتمع بل إن الاسرة الواحدة التي يعيش أفرادها في ظروف اجتماعية واحدة يخرج الأبناء فيها لكل ابن خلقه الخاص وأفكاره التي ينفرد بها لا يماثله فيها أحد. وتجد فيها الابن اللص وتجد فيها المتطرف في الشرف الذي يرفض أن يحيد عنه قيد أنملة. وتجد في الأسرة الفتاة المستهترة وتجد فيها الفتاة المغالية في المحافظة على القيم والأخلاق إن كانت هناك مغالاة في المحافظة على القيم والأخلاق.

والتركيبة الخلقية هذه عجيبة في شأنها فهي كملامح الوجه لا تعرف كيف تكونت مقوماتها. فكما تجد في الاسرة الأسمر والأبيض وخشن الشعر وناعمه وتجد ذلك التباين في الأخلاق أيضاً.

وتطالعك الحياة بأشياء مذهلة، فالحقد كما يقول العلم وكما تقول طبيعة الأشياء لا يكون إلا من إنسان يشعر بالصغر إذا قارن نفسه بإنسان آخر فيشعر المفضول بالحقد على الفاضل وكثيراً ما يشعر بالحقد على المفضل الذي وهب له من الخيرات ما لم يكن يتوقعه.

ولكن رأيت حاقدين وهب الله لهم الثراء العريض والشهرة البعيدة والهناء العائلي وفضلهم على كثير من نفس فئتهم وجيلهم.

ولكنها تركيبة النفس هذه التي لا يعرف أحد كيف تتكون ولا لماذا ولا يستطيع أي عالم في الاجتماع أو في النفس أن يجد لها السبب المقنع أو الرأي الفصل.

وما بعجيب أن يفضل بعض الناس بعضا في الرزق فكذلك خلقهم الله، يقول سبحانه وتعالى في سورة الزخرف الآية ٣٢ ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون .. ﴾

تعاليت يا سبحانك وتقدست الاؤك، أترى كيف ينهي الآية بأن رحمة ربك خير مما يجمعون، فالتفاوت في الرزق لا يكون إذن إلا هنا في هذه الحياة الدنيا وليس في العليا .. أما هناك فرحمة ربك خير مما يجمعون ولا يرتفع بعض فوق بعض في درجات أو درجة، وإنما تشملهم جميعاً رحمة ربك في كريم سيبها، فلا سيد هناك ولا مسود ولا مسخر ولا مسخر له .. إنما هي رحمة ربك فحسب ..

وتحاول أن تجد في الحياة الدنيا نظاماً يمكن أن يسير بغير رئيس ومرؤوس فلا تجد. وتجد هذا النظام في أبشع صوره وأبعدها عن الانسانية في البلاد الشيوعية، فرئيس الحزب هناك هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر متعسفاً غاية التعسف ظالماً كل الظلم، واضعاً نفسه في مكان رحمة السماء التي تعطي فلا تعطي إلا بالعدل الالهي وتقدر الرزق فلا تقدره وتجعله قليلا أو ضئيلا إلا بالميزان الأعلى من القسط الأوفى من رحمة عالم رحيم متعال.

ولكن الشيوعيين يقولون ما لا يفعلون ويدعون ما لا يعملون فيطالبون بالعدل للكادحين ثم يسحقون هؤلاء الكادحين ويطالبون أن يكون الحكم للطبقة العاملة ثم يلقون بأثقال أحزابهم في مختلف الدول الشيوعية على هذه الطبقة أفدح ما يكون الأثقال.

ويحاولون مع ذلك أن يجتذبوا إليهم هذه الطبقة العاملة في الدول التي لم يصبها وباؤهم بالألفاظ الجوفاء وبالخطب الرنانة وبالمنشورات الكاذبة.

ويتساءل بعض قوم فلماذا لا يستطيعون مع كل هذه الجلبة وهذا الضجيج وهذه الأماني التي يزينون بها نظريتهم أن يجذبوا إليهم العمال في كل أنحاء العالم وخاصة البلاد التي لا يحظى فيها العمال بتلك الاجور العالية التي ينالها عمال العالم الرأسمالي. والأمر لا يحتاج إلى أعمال فكر ولا إلى أنعام نظر فإن الايمان بالله يقف دائماً حصناً منيعاً ضد الشيوعية في جميع أنحاء العالم ولا أقول في مصر وحدها. فقد رأيت في بولندا طاقة من الايمان لم أتصور أن أجدها في بلد قط.

أما في مصر ذات الألف مئذنة يقدمها مئذنة الأزهر الشريف ومنارته فهيهات للشيوعية والالحاد أن تجد فيها مراحاً أو مرعى خصيبا كان هذا المرعى أو غير خصيب، وإنما ستظل نبتا شائها في مباءة عفنة من الكفر والاعتداء على كل نبيل وشريف في حياتنا وسيظل الصائتون بها جماعة من المهازيل الهذاة ينشؤون الخرائب وينعقون فيها وتبقى مصر مشرقة الأفق مضيئة الجنبات بـ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » بل وبأجراس الكنائس وحرص المسيحي المصري على دينة وعلى إيمانه وعلى أخوته من أبناء وطنه.

واخرى تقف كالصرح المريد أمام أكاذيب الشيوعية والشيوعيين تلك هي الحقيقة التي اتضحت معالمها عند تطبيق النظرية وحسبك نظرة عابرة سريعة إلى عدد الهاربين من جحيم الشيوعية إلى البلاد التي يسود فيها القانون الالهي والقانون البشري، وأذكرك بذلك القطار الذي جمع فيه سائقه عشرات ممن خنقت الشيوعية أنفاسهم وسار القطار حتى بلغ تلك الجدار الذي يفصل بين برلين الشيوعية والتي يسمونها الديمقراطية ـــ تمحكا في الديمقراطية وتمحلا

ـــ عن برلين الغربية وإذا بسائق القطار يدخل بقطاره وبمن معه في الجدار نفسه معرضاً نفسه وصحبه لموت الصدقة مفضلاً ومفضلين الموت عن تلك الحياة المقيتة التي تجثم على إنسانيتهم في الحكم الشيوعي، وما حدث في تشيكوسلوفاكيا وما حدث في المجر وما يحدث اليوم في بولندا كل هذا واشباهه كثير أثبت لعمال العالم أن وعود النظرية الشيوعية كذب واهم لا تعرف الحق ولا يعرفها الحق، والذين يقاومون الشيوعية شباب وكانت قبلتهم أجيال أخرى قاومتهم وأذكرك بكتاب كرافتشتكو الشهير «أثرت الحرية» ولكن هؤلاء المقاومين ليسوا جيلا بأكمله فالحياة لا تعرف التماثل في الأجيال وإنما تجد في الجيل الواحد الجسور الجريئ وتجد الخانع الخائف وهكذا لا تنطبق صفة واحدة على جماعة بأكملها أبدا فالله سبحانه شاء برفيع حكمته أن يلزم كل إنسان طائره في عنقه.

وما دام الأمر كذلك وهو كذلك فكل فرد في كل جيل له مقوماته وله معالمه الخلقية الخاصة به وإن كانت بعض أوضاع سياسية قد أنشأت بعض قيم فاسدة إلا أن الخير بقي خيراً والشر بقي شراً وليس هناك أحد لا يعرف الخبيث من الطيب ولا الحلال من الحرام. وإن بين الشيوعيين أنفسهم وهم من أنكروا الله وهو الله من ترغمه الانسانية أن يكون شكورا إذا مسه خير من انسان ومن لا يستطيع أن يجحد المعروف إذا نال معروفا. مع أن النظرية تحذرهم أن يخدعهم غير الشيوعيين باللمسات الانسانية فيصرفوهم عن مذهبهم الدموي الذي لا يعترف بتفرد الكيان البشري إلا أن بعضا منهم مع ذلك لا يستطيع أن يتخلى عن إنسانيته ولا يطيق أن يجحد الفضل للمفضل وهكذا فيحطمون هم أنفسهم بتصرفاتهم فكرة أن الطبقة ينطبق على الفرد منها ما ينطبق على الجميع وأن الجيل بأكمله يصدق على الواحد منه ما يصدق على الجيل بأسره بل أن الحزب الشيوعي أثبت ما أثبتته جميع أحزاب العالم أن ما يتصف به أحد أفراد الحزب ليس من الحتم أن يتصف به جميع أفراد الحزب حتى وإن ربطت بينهم بعض مبادئ أو أفكار خاصة وأن الحزب الشيوعي والأحزاب المتطرفة عامة تمثل عند من يقتنع بها دون دافع مالي أو نفع شخصي فكرة أكثر مما تمثل عقيدة.

فهي عند غير المنتفعين قطعة زمنية من المراهقة الفكرية ما يلبث الفتى إذا شب عن طيش الشباب ورعونته أن يرتد عنها. فالانسان رغم أنف الشيوعية يتأثر بسنه وبثقافته وقد يترك أقصى اليسار أو أقصى اليمين إلى موقف عادل في الحياة يتعمقها ويبلغ من أسرارها وجذورها ما يجعله إنساناً سوياً كما أراده الله أن يكون فهو سبحانه الذي خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه؟

ان الحق قديم

كانت جريدة المصري جريدة وفدية فكانت مثلاً عالياً للصحف الحزبية كيف تكون، لم تساند حزبها يوماً على الظلم بل كانت تقف منه موقف المعارض إذا أحست يوماً أنه جار على الحق، ويوم حاول بعض النواب الوفديين استصدار قانون من البرلمان بتقييد حرية الصحافة وقفت جريدة المصري الوفدية صارخة في وجه حزبها رافضة القانون في عنف حاسم حتى اضطر مجلس النواب الوفدي أن يطوي القانون فلا يصدر.

وتستكتبني جريدة المصري وأبى سكرتير عام حزب الأحرار الدستورين ومن والد خصوم الحزب الوفدين إن لم يكن والد خصومه. واكتب بها وأنا طالب بالحقوق وأظل أكتب بها إلى أن أغلقت أبوابها قسراً فلم تمنع في يوما كلمة سواء كان ذلك قبل الثورة أو بعدها وسواء كان تلك وأنا طالب أو أنا محام.

وتقوم الثورة وكانت يوم قيامها أمل شعب خيم عليه اليأس، ورجاء أمة انقطع عنها الرجاء، وتقف جريدة المصري مؤيدة الثورة يوم ميلادها وهي تترجح يوم ذاك بين النجاح والسحق والملك لا يزال جاثماً بجبروته على العرش .. وتظل جريدة المصري تؤيد الثورة التي أعلنت في بيانها الأول أنها قامت لتحافظ على الدستور وترد عنه المتلاعبين به المعترين عليه، فحين وجدت جريدة المصري أن الثورة ألغت الدستور وجنحت من الديمقراطية إلى الديكتاتورية وقفت تعارضها بنفس الشجاعة التي كانت تؤيدها بها فإذا

بالأهوال تطالعها من كل حدب وصوب وإذا بالقوانين تصدر خصيصاً لمصادرتها ثم تصدر قوانين أخرى تصادر أموال أصحابها وكل ما يتملكون حتى الصور الفنية التي كان يقتنيها كبير اسرة أبو الفتح المرحوم محمود أبو الفتح.

ويسارع الاخوة الثلاثة إلى خارج البلاد محرومين من مصر ومن قريتهم كفر الشهداء التي أطلق عليها هذا الاسم لكثرة الشهداء الذين قدموا أرواحهم فداء للوطن في عهد الاحتلال وقتلوا بيد الانجليز المحتلين، وأخشى أن يصبح منها اليوم شهداء بيد المصريين.

ويأتي عهد السادات وتعود الحرية إلى مصر ويعود إلى حضنها حسين وأحمد الباقيان من الاسرة بعد وفاة عميدها غريبا عن تراب مصره . ويأمر السادات فتفتح الجرائد صفحاتها لأحمد أبو الفتح ويكتب ولا يزال يكتب مقاله الاسبوعي في جريدة أخبار اليوم ولكنه يأبى في كبرياء الرجال وفي عفة صاحب الحق أن يذكر مأساة أسرته التي لم تسترجع من أموالها شيئاً، بينما نال الجميع بعض حقهم ونال آخرون كل حقهم، ونال غير المصريين أيضاً بعضاً من حقوقهم إلا أسرة أبو الفتح هي وحدها التي لم تنل من أموالها شيئاً لأنها هي بالذات صدرت لها قوانين خاصة تحرمها من حقوقها، وقد قال القاضي الذي حاكمها وأصدر عليها أحكامه وهو عضو بمجلس الثورة في مذكراته أن رئيس الجمهورية أصدر إليه أوامره بنص الحكم فإن كان صادقاً فالحكم باطل منذ صدوره وإن كاذباً فالحكم أكثر بطلاناً لأنه صدر عن قاض يختلق على رئيس الدولة ما لم يأمر به وهو بهذا الاختلاق يحاول أن يعتذر عن حكم أصدره وهو غير مقتنع به.

وأنا اليوم أخاطب الدولة ولا أخاطب القضاء لأن القضاء أرفع من أن يخاطبه أحد على صفحات الجرائد وأكثر رفعة أن يخاطبه أحد بأي صورة أخرى في غير ساحته ولكني أخاطب الدولة التي استولت على المال أن ترد ما ليس لها بحق واذكرها بالكلمة الخالدة أن الحق قديم والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

واذكر واقعة لشيخ القضاة عبد العزيز باشا فهمي وهو رئيس محكمة النقض فقد عرضت عليه قضية ملخصها أن شخصاً دخل إلى حجرة نومه فوجد مع زوجته شخصاً غريباً في فراشه فأخرج مسدسه وأطلق عليه النار فأخطأه وسارع المعتدي إلى مسدسه وأطلقه على الزوج وكان أحكم تصويباً فقتل الزوج. وحين قدم القاتل الزاني إلى محكمة الجنايات حكمت ببراءته، فجريمة القتل دفاع عن النفس في أوضح صورة للدفاع عن النفس وجريمة الزنا لا يقيمها إلا الزوج والزوج مات قتيلا وعرضت القضية على محكمة النقض ونظر العالم الجليل عبد العزيز باشا فهمي القضية واستهول الجريمة واستهول الحكم فرفضه وقال في الحيثيات إن المشرع حين وضع هذه القوانين لم يكن يتصور أن يعتدي شخص على شرف آخر وحياته وينجو من القصاص ولهذا فإنني سأرجع إلى القانون الطبيعي وأصدر حكمه على المتهم بالسجن عشر سنوات.

فإذا كان شيخ القضاة أبى أن يطبق القانون الذي يشوبه أي بطلان شكلي مرتئياً أن الجريمة التي وقعت لم يتحسب القانون أن تقع، ومرتئياً بضمير القاضي العظيم المشرع أن القوانين إنما تصدر لتحقق العدالة، فالعدالة هي غرضها الأسمى وهدفها الأرفع فإذا هي قصرت أن توقع القصاص على من يستحقه تركها ورجع إلى العدالة في مفهومها العلوي وطبقها.

فما الخطب إذا كانت القوانين التي انتهبت أموال اسرة أبو الفتح صادرة عن انتقام لا عن عدالة وما الخطب إذا كانت الدولة هي التي استولت على هذه الأموال، فلو أن هذه الأموال انتقلت إلى أفراد وتعلق بها حق مكتسب لأصبح من العسير أن ترد. أما والدولة هي التي أصدرت القوانين الجائرة أفليس من الطبيعي إذن أن ترد الدولة حقوقهم التي لا يمنع ردها مانع عملي ويصبح شأنهم شأن جميع الذين خضعوا للحراسة ثم استردوا من حقوقهم القدر الذي لم تتعلق به حقوق جهات اخرى، أوليس من الطبيعي أن تبادر الدولة فترد الظلم والمقت عن رعايا لها لم يقدموا لمصر إلا التضحية والشرف والصدق وأمانة الكلمة.

والاعتداء على المال قريب كل القرب من القتل، فكيف يجوز للدولة أن تمنع إنساناً أصاب مالا حلالا شريف المصدر أن يمارس حياة كريمة هو جدير بها.

فالدولة خصم شريف فإذا رأت الدولة أنها أصابت من المال ما ليس لها بحق فإن عليها أن تعيد الحق إلى صاحبه دون حاجة إلى القضاء وخاصة والدولة تعلم أن الفترة التي سبقت حكم السادات كانت القوانين تصدر فيها لمحاربة الأفراد غير ناظرة إلى المجموع وليس فينا من ينسى القانون الذي صدر خصيصاً لمنع وزير خرج من الوزارة مغضوباً عليه أن يعمل في أي بلد عربي قبل مرور سنوات خمس، وكان القانون ينص على أن يجعل الوزير السابق يتكلف الناس ليحصل على لقمة العيش، وقد وجد العدل في عهد السادات منفسحاً من الحياة لم يكن متاحاً له فيما سبقه. وفي عهد حسني مبارك يسود العدل كل مرافق الحياة وها هي ذي المعارضة تقول ما تشاء دون قيد عليها ولا رقيب وما الحرية إلا العدل أفليس من حق هذه الاسرة التي قدمت حياتها في سبيل مصر وأنفقت أموالها في سبيل الرأي الذي تعتنقه أن تنال الحق الذي اغتصب منها قهراً قاصفاً عاصفاً.

وقد اختلف مع الاستاذ الكبير أحمد أبو الفتح في بعض ما يكتب بجريدة أخبار اليوم وقد أرى أنه يطالب بأشياء أن قبلها التفكير الأمثل فإن طبيعة الحياة في مصر اليوم ترفضها ولا تطيقها ولا تحتملها وقد تحمل في باطنها من الوبال ما لا يتفق مع ظاهرها من بريق ولكني احترم كل كلمة يقولها لأني أعرف أنها صادرة عن ضميره وحده، ولا يبتعثها دافع شخصي ولا يبتزها إغراء دنيوي، وحسب الكاتب شرفاً أن يكون كذلك ..

قصتان في قصة

الجراء .. !

الجراء جمع جرو والجرو صغير كل شيء ولكنه غلب على أبناء الكلب، والجراء في الكلاب تتعلق بذويها تعلق الخائف من المجهول والحرص على الحياة مقدرة أن ذلك الكلب أباها وتلك الكلبة امها تستطيعان أن يحمياها مما لا تعرف وفي الجراء غباء فهي ترى أباها مزجوراً مدحوراً تنهال عليه الحجارة ويزجره الناس ويرغمونه على الابتعاد عنهم ولكن الجراء لا تقدر ما يلاقيه أبوها من هوان، فهي تظل متشبثة به متصورة أنه الأسد الهصور الذي يستطيع أن يرد عنها عادية الزمان والطبيعة .. عجيبة في تكوينها فكما تشاهد هذه الجراء في الكلاب تشهد أمثالها فيمن نطلق عليهم أدميين، وإن كانت صلة الدم تجمع بين الجرو والكلب والكلب وأبيه فإن صلة عجيبة طالعتني في كتاب أقرأه تجمع بين بعض الناس وبين الناس. ولقد ذكرتني هذه الصلة العجيبة بأسرة كلاب في قرية قريبة من قريتنا غزالة بالشرقية فإن بها كلباً كان يعيش عيشة مرفهة في بيت عمدة وهذا العمدة كان قاطع طريق كون ثروة ثم حلا له أن يكون ذا سلطان فترك قطع الطريق غير الشرعي ورشح نفسه عمدة فأصبح قاطع طريق شرعياً يفرض الأتاوات على أهل البلد جميعاً يعززه سلطانه وتحميه سمعته القديمة ترتعد لها الفرائص من الرعايا فيقدمون الأتاوات عن يد وهم صاغرون.

وكان في بيت العمدة كلب وكان هذا الكلب مدللا حسن المأكل مخيف المظهر جشع المطلب، تزوج كلبة من القرية وأنجبا معا عدة جراء وظلت

الجراء متعلقة بأبيها وأمها في طفولتها وما في ذلك عجب وليس فيه ما يدهش، ولو أن الأمر اقتصر عند ذلك ما خرجت سيرة هذه الاسرة الكلبية من قريتها لتبلغ قريتنا وتتناقل القرى الاخرى أمرها في دهشة وعجب.

فطبيعة الجراء أنها إذا شبت عن الطفولة وأصبحت كلابا صغيرة راح كل منها يبحث عن مراحه الخاص ومأكله وملعبه، إلا اسرة هذا الكلب، فقد استطابت العيش في بيت العمدة وألهمها ذكاؤها أنها إن تركت هذا البيت فإنها لن تجد ما تنعم به من عيش خفيض وطعام وفير وملاذ لين. ومرة اخرى لا عجب في هذا فقد يكون حرصهما على المطعم وخفض العيش سبباً أن تبقى بجانب أبيها وامها، ولو أن الأمر اقتصر عند ذلك لما بلغ قريتنا ولا تناقلته القرى الأخرى ولكن ما حدث بعد ذلك هو ما جعل اسرة الكلاب هذه احدوثة المنطقة جميعاً وهو ما جعلني أنقلها إليكم. لقد مات العمدة وتولى العمودية رجل آخر من أعيان القرية وأصبح الكلب المدلل كلباً أجرب يتلمس رزقه مما تلقي به البيوت على أكوام السباخ وفي الأزقة وفي زرائب المواشي، ولكن الناس كانوا يردونه على هذا الرزق ذاكرين ما كانوا يلاقونه من خسف على يد صاحبه السابق، إنما الغريب حقاً الذي دعاني أن أقص عليك هذا النبأ أن الجراء التي كانت تلازمه جراء ثم كلاباً صغيرة في بيت العمدة السابق كبرت وأصبحت كلاباً كبيرة وأصبح من الميسور لها أن تتوه وسط كلاب القرية فلا يزجرها زاجر ولا يردها كاره لأبيها ولكنها مع ذلك أصرت أن تظل ملاحقة لأبيها في دورانه على أكوام القمامة وأخلاف البهائم. مسكينة هذه الجراء لقد أصبح الرزق في عقولها القاصرة مرتبطا بأبيها حتى وهو في هذه الحال من الضنك التي صار إليها.

وحين يتناقل أهل قريتنا هذه العجيبة يمصمص الرجال الحكماء شفاههم قائلين إن الكلام ترعى صلة الدم واصرة الرحم، ولست أدري — فما سألت — ماذا ترى يقول علماء الحيوان والأجناس عن هذه الظاهرة.

إلا أن العجب عندي زاد أضعاف أضعافه، وأنا أقرأ في هذه الأيام في كتاب عن المماليك فقد نبتت من ثنايا الكتاب قصة قريبة من قصة الكلب

والجراء في بعضها وتفوقها غرابة في بعض منها آخر. فإن تكن وشيجة الدم واصرة القرى عذرا عن الكلب وأبنائه فأي اصرة ووشيجة تفسر ما قرأته في هذا الكتاب الذي يروي عن مملوك طغى وبغى وعدا على الناس كل عدوان، وكان له تابع يجمع عنه المال معملا السوط في جمعه، وكان هذا التابع يشتري للمملوك عبيداً يخدمونه وكان يغري هؤلاء العبيد بالمال حينا ويرعبهم بالسوط حيناً آخر، وأصبح للمملوك والتابع عبيد كثيرون يدينون بولائهم لصاحب السوط وكيس النقود وإن كانوا معزولين عن المملوك نفسه فقد كان المعاون هو الصلة بين الأوامر منه والتنفيذ منهم.

ويقول الكتاب إن المملوك مات وإن التابع انزوى في بيته خاسئاً مغلوباً على أمره وان المملوك الجديد أصدر أمره فحرر كل العبيد الذين استذلهم التابع النخاس بسوطه وماله.

وساح العبيد السابقون أحراراً في معاشهم ومنهم من أصاب مالا ومنهم من أصاب مكانة، ومنهم من افتتح مقهى ومنهم من تاجر في غلال، وحاول كثير منهم أن ينسى تلك الأيام التي كان فيها عبداً مهيناً يساق بالسوط ويستذل بكيس النقود.

ولكن الكتاب يقول في اندهاش مذهول، إن بعض العبيد مع أنهم أصابوا الغنى وبعضاً منهم آخر أصابوا المكانة وبعضاً ثالثاً منهم أصاب الأمرين معاً ما يزالون يلوذون بالنخاس صاحب السوط والكيس مع أن السوط زال عن يده والكيس الذي عنده ينفق منه على نفسه وعياله ولا ينفق منه على أحد ممن كانوا أتباعه ويصرون على أن يظلوا أتباعه، ويعجب الكتاب الذي أقرأه أتكون العبودية عند بعض الناس غريزة فعالهم لا يعبدون الله الذي في عبادته سيادة للانسان وشرف ويستذلون رقابهم فيعبدون من كان بالأمس يمزق جسومهم وكرامتهم وإنسانيتهم بالسياط ويجعلهم يصبصبون وراءه بذيولهم إذا أبدى لهم الدينار.

أتكون عبودية الفرد نوعاً من الأمراض عند الأذلاء الذين هانوا على اناسهم فهانوا على الناس.

والكتاب قديم فهو بطبيعة الحال لا يستطيع أن يتقصى هذه الظاهرة تقصي العلماء، فما كانت العلوم النفسية قد ظهرت عندما صدر هذا الكتاب ولكن الذي لا شك فيه أن أطباء النفس اليوم يرون هذه الظاهرة حولنا في كثير من الأحيان فالنفس البشرية لا تتغير وما كان يحدث في عصر المماليك لا بد يحدث في مصر اليوم، أم ترى أكون أنا بعيداً عن هذا البحث ويكون الأطباء قد أوسعوه تنقيباً وتعمقاً وأنا عن بحوثهم بمعزل؟! ربما كان الأمر كذلك، وربما كان هذا هو السبب في مشاركتي للدهشة المذهولة التي تلبست صاحب الكتاب الذي يروي هذه الواقعة.

وأعود إلى نفسي قليلاً وأذكر أثرا من الآثار العربية الخالدة أردده كثيراً وكان قائله يستشرف من وراء السنين هذا الذي وقع في عصر المملوك والذي قد يكون واقعاً في اليوم في مصر في عصر الذرة، يقول الأثر :

« الذليل بغير قيد متقيد، كالكلب إذا لم يسد بحث عن سيد »، أو ليس من التوفيق أن يجمع لك هذا الأثر القصتين اللتين رويتهما عليك، فكأنما صاحبه قاله لأختم به هاتين القصتين فإن لم ترض عن تسميتهما قصتين فليكن الأمر حديثاً أسوقه إليك لا أكثر ولا أقل.

الصدق الفني .. في ديوان جديد للشاعر علي الفقي

الشاعر علي الفقي من ذلك الرعيل النابه من الشعراء الذين حملوا الراية بعد الخالد شوقي ذلك الجيل الذي ازدهرت به سنون الأربعينات والخمسينات والذي لا ننسى منه ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وصالح جودت وغنيم وابو فاشا ومخيمر وعبد العليم عيسى ومحمد مصطفى حمام ومحمد الأسمر وعبد الفتاح مصطفى ومصطفى عبد الرحمن والمهدي مصطفى ومحمد عبد الغني حسن وأحمد الغزالي، وقد كان من الطبيعي أن يتصدر هؤلاء الكبار وزملاؤهم ممن لا تعيهم الذاكرة الصدارة في الشعر العربي لولا أن طغى على الأدب العربي والصحف المصرية لون مائع من الشعر واللغة وحاول أعداء العربية — وما لي لا أقول أعداء الدين — يطمسوا معالمها بلون من الشعر الذي لا يدري لنفسه أصلا ينتمي إليه فلا هو إلى عربية انتسب ولا هو بأعجمية اتصل، وران هذا الوجه الممسوخ على الاسلوب الأدبي جميعه وأصبح كثير ممن يدعون الأدب يكتبون بلغة العيى أو العيان وهو كما يقول القاموس من لا يستقيم لفظه وهكذا تميع الأدب العربي في موطنه وتاه في البلد الام وأصبح غريباً بغير دار تحميه ولا قلم يقف بجانبه ولولا الشامخون من أجيال الطليعة مثل طه حسين والعقاد وهيكل والزيات وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وتيمور والمازني ومن جاء بعدهم مثل نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله والسحار لأصبح مصير النثر كمصير

الشعر ولانفصل الكاتب العربي عن القارئ العربي ولكن الله يرفيع حكمته أراد لهذه اللغة التي هي لغة قرآنه أن تبقى وإن رغمت من الأنوف أنوف.

واليوم أكتب عن شاعر ألزمته الظروف أن يظل صامتاً فترة طويلة يغريني بالكتابة عنه إنه شاعر كبير حجبته سنون العدوان على العربية وأجبرته أن يقل من النثر ويغريني أيضاً هذا السيل من المكالمات وبرقيات التهنئة والخطابات التي انهالت علي بعد ان كتبت مقالي عن الظلم الذي وقع على اسرة أبو الفتح حتى لقد أرسل إلي محام رفيع الاسلوب شريف اللفظ يقول إنه لا يعرف اسرة أبو الفتح ولكنه يعرف الظلم الذي تعرضوا له .. وكان يريد أن يكتب مستصرخاً الحكومة أن ترفع عنهم ما وقع بهم من عنت وجور ولكنني كفيته مؤونة الكتابة.

وليس هناك كاتب لا يسره أن يجد لما يكتبه صدى أو بعض صدى مهما علت السن بهذا الكاتب ولكنني في هذه المرة تملكتني النشوة وغمرتني البهجة أن مصر تعرف الحق وأن أبناءها يرفضون الظلم ويمحقونه وأن مصر تعرف لصاحب الفضل فضله وتعرف لغير الشريف ذلك وهو أنه وان ابناءها اذا صمتوا فإنما يصمتون في انتظار العدل لا جهلا منهم بهذا العدل. وقد كنت حين كتبت هذه المقالة التي جعلت عنوانها أن الحق قديم أُظن أنني أخاطب الحكومة وحدها فليس غريباً إذن إن تتملكني النشوة وتغمرني البهجة حين وجدت نفسي أخاطب الانسان في مصر أو إن شئت فقل في كل مكان.

ولهذا فأنا أكتب عن هذا الديوان « في غياهب الحب » راجياً ألا يكون حديثي إلى الادباء وحدهم أو الشعراء وحدهم وإنما إلى بني العربية كلهم ليعرفوا أن بين ظهرانيهم شعراء وكتابا شرفاء لم يلوثوا قلمهم يوماً بكلمة نفاق وانهم إذا كانوا قد ارتضوا لأنفسهم أن يختفوا عن الساحة فلأنهم وجدوا في الاختفاء كراماتهم وصونا لشرف كلمتهم واعلاء لضمير الفنان بين جوانحهم.

والشاعر علي الفقي شاعر على دراية واسعة بلغته تجد الألفاظ في أبياته مستقرة مستريحة ساكنة ثائرة وتحس أن الشاعر لم يرغم كلمة أن تنسلك مع إخواتها وإنما الألفاظ عنده نمير متدفق سلسل المجرى عذب النغم نفاذ إلى

صميم الوجدان بسحر الشاعرية وبالقدرة الفائقة التي أتاحها الله للشاعر العظيم.

اسمعه يقول :

كفكفـــي يا نفسِ دمــــع النـــــدم
ليس يأسو الجــــرح طول الألـــــم
وأهدنـــي لا تعجبــــي من عاطـــــل
عن قــــدرا، وهــــو دون الحلـــــم
اصمتـــي لا تنطقــــي عن جاهــــل
صار بيــــن النــــاس رب القلـــــم
ولئيـــــــم مسرف في غيـــــــه
ملك الأمــــر، ولــــم يرحــــم
وانظـــري حولك كم من ملهـــــم
واصرخـــي يا ليتـــه لم يلهـــــم

واسمعه يقول في كبرياء الشاعر واعتزازه :

ومـن الظلــم أن ننــام علــى الظلــم
ونــــغض عن كبريــــات الكبائــــر
ومـــن العجــز أن نسلـــم طوعـــا
والمنايــــا من حولنــــا والمخاطـــر

ويضيق الشاعر بالحقد والحاقدين فيصيح بهم :

يا عدو الحيــاة كانت كمــا شئنـــا
صفــــاء، ورونقــــا، وابتسامــــا
تتلاقى فيهــا القلــوب علــى العــود
وتسمـــو حبــا، وتصفـــو وئامـــا
جمعتهـــا أواصر الـــدم والقربـــى
فكــــانت محبــــة وسلامــــا

عامـــرات بالخيـــــر قربـــــا وبعـــــدا
لم يزرهـــــا الـــــخصام إلا لمامـــــا
دب ما بينهـــــا الشقـــــاق فأضحت
تقطـــع العمـــــر فرقـــــة وخصامـــــا
قد بذرت البـــغضاء في الشعب حتـــى
لم يعـــد فيـــه من يصون الذمامـــــا
وإذا الابـــــن نافـــــــر من أبيـــــه
والشقيقـــــان قطعـــــا الأرحامـــــا

ولا يكتفي بهذا الحديث للحاقدين وإنما هو يلحقها بقصيدة اخرى وما هذا بعجيب فنفس الشاعر صفاء وحب وما بغريب أن يرفض الصفاء الحقد وما بعجبي أن يهاجم الحب الحاقدين. اسمعه يقول :

العـــداء المحمـــوم والغـــل والحقـــد
تفشى ما بيـــــن جار وجـــــار
مضى يخـــرق الحواجـــز كالسيـــل
يثيـــــر الشقـــــاق في كل دار
بيـــن زوج وبعلهـــا بعـــد عمـــر
قضيـــاه في نعمـــــة وقـــــرار
بيـــــن ام وبنتهـــــا، بيـــــن جد
وحفيـــد نضا ثيـــاب الوقـــــار
بيـــن مولـــى وخـــادم، بيـــن بان
ومقيـــم، وبيـــــن كأس وعـــــار

ويثور الشاعر الكبير وهو يرى الأزهر الأشم يفقد تفرده بين جامعات العالم فيصيح بقصيدته الأزهر العتيد :

أيـــن منك الرجـــال رجـــال الديـــن
أيـــن الحمـــاة أيـــن التقـــاة؟!

ناشرو العلم والمعارف والنور
على هديهم تسير الحياة
حاملو مشعل الهدى يغمر الناس
فتنجاب عنهمو الظلمات
رافعو راية الشريعة فوق الشمس
تعنو الهامها الهامات
ناصرو الحق في السلام وفي الحرب
إذا ما عدا عليه العداة
لا يبالون بطش باغ ولا عاد
ولم تثن عزمهم مثلات
أوهنوا الأزهر العتيد فأقعى
وتولت أيامه النضرات
وذوى زهرة، وصرح مرعا
وجالت بروضه الآفات
وهوى صرحه وفرق أهليه
من الدهر غربة وشتات
وانطوى عهده وشاهت مجاليه
وحلت بصحته الكارثات

ويروع الشاعر لما أصاب لغة القرآن الكريم من وهن ولما يحاول أعداؤها أن ينزلوه بها فينظم قصيدته الرائعة لغة الوحي يقول فيها :

لغة الضاد أنت بمغيب
بعد ما غاب من بنيك النحاة
نال منك المشيب في ضحوة العمر
الىوى بجامعيها الشتات
ومشى الداء عاتيا في حنايا
ها، عضالا تحار فيه الأساة

وبدت لكنة على السمع عجما
ء، ورانت آياتها البينات
قوضوا صرحها العتيد فأقوى
وتهاوى الأساس واللبنات
خيمت فوقها الكآبة والحز
ن، وراحت أيامها المشرقات
أعرضت ساحة المعاهد عنها
واشاحت بوجهها الجامعات
وغدت كالغريب في العالم الرحب
وسارت على لغاها اللغات
وأين منك الحياة يا لغة الوحي
ومن قاتليك أين النجاة

وأحسب أن الشاعر يحس اليوم أن اللغة لم تقتل وهيهات لأُحد أن يقتلها وهي لغة القرآن الكريم الذي وعد الله سبحانه وتعالى بحفظه بقوله :

﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾

وقد صدق سبحانه وتعالى وعده وهل أدل على ذلك من أن اللغة العربية لغة القرآن الكريم ما زالت هي لغة العرب ووحدتهم الفا واربعمائة عام وتزيد وستظل ..؟ اطمئن أيها الشاعر الكبير فما كان لهذه اللغة إلا أن تعيش وتظل مصاحبة للحياة ما بقيت الحياة ..؟!

ما على ظني بأس

من الطبيعي أن ترد إلي خطابات كثيرة ومن الطبيعي أن تكون هذه الخطابات مختلفة الاتجاهات، وليس من المعقول أن أجيب على كل خطاب يصل إلي، وإنما هناك خطابات بذاتها أجدها تفتح لي موضوعات أجد أن الكلام فيه عام ليس مقصورا على شخصي ولا هو مقصورا على كاتبه.

من هذه الخطابات ذلك الذي جاءني في بريد هذا الاسبوع من الطالب جمال عيسى نافع بكلية الاعلام. والخطاب سؤال بريءٌ شريف عما يدعوني أن أتجه بكتاباتي في بعض الأحيان إلى الطابع السياسي أو المضمون السياسي ويرى هو أنه أحرى بي أن أميل عن هذا إلى الأدب، وخاصة في صفحة الأدب.

والواقع يا صاحبي أن ليس هناك أدب بغير سياسة فأنا لست استاذا في الجامعة أتناول الموضوعات الأكاديمية كالجمال الفني عند البحتري وجزالة اللفظ عند المتنبي وسلاسة الاسلوب عند البهاء زهير، ولا أنا أيضاً ناقد أتناول بداية الرواية في الغرب وتطور الأساليب الروائية والنظريات الأدبية من كلاسيكية إلى رومانسية إلى واقعية إلى دادية إلى رمزية إلى ما يمونه اليجوري إلى العبثية.

أنا يا صديقي لست بهذا، إنما أنا كاتب روائي وكاتب قصاص وكاتب تمثيلية إذاعية سابقاً ومسرح سابقاً أيضاً وكاتب مقالة أدبية بما أنا روائي

وقصاص والمقالة يا سيدي نوع من أنواع الأدب لها حريتها التامة أن تتناول ما شتاء من شؤون الحياة، وإنما يطلب من الأديب كاتب المقال أن يظل أديباً فيختار تعبيره ويقدم مقالته بشكل فني لا يهبط به عن المستوى الأدبي الذي ينبغي أن يتسم به.

وليس هناك يا أخي أدب بلا سياسة فالأدب بلا سياسة لغو انما الأديب شاهد على عصره وهو لسان هذا العصر وكلمته ورأيه وصيحته وأحياناً هو صرخته.

ولا أعرف أنني كتبت رواية أو قصة بعيدة عن السياسة فإن لم تكن السياسة هي أساسها فهي خلفيتها ولو أنك تتبعت معي الروائيين الذين نحترمهم في العالم الغربي أو العالم العربي لوجدت أن السياسة إن لم تكن صلب رواياتهم وأساسها فهي تطل عليك من خلف الرواية في الحاح وإصرار ..

والأديب هو مرآة العصر وإذا لم يستطع الأديب أن يكون ابن عصره فأولى به أن يختفي من الحياة.

فأنت إذا قرأت بلزاك في فرنسا عرفت كيف كانت فرنسا في عصر بلزاك وإذا قرأت شولستوي ودستيوفسكي في روسيا عرفت ما هي روسيا في عصرهما وإذا قرأت ديكنز في انجلترا عرفت كيف كانت الحياة في انجلترا في عصر ديكنز ولعل كتابة مذكرات بيكويك يغنيك كل الغناء ويغنيني معك عن مزيد من التفصيل.

والأمثلة التي اخترتها أنت لي من مقالاتي أمثلة كان أولى بك أن تراها أدباً فالذي لا شك فيه أن الشكل الذي تقدمت به إليك هو شكل فني وهذا عملي أنا، أما تفسيره واستخراج ما وراءه من أعماق فهو عملك أنت، فالواقع إذن أنك أنت الذي كنت سياسياً حين قرأت مقالي أو قصتي بينما لم أكن أنا الا أديباً قدم خاطرة فنية في شكل جديد يجمع بين القصة والمقالة وليس علي أنا حرج ولا قيد أن أختار لما أكتب الشكل الذي يحلو لي.

وإذا كنت يا صاحبي قد فسرت قصتي أو مقالي تفسيراً سياسياً فهذا شأنك وليس شأني أما وربما بل لعل الأرجح أن الغالبية العظمى من القراء ساروا على نهجك ونسجوا على منوالك ولكن هذا يظل شأنهم هم وليس شأني.

على أن هذا الحديث ليس مانعي أن أكتب مقالات سياسية صريحة لا مجال فيها لتأويل ولا اختلاف في شأنها عند التفسير لأن الأديب المنشئ له أن يختار لتفكيره القالب الذي يحلو له وليس عليه في ذلك سلطان الا نفسه وما تمليه عليه.

ولست أدري يا أخي لماذا تريد أن تفصل الأديب من السياسة، أليست السياسة هي العناية بأمر الشعب والعمل على إسعاده بكل الوسائل الممكنة أو ليس الأديب هو ذلك الانسان الذي أصبح الشعب هو عجينته وهو دماؤه وهو شرايينه، أو ليس من الجسم أن يكون الأديب منقوعاً في تقاليد بلده وقيمها تشرب كل قطرة من قطرات أخلاقها وتشكل بها حتى أصبح هو بلده وأصبحت بلده هو فإن كان الأمر كذلك وانه لكذلك فمن يكتب في السياسة إذا لم يكتب الأديب.

وبعد يا أخي إذا لم يكن الأديب هو ذلك الذي أعتقد أنا أنه كذلك أليس من دقة على الأقل أن يكون مصرياً مثل كل المصريين أفتتيح لكل مصري أن يتكلم في السياسة ولا تسمح لأديب أقل ما يوصف به أنه يعرف كيف يكتب أن يكتب في السياسة.

وأنت يا أخي نسيت ــ لا شك ــ شعر شوقي في السياسة فهل أذكرك ببعضه وما البأس ما دمت تحب الأدب، اقرأ شوقي وهو يصف المؤتمر الذي تم فيه الصلح بين الأحزاب :

صرح على الوادي المبارك ضاحي
متظاهر الاعلام والأوضاح
ضاق الجلالة كالعتيق مفضل
ساحات فضل في رحاب سماح

وكـــان رفرفـــــة رواق من ضحـــى
وكـــان حائطـــه عمـــود صبـــاح

إلى أن يقول :

هبت سماحـــا بالحيـــاة شبابهـــا
والشيب بالارمـــاق غيـــر شحـــاح
ومشت إلـى الخيـل الـــدوارع وانبـــرت
للظافـــر الشاكـــي بغيـــر سلاح
وقفـــات حق لم تقلهـــا امـــــة
إلا انثـــنت أمالهـــا بنجـــاح
وإذا الشعـوب بنــوا حقيقـة ملكهــم
جعلـوا المآتـــم حائـــط الأفـــراح

ويصف رجل المؤتمر فيقول :

شمس النهـــار تعلمـــي الميـــزان من
« سعــد » الديـــار وشيخهـــا الـــنضاح
ميلـــي انظريـــه في النـــدى كأنــــه
عثمـــان عن ام الكتـــاب بلا حي
عدلـي الجليل من الجليـــل من المـــلا
والماجـــد ابـــن الماجـــد المسمـــاح
حلـــو السجيــــة في قنـــــاة مرة
ثمـــل الشمائـــل في وقـــار صاح

ويقول عن محمود باشا والد محمد محمود باشا الذي استضاف المؤتمر في بيته :

يا دار محمـــود سلـــمت وبـــوركت
أركـــانك الهرميـــة الصفـــاح
وازددت من حسن الثنـــاء وطيبـــه
حجـــرا هو الـــدرى في الأمـــداح

الامــــة انتقـــــلت إلــــيك كأنمـــــا
أنزلتهـــــا من بينهـــــا بجنـــــاح
بركـــات شيـــخ بالصعيـــد محمـــل
عبء السنيـــــن مؤمـــل نفـــــاح
بالأمس جاد علـــى القضيـــة بابنـــه
واليـــــوم أواهـــــا بأكـــــرم ساح

وبعد فقد اخترت هذه القصيدة وحدها لاقنعك بها ولو شئت لذكرت لك مئات الأبيات لشوقي في السياسة.

وبعد يا أخي فإني أشكر لك خطابك وعهد بيني وبينك وبين القراء ألا يقرأوا لي إلا أدباً وكن على ثقة يا سيدي أن السياسة هي أهم ما يتناوله الأديب سواء كان هذا التناول بالمقالة الصريحة أو المقالة الرمزية أم بالرواية أم بالقصة أم بالمسرحية وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعينني أن أحفظ عهدي هذا إليك وإلى القراء وهو عهد قطعه على نفسه الأئمة الرواد هيكل وطه حسين والعقاد والمازني والزيات وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وكلهم أديب فنان، ثم جاء نجيب واحسان والسباعي والشرقاوي فكانت أغلب رواياتهم سياسية ما عدا شيخنا نجيب محفوظ فإن كل رواياته سياسية بالرمز والتنكير والتصريح أيضاً. ولو كنت تقرأ لنجيب مقاله الاسبوعي في الأهرام لرأيت أن الأديب الفنان إذا لم يكن على أعمق وعي بحياة بلده السياسية فأولى به أن يترك مهمة الأديب الروائي والقصصي ويبحث له عن صنعة اخرى ولو أنك قرأت أعمال أخينا عبد الرحمن الشرقاوي الروائية والقصصية والمسرحية لوجدت السياسة تدمغ كل سطر فيها.

وبعد يا أخي فقد كان سؤالك غاية في البراءة والشرف ولهذا وجدت من حقك علي أن اجيبك بكل إخلاص وبشيءٍ من الاطالة أيضاً، ومع ذلك فإني على استعداد أن أناقشك الرأي وأنسى تماماً أن لي صفحة أكتب فيها في حين لا صفحة لك فاعتبر صفحتي هذه صفحة لك حتى تقتنع أنت أو أقتنع أنا وما عليك إذا اقتنعت بأس ولا علي أنا أيضاً إذا أقنعتني. وسلام عليك.

قطة أكلت بنيها

في أربعينات هذا القرن صدر كتاب للكاتب الامريكي جون جنتر والكتاب اسمه « في داخل آسيا » (Inside Isia) ويقول الكاتب في المقدمة إنه كان يريد أن يسمي الكتاب خارج آسيا ولكن الناشر ألح عليه أن يكون الاسم كما صدر به الكتاب. وعلى أية حال ليس للاسم في ذاته أثر فيما اريد أن أستشهد به إلا في أنه ذكر بعض الأشياء عن مصر في هذا الكتاب ولست أدري لماذا اعتبرها جزءاً من آسيا إلا أن يكون ذلك تحت تأثير شهرة مصر العربية ولم يتصور الكاتب أن يكتب عن العرب ولا يكتب عن مصر.

إنما أهم ما لفت نظري في هذا الكتاب الذي كتبه المؤلف منذ أربعين عاماً هذه الجملة التي سأنقلها إليك بنصها الانجليزي ثم نعجب معاً مما جاء فيها يقول عن بعض البلاد العربية ما يلي

They live on the soil - when there is any soil « Yemen Produces coffee, Egypt cotton, Iraq dates, Palestine oranges, and Syria trouble »

وترجمة العبارة ان هذه البلاد تعيش على الأرض الزراعية ما وجدت الأرض الزراعية، فاليمن تنتج البن ومصر تنتج القطن والعراق تنتج التمر وفلسطين تنتج البرتقال وسوريا تنتج المتاعب.

وانظر إلى عبارة الكاتب الأمريكي وافكر كيف كان يمكن أن يكتبها أو قدر له أن يؤلف كتابه عام ١٩٨٣، أحسب أنه كان يقول أن اليمن أصبحت يمنين أحداهما انضمت إلى الأراضي السوفيتية والاخرى ما زالت مصرة على

إسلامها وعروبتها واختفى البن من اليمنين معاً، ومصر تنتج القطن لا تزال ولكنه يتناقص فيها لتنتج بدلا منه مصنوعات وبعض محاصيل اخرى وبعض بترول وهي تنتج دائماً الثقافة والعقول وإنها وإن كانت تستورد المال من الخارج فإنها تصدر العقول والرجال والثقافات إلى هذا الخارج. أما العراق فينتج اليوم البترول ويصد غارات الهكسوس من مدعي الاسلام الزاحفين عليه من إيران، أما فلسطين فشريدة في أرجاء العالم وسكانها اليوم دولة تصدر القتل والظلم والجبروت ونقض العهود والمعاهدات الى العالم العربي أجمع واسمها اسرائيل، أما سوريا فهي الدولة الوحيدة التي ما زالت على حالها ..

فهي أكبر مصدر للمتاعب في آسيا والشرق الأوسط جميعاً.

حاربت إسرائيل فأعطتها الجولان، وأصبحت الجولان جزءاً من إسرائيل وحاولت أن تخفي خزيها وهوانها فاستولت على سهل البقاع في الدولة العربية لبنان زاعمة أن جنودها هناك ليحموا لبنان من الغزو الاسرائيلي ومن الصراع الداخلي.

وتحارب إسرائيل لبنان عدة مرات وتصيح سوريا نحن هنا على الخط الآخر لا نشترك في الحرب .. عجيبة ففيم اذن كان احتلالهم لسهل البقاع وللأرض اللبنانية، ثم تجتاح إسرائيل لبنان اجتياحاً كاملاً وتحتلها وتحطم للقوات السورية جميع بطارياتها لا تنجو منها سوى واحدة أو اثنتين من عشرين ونيف إذن فهذه البطاريات لم يصل إلى علمها أن هناك على مبعدة امتار منها جيوشاً إسرائيلية تجتاح المنطقة، وإلا كانت قامت بواجبها الذي خلقت له، ولكنها كانت مغلقة نائمة .. فالمنطقة حولها في حالة حرب طاحنة مستعرة اللهيب قاصفة آخذة لا تبقي ولا تذر.

وسوريا وجيشها بالبقاع في حالة سلام تام.

فلم يكن عجيباً أن يصرح متحدث أمريكي رسمي أنه ثبت لهم بالدليل القاطع أن سوريا قد عقدت اتفاقاً مع إسرائيل.

والواقع أن هذا التصريح كان إعلاناً لحالة لا يشك في صحتها أحد.

وفي داخل لبنان تصبح سوريا اليوم هي الصراع الداخلي الأكبر مع أنها تدعي أنها ذاهبة إلى هناك لتحول دون هذا الصراع الداخلي.

ويطلب إليها لبنان أن ترحل عنه بجيوشها فتحاربه وتطلب منها امريكا أن ترحل فتلجأ إلى حليفتها اسرائيل ويصطنعان الحجج ليظل كل منهما في مواقعه بلبنان.

وتشكل سوريا ــ مصدر متاعب آسيا ــ أمراً عجيباً فهي تنتمي إلى روسيا بولائها وتستجلب منها الأسلحة وتعطيها روسيا الأسلحة التي تعرف أنها أصبحت قطعاً من حديد بال إذا قورن بالأسلحة الحديثة اعتبر كأنه سيوف خشبية ودروع مسرحية.

ومع انتمائها إلى روسيا تستجدي من أمريكا ومن عجب أن أمريكا تستجيب لها.

والسلاح الذي تأخذه سوريا من روسيا لا يستعمل ضد إسرائيل وإنما يستعمل ضد سوريا نفسها وتدك به مدناً بأكملها من سوريا بأسلحة سورية وجيوش سورية حتى يصل عدد القتلى من السوريين بين الجيوش السورية إلى ما يزيد عن خمسين الفا يصل بها بعضهم إلى مائة الف، حتى إذا دكت سوريا مدن سوريا وقتلت البشر من سوريا تحولت اليوم إلى لبنان تقتل من بنيه من يطالبون بخروجهم.

واذكر بيت شوقي

فيـــا لك قطـــة أكـــلت بنيهـــا
وما ولـــدوا وتنتظـــر الجنينـــا

والقطة التي تسمي نفسها أسداً أكلت بنيها لأنها تخشى أن يأكلها بنوها. وسوريا اليوم مصرة على ألا يعود جيشها من البقاع اللبناني إلى سوريا لأن رئيسها لا شك يعرف تمام المعرفة ماذا سيفعل جيش عائد من ميدان صدرت له فيه الأوامر ألا يحارب العدو وأن يترك هذا العدو يحطم أسلحته وفي نفس الوقت الذي حاصرتهم فيه أوامر قيادتهم أجهزت قيادتهم هذه على أبائهم

وأبنائهم وزوجاتهم في مدنهم وقراهم وفي بيوتهم التي يلتمسون فيها الأمن والسكينة والتي ينبغي على قاتليهم أن يوفروا لهم هذا الأمن وتلك السكينة فإذا الأمن دمار وإذا السكينة هلاك.

وسوريا تعارض سلام كمب دافيد، وتجدد طلبها ببقاء قوات السلام في أراضيها كلما انتهى موعد بقاء هذه القوات .. فهل يتصور أحد أن دولة ما تستمسك في إصرار وعنف بالسلام المؤقت وترفض في إصرار وعنف السلام الدائم.

ولكن أي شيءً عن سوريا يمكن أن يتسم بالمعقولية أو بالانسانية أو بأي معنى من المعاني التي تدل على أنها دولة لها كيان الدولة وأهدافها وسياستها وسواسها. إنما كل ما يهدفون إليه أن يظل الحال على ما هو عليه ولتذهب القضية الفلسطينية إلى الجحيم ولتنشب الحروب الداخلية في لبنان جميعاً وليفن الشعب السوري كله ما دامت السلطة الحاكمة جالسة على كرسي الحكم .. ألم أقل لك إنه قطة أكلت بنيها.

إذا رضيت فحسبك

قال صاحبي :

ــ إنني في موقف ما أظن أن أحداً شهده قبلي، لي صديق رفيق الحال أعينه على الحياة ما أتاحت لي الحياة أن أعين، وقد وقفت إلى جانبه منذ عرفته ونحن صبيان في معاهد الدراسة الاولى، ولم يكمل هو تعليمه واستطعت أن أسعى له أن يعين بما نال من شهادة متواضعة ثم مرت بنا الحياة لا يفارقني فهو يسعى إلي في أوقات متقاربة يستعينني فأعين إن كان بمال فبمال أو كان برجاء لدى مسؤول فبرجاء حتى أصبح يعتبرني مسؤولاً عنه مسؤولية شخصية واستقر في نفسه أن من حقه أن يطلب دائماً واستقر فيها أيضاً أن ليس من حقي أن أرفض أو أتردد أو أفكر في التردد.

وحين تمر السنوات الطوال على منوال واحد يصبح نسيج هذا المنوال أمراً مفروغاً منه لا يقبل التعديل أو التغيير .. وهكذا استقرت الصلة بيني وبين هذا الصديق، ولكن النفس لا تستطيع أن تطمئن إلى وضع هي غير راضية عنه .. وهذه النفس شأنها عجيب فهي قد تقبل الأمر لسنوات طوال ثم فجأة تتفجر ثائرة وتأبى ما كانت ترضاه وترفض ما كانت تقبله.

وقد ثارت علي نفسي في هذه الأيام والعجيب أن عقلي يؤيدها في ثورتها ..

فأنا شخص أسعد بعمل الخير، وأحمد الله دائماً كلما مكنني أن اقدم

معروفاً لانسان وأشعر أن الله يكرمني بأن جعلني أستطيع أن أكون ذا فائدة لانسان .. مهما يكن شأن هذا الانسان .. وأنا يا صاحبي لم أرد طالب حاجة أستطيع أن أقضيها قط أو أنا على الأقل لا أنكر أنني فعلت ذلك في حياتي ولم أفكر يوماً أن أكون هذا الذي سعى له عدواً أم صديقاً، ولكن نفسي مع ذلك ثائرة علي بشأن هذا الصديق في هذه الأيام ثورة عارمة لا تهدأ ولا تستقر بي على قرار.

أما ان عقلي يزيدها فهذا أمر طبيعي فصديقي هذا الذي حملت عبء حياته طوال حياته يملك قدراً من الحقد لو وزع على العالم أجمع لجعلهم جميعاً حاقدين، قد يشكر لي المعروف حين أقدمه ولكنه لا يستطيع أن يخفي عن عينيه ذلك البريق الخاطف من الغضب أن يدي هي التي تعطي ويده هي التي تأخذ وأنني المفضل دائماً في حين هو المفضول على سبيل الدوام والاستمرار وبغير استثناء.

قلت لصاحبي :

ـــ ما الذي يغضبك من حسده؟

قال :

ـــ الحسد نفسه

ـــ والذي يغضبك من الحسد

ـــ قد لا يعنيني الشكر وقد لا يعنيني أيضاً أن أحس أنني صنعت الجميل في مكانه أو في غير مكانه أما أن ينقلب ما اقدمه من خير حسداً علي ...؟

ـــ ألا تشعر بالسعادة وأنت محسود؟

ـــ أشعر بالتعاسة أن يحسدني من اقدم له الجميل

ـــ فأنت المخطئُ إذن وليس هو

ـــ خطأ لا أستطيع أن أصحح، إنه شعور مني بالغضب لا أستطيع أن أتقيه.

ـــ أعتقد أن غضبك في غير موضعه، فالذي يحسدك ينال جزاءه من داخل نفسه، فهو يحترق بغضبه وأنت لا ينالك من حسده شيءٌ يضيرك.

ـــ ألست إنساناً .. أليس لي الحق أن أشعر بسعادة الذي اقدم له المعروف

فإذا رأيت في عينيه بدلاً من هذه السعادة حقداً وحسداً ألا يحق لي أن أغضب أو أحزن على الأقل.

ــ هل سألت نفسك يوماً لماذا تقدم الخير لمن تقدمه له؟

ــ لا والله ما فعلت

ــ فأنت إذن تقدم الخير عن طبيعة لا عن تصنع

ــ أو اقدمه لأنني لا افكر أن أمتنع عن عمل خير أستطيع أن اقدمه

ــ لم يختلف الأمر إذن

ــ ولكن الطرف الآخر .. ألا يشكر.

ــ وماذا يعنيك من شكرانه

ــ أليس من الطبيعي أن أحس إنني أسعدته

ــ إذا كان هذا هدفك أصبح ما تطلبه من حقك

ــ لا .. أنا لا أظن أن هذا هو هدفي

ــ الحقيقة أنك تشعر بالسعادة لأنك قدمت خيراً وأنت بهذه السعادة قد نلت مكافأتك وليس من حقك أن تطلب أكثر من هذا .. بل أنني أعتقد أنك نلت بسعادتك أعظم الجزاء فماذا تريد أكثر من هذا؟

ــ لعلك على حق

ــ لقد فعلت خيراً وسعدت به ونال المفضول خيراً وشقى به فكلاكما نال الجزاء الذي يستحقه وهو جزاء عادل لا ظلم فيه.

ــ ولكنني مع ذلك كنت أرجو أن أجده سعيداً

ــ إن الحقد والحسد مرضان فلماذا تشقى أنت بمرض غيرك

ــ أليس من الطبيعي أن يشقى الانسان لمرض الآخرين

ــ إذا لم يكن هؤلاء الآخرون هم الذين يصنعون أمراضهم بأيديهم.

ــ ومن يدري أليس من الممكن أن يكون الله قد خلقهم مرضى بالحسد والحقد فافقدهم الشعور بشكر المعروف.

ــ لقد بدأت تدافع عنهم

ــ أهذا دفاع

ـــ لقد جعلت من أمراضهم أمراضاً خلقية
ـــ ألا يجوز هذا
ـــ لا أظن وإنما أعتقد أنهم هم الذين يغذون الحقد في نفوسهم ويمرنون عليه ويلتذون به.
ـــ أفي الحقد لذة؟
ـــ من الناس من يجد لذة في الشكوى في غير داع للشكوى وهكذا الحاقدون والحاسدون
ـــ لقد بدأت أنت تهاجمهم
ـــ إنما قصدت أنهم يستطيعون أن يشفوا أنفسهم من أدوائهم ولكنهم لا يريدون ومع هذا ليس هناك ما يدعوك أن تغضب منهم وإنما هناك ما يدعوك ويدعوني أن نشفق عليهم فهم في شقاء لا ينتهي، وأي بؤس أدهى من إنسان لا يرضى، والله يقول لنبيه ليبشره ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ والرضا قمة السعادة وعطاء الله هنا وهو هذه القمة، لم يقل سأعطيك ملكاً ولا مالاً وإنما اكتفى بقوله إنه سيعطيه ما يجعله يرضى فالرضا مكانة لا ينالها أعظم ملك ولا يبلغها أعظم مليونير فإذا أنت رضيت وأنت تعطي فحسبك .. فقد بلغت وأنت المعطي ولم يبلغ حاسدك وهو الآخذ ..!

يكفيك هذا قال صاحبي في سعادة :
ـــ الحمد لله.

إذا تفرقوا لم يعرفوا

سئل الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

ـ من السفلة؟

فقال رضي الله عنه :

ـ الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا، وعجيب أن يعرف علي بن أبي طالب السفلة بهذا التعريف الدقيق، فإنه من المستحيل أن يتاح لأحد أن يعرف الغوغائية بهذه الفصاحة وهذا البيان. فهناك صنف من الناس يعرف بعضهم بعضاً أوثق المعرفة وألصقها يتجمعون على اتفاق أو على غير اتفاق، فإن كان تجمعهم على غير اتفاق سرعان ما تنضم صفوفهم ويلتئم متفرقهم وحينئذ يشتعلون ضجيجاً وصياحاً وصراخاً فهم النار ذات الأوار والحسيس. أما إذا انفرد الواحد منهم خفت صوته حتى لا تسمع له حساً.

اولئك كما وصفهم علي هم السفلة فالفرد منهم ليس بذاته وإنما هو قوي بغيره فهو إنسان لم يكتمل .. وهو جزء من إنسان لا يعرف له وجود إلا بوجود غيره، وكل اولئك يشعر الفرد منهم أنه لم يكتمل بشراً سوياً. وأنه لا يستطيع أن يعبر عن رأيه إلا إذا وجد بجواره من يجأر بالصوت المرتفع والجعجعة الفارغة والضجيج الذي لا يفصح والسعار الذي لا يعلل والنباح الذي لا يبين، فالفرد منهم ليس واثقاً من رأيه وليس مقتنعاً بما يدافع عنه وليس يحس أنه كيان بشري مكتمل بذاته وإنما صاحب منفعة وذو غرض ولا

يستطيع أن يعلن على الناس أنه بائع لنفسه ورأيه وضميره فهو لا يتكلم وهو فرد وإنما يصيح حين يرى هذه البقايا البشرية متجمعة أنه يهم يستطيع أن يصيح وينبح حتى ليبدو لمن يراه ولا يعرف حقيقته أنه صاحب رأي وأنه لم يبع رأيه هذا لقوم تخصصوا في شراء الأدميين وآرائهم.

تلك جماعة فشت بين الناس بتجمعها وقد يكون صياحها سبباً وهو دائماً هجوم لأن الانسان إذا لم يكتمل إنساناً اقترب من الحيوان، وحين يصبح البشر حيواناً تصبح الدماء ـ وهي الدماء ـ رخيصة عنده لأنها تمثل الانسانية وهو يكره الانسانية لأنها لم تجعل منه شيئاً منفرداً وصنعته إنساناً غير مكتمل الكيان وواضح المعالم أو بين السمات ذات وجود فوجوده لا يكتمل إلا بغيره، فهو إنسان بغيره وليس إنساناً بنفسه فالانسانية عنده معنى يستحق القتل والسحق والفتك.

وما دام القتل أصبح هيناً والدماء أصبحت ميسورة السفك وحياة الانسان أصبحت شيئاً رخيصاً لا قيمة له فكرامات الانسانية إذن وقيمها وكل ما هو نبيل وشريف في ساحة البشر يصبح هباء أو يصبح شيئاً يتوجب القضاء عليه ومحوه من الحياة والغاؤه من الوجود.

وحين يقول الامام على كرم الله وجهه وإذا تفرقوا لم يعرفوا، لم يقصد بالمعرفة هنا الشهرة أو أن يكون الرجل ذا جاه أو ذا مال أو سطوة وإنما يقصد بالمعرفة أن يكون هيناً على نفسه ومن هان على نفسه هان على الناس والهين على نفسه يجلس في المجلس فيلقي بالكلام على عواهنه بلا تفكير ولا تدبير فالذي يفكر إذا تكلم ويتدبر الحديث رجل له كرامة ويريد أن يحافظ عليها أما غير ذي الكرامة فما الذي يخشاه؟ إنه كمالمفلس الذي قيل عنه في الأمثال إنه يغلب السلطان أو كالبلاط الذي لا تستطيع الريح أن تنال منه شيئاً، فهو لا يعنيه أن يكون محترماً عند الناس أو ذا مكانة ولست أنسى ذلك الحوار الذكي الذي دار بين اثنين من العرب حين قال أحدهما :

ـ والله ما ابالي مدحني الناس أم ذموا.

فأجابه الآخر :

ـ إسترحت من حيث تعب الكرام.

والاجابة هناك لا يقصد بها صاحبها أن الكرام تعبوا لينالوا مديح الناس بالنفاق والمداهنة أو بالاحسان للتظاهر بالاحسان أو بأن يبدو غير ما يخفون فالكرام يتعبون لأنهم يحملون أنفسهم من أعباء القوم ما يستطيعون أن يتخففوا منه فإعانة المحتاج، وإغاثة الملهوف، وعيادة المريض، والوقوف بين الزمن وبين البشر ان يغلو بهم، أو يعتدي عليهم، ومناصرة المظلوم، ومحاربة الظلام، وقول الحق، والصدق مع الله ومع النفس، والعفو على مقدرة، والغفران وإن كان صاحب حق، والبعد عن الصغار وكظم الغيظ وانفساح البيت وسعة النفس كل هذه تكلف الكرام من أعصابهم ومن مالهم ما لا يطيقه إلا الأقوياء. وحينئذ يمدح الناس فحين يستغني شخص عن مديح الناس ولا يعني بذمهم يكون فعلاً قد استراح حيث يتعب الكرام.

مثل هذا المستريح هو الذي عناه علي رضي الله عنه بأنه من هؤلاء الذين إذا تفرقوا لم يعرفوا ..

وقد يكون هذا المستريح من هؤلاء الذين إذا تجمعوا غلبوا لأنه مثله ينسجم في خلقه مع الفكر الغوغائي واصطناع الجلبة على غير هدى والصراخ من الحنجرة لا من العقل ومن أين له بالعقل. وهو لا يعني مدحه الناس أم ذموا؟

ومثل هؤلاء ممن لا كرامة لهم يبحثون عن ظواهر الامور ومن كان هكذا فهو يصب أن تبدو عليه علامات الغنى دون أن يعنى أقل عناية بمصادر هذا الغنى فلتكن سرقة أو استباحة محرمات أو أتجارا بالشرف في معاملة في المخدرات وتستطيع أن تضع الفتحة أو الكسرة عند الدال ولا تكن قد تجاوزت الحق على الحالين، مثل هؤلاء بضاعتهم كل شئ يتدئون الصناعة بضمائرهم وقد يكون منهم صاحب قلم فيبدأ ببيع الذمة ومن باع الذمة الذي هو ضميره لا يقف به في سوق الهوان رادع أو خلق أو وازع أو شرف وإن كنت اسفا أن أذكر كلمة الشرف في هذا المكان.

مثل هذا من هؤلاء الذين إذا تفرقوا لم يعرفوا وإن كانت شهرته تطبق أفاق الأرض، فليس المهم أن يكون الانسان شهيراً وإنما الأساس المهم هو بماذا اشتهر، فإذا كانت شهرته مبعثها النفاق والهوان وبيع الضمير فكلما اتسعت هذه الشهرة ازدادت الهوة التي تردى فيها انحطاطا وعمقاً وغوراً في مجاهل الأرض، وحينئذ يصدق عليهَ قول علي إنه من هؤلاء إذا تفرقوا لم يعرفوا ..

وإذا لم يكن مشهوراً ولا يعرفه إلا قلة من الناس ولكن يعرفون عنه كل ما هو مشرف وكريم ورفيع سامق، كان من هؤلاء الذين يقصدهم، علي بقوله أنهم معروفون، ورحم الله عليا ونفعنا كما نفع الأجيال السابقة جميعها بعلمه وبفضله وبالقواصل المحكمة من حكمه وأرائه.

راهب الليل :

ديوان جديد لطاهر أبو فاشا

الشاعر طاهر أبو فاشا واحد من أعظم معالم جيله من الشعراء وهو الجيل الذي خلف شوقي والذي ضمته جماعة أبوللو وان كان أبو فاشا فيما أعلم لم ينضم إلى هذه الجماعة ربما لبعده عن القاهرة عند نشوئها ..

والأمر الذي لا شك فيه أن الله خلق طاهر أبو فاشا ليكون شاعراً، فالشعر عنده شلال ينسكب عن صنع السماء لو حاول أحد أن يقف في مجراه جرفه وتدفق في ثراء لفظي وفني وفي تجدد دائم شان ماء الأنهار الرقراقة الصافية وفي موسيقى علوية منفردة وفي جرس يقع من أنفك ومن مشاعرك موقعاً لا تملك أمامه إلا أن تنتشي وتطرب وتهتز هذه الطرب والسعادة وترقى بروحك إلى سماوات من الفن يندر بين الشعراء من يرقى بك إليها.

وقد أصدر طاهراً أبو فاشا هذا الاسبوع ديوانه الثالث وكم يحزنني أن الفارق الزمني بين ديوانه الثاني وديوانه الثالث هذا الأخير شارف على الأعوام الخمسين فآخر ديوان صدر له كان الأشواك وكان ذلك في عام ١٩٣٤، ولكن لا عجب في ذلك فقد حدث في آواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات أن اتصل الاستاذ طاهر أبو فاشا بالاذاعة وما لبثت هذه الصلة أن توقفت حتى شغلته عن الشعر لا يقوله إلا مضطراً فقل إنتاجه الشعري وغزر إنتاجه الاذاعي وكانت مسلسلة ألف ليلة وليلة التي يتضح فيها بجلاء إحساسه باللفظ العربي

والعامي على السواء وكانت هذه المازجة الرائعة التي توصل إليها مثار إعجاب خارق من الجماهير وكانت الاذاعة في ذلك الحين في أوج عظمتها لا يزاحمها التليفزيون ففتن الناس بألف ليلة وليلة وخاصة وقد تولى إخراجها إذاعي من أعرق الاذاعيين في الوطن العربي هو الاستاذ محمد محمود شعبان « بابا شارو » وقامت العملاقة زوزو نبيل بدور شهرزاد فصنعت بهذا الدور قمة جديدة للفن الاذاعي وأغرى النجاح الساحق الشاعر العبقري طاهر أبو فاشا أن يواصل الكتابة للاذاعة وينسى فنه الأصيل حتى كتب لأم كلثوم رابعة العدوية فعاد برابعته إلى الشعر هوناً ثم إلى الفن الاذاعي رجع وهجر الشعر مليا.

أنعتب عليه أم نعذره لا ندري، فلو كان في غنى عن المال الذي حققته له ألف ليلة وليلة لما ترددنا في العتب ولكن كيف السبيل إلى ذلك والأديب في مصر مضيع وعليه أن ينحت الصخور ليستطيع أن يحيا حياة قريبة من حياة البشر، فلا لوم عليه إذن ولا تثريب ولا عتب عليه من الشعر وإنما أسى منا وأسف على الشعر وعلى مكانته في مصر.

فإن طاهر أبو فاشا لو كان قد تفرغ للشعر لأعطى لنا عطاء يتقاصر عنه عباقرة الشعراء في الوطن العربي أجمع، فلنترك إذن الأسى والأسف ولنلق نظرة على هذا الديوان الذي أشرق على ساحة الشعر العربي بعد أربعين عاماً ظلت فيها هذه الساحة تنتظره من هذا الشاعر الفرد العملاق، لنبدأ بما بدأ هو به ونذكر أبيات المقدمة التي كتبها في عام ١٩٨٠ يقول فيها :

أطلت في ليلها قيامي
وعشت في ضجة الصوت
وضل ركب السورى أمامي
فلا نبات ولا نبوت
وكنت أخشى من الكلام
فصرت أخشى من السكوت

ترى أيعتذر الشاعر بهذه الأبيات عن صمته الطويل، فما أجمل الاعتذار

إذن وما أجمل وعيه بالكلمة وإحساسه بها وليس ينبغي أن يفوتنا التزامه بقافيتين لا واحدة إحداهما في المصراع الأول والثانية في قافية الأبيات مما يدل على القدرة إن كانت مقدرته تحتاج إلى دليل.

ولنمض سويا عبر الديوان، ولنقف عند قصيدته الباذخة رجعة إلى مويس وأنا واثق أن انتسابي إلى شاطئ مويس ليس السبب في اختياري هذا وحين تقرأ الأبيات ستعرف أنني لم أكن شرقاوياً متحيزاً في اختياري.

وصل الركب يا نديم فهات   هذه رملتي وتلك رباتي

الرياض اللفاء والرفرف الخضر ومغنى الصبا وملهى اللذات
ومعاني عماتك النخل فرعاء صموتا كعهدها قائمات
ومويس السكران راوية الحب وساقي لحونه الثملات
معبد الراهب الخليع بساط للندامى وموعد للغواة
العجوز الزنديق خمارة الشعر وعزى ندماتها واللات
خطر الفن حوله فجثا يستغفر الحسن والعون اللواتي
وعلى صدره بغام حنين وعلى شط عرام سقاة
أنا أيضاً من السقاة ولي في ذلك الشط قصتي ورواتي

إلى أن يقول وما أروع ما يقول :

من ترى أيقظ الخواطر حولي   وأثار المطوى من صفحاتي
وأعاد الأيام والمعهد السامق   مسروج بالنجوم الهداة
الفحول الأعلام أمثلة الزهد   وشيخانه العدول الثقاة
ورفيق كأنه هامش الشرح   إذا صات يمضغ القافات
حنبلى كأنه الجمل الأورق   صخابة كثير اللتات
ونضج مفلفل لاذع الطعمة   يشوي أصابعي ولهاتي
يتصببى المجاورين فنصب   عليه كالفاتحين الغزاة
أترك المتن واطو حاشية   السعد وادرك شيخون قبل الفوات
أنا من مازن ومازن مني   والليالي القمراء من صدحاتي

إلى أن يقول :

وأنا الشاعر الذي زمزم الكامس فرنت بهذه المرقصات

لبت من عقني والحد بالشعر يرد الأخيذ من خطراتي

واعذروني أنني أطلت في الاختيار فقد قاسيت ما قاسيت لأترك ما تركت من أبيات هذه القصيدة التي يعجز القلم عن وصف روعتها وسموقها وأسألك ألا تحس أن الألفاظ في شعر طاهر تكتسب رنيناً آخر غير الذي تعرفه لها، أولا تحس أيضاً أن القصيدة تموج بالحياة وأن الخطرات فيها أعاصير قوية الأخذ شديدة المراس متنقلاً من شاطئ النهر إلى المعهد الديني إلى شيخانه الى زملائه إلى طعامهم إلى كتبهم منهيا القصيدة متذكراً أنه الشاعر الهتوف على هذه الأغصان بل على أغصان الحياة جميعاً.

أأنقل إليك قصيدة اخرى .. أخشى إن فعلت أن أنقل الديوان كله أو أحس بالحسرة والألم وأنا أترك منه شيئاً فليس فيه بيت لا يستحق الأعجاب والرواية والذكر.

هنيئاً للشعر بظهور هذا الديوان للشاعر العبقري الذي أصر على أنه واحد من أهم معالم العصر في الشعر العربي.

حين يلتوي الزمان

ليس المثل الأعلى أمراً هين المنال، فقد يكون الانسان شريفاً أميناً. وقد يكون صادقاً يحترم كلمته، وقد يكون لطيف المعشر قريب المأخذ شفاف النفس، وقد يكون سمحا طيب الخلق، وقد يكون بعيداً عن كل ما يشين الانسان أو ينقص من كرامته، وقد يكون مؤمناً يؤدي لربه فروض دينه، لا يخلف منها فرضاً، وقد يكون زوجاً رؤوفاً وأباً حانياً أو ابناً مطيعاً لا يسمع منه أبواه إلا ما يرضيان عنه، وقد يكون صديقاً وفياً لا يذكر صديقه في غيبته إلا بخير ويصدقه الرأي عند المشورة ويرعى شؤونه كما يرعى شؤون نفسه ..

قد يكون الانسان هذا جميعاً ولكنه مع هذا لا يكون مثلاً أعلى وإنما يكون إنساناً سوياً وليس سافلاً ولا وضيعاً ولا منحطاً ولا خائناً ولكن لا يكفي ألا يكون واحداً من هؤلاء ليصبح مثلاً أعلى.

إن المثل الأعلى فيما أتصور هو احتمال ما لا يحتمله البشر في سبيل مبدأ أو رأي أو شخص، المثل الأعلى هو ذلك الانسان الذي يصنع ما لا تطيق الطبيعة البشرية أن تحتمله، وهؤلاء يذكرهم التاريخ لأنهم تفوقوا على الانسان فيما يفعلون وفي رأيي أنهم أيضاً يتفوقون على الملائكة لأن الملائكة لأفضل لها في ملائكيتها فقد خلقها الله بطبيعة جعلتها روحا بلا مادة وشفافية مطلقة لا ضبابية فيها ولا اعتام.

والمثل العليا في التاريخ تملا التاريخ والتاريخ لا يسجل اسم الأقوياء ولكنه يذكر فقط من خرق نواميس الطبيعة وارتفع عما تعارف الناس عليه.

يذكر مثلاً الخنساء تلك الشاعرة العظيمة التي بكت أخاها صخراً في الجاهلية وظلت ترثيه عمرها كله فحين دخلت الاسلام وسألوها أتبكين كافراً فقالت :

ــ وهذا ما يزيد حزني عليه.

فهي إذن تعرف اللوعة أشد ما تكون اللوعة، ولكنها أصبحت مثلاً أعلى في الصبر والايمان والرضى والسكينة حين مات أبناؤها الأربعة في موقعة القادسية ونعاهم إليهم الناعي فإذا هي سعيدة بموتهم تتمنى لو كانوا عشرة وماتوا في سبيل الله.

هنا تصبح الخنساء مثلاً أعلى، لأنها استطاعت بإيمانها أن تسمو على الامهات جميعاً واثقة أنها ستلقى أبناءها في خير مكان تتمناه أم لأبنائها وهذه الثقة في ذاتها هي المثل الأعلى فهي تؤمن بقلبها بالله وبالجنة التي وعد بها الشهداء والصديقين وكأنها رأتها رأى عين فإذا هي هائئة الخاطر رضية النفس قريرة العين لموت أبنائها في ميدان القتال لا يعنيها أن تسأل عن شئ إلا أن تطمئن إن كانوا أدوا واجبهم بجرأة وشجاعة في المعركة أم كانوا من الناكصين الجبناء حتى إذا عرفت أنهم كانوا فرسانا صدقا عند اللقاء يتسابقون إلى الموت عازفين عن الحياة طابت نفسها وسعدت وأصبحت على الأزمان مثلاً أعلى.

وأذكر قصة عن الحجاج حين قبض على فئة كانت تحارب وأراد محاكمتها ووضع لمحاكمتها قانوناً لا يسنه إلا الطغاة قال إنه سيسأل هؤلاء الثوار قبل أن يحكم عليهم : على أي دين أنت، فمن قال إنه على دين الاسلام قتله لأن في إجابته اصراراً على الثورة ومن قال إنه لم يكن على دين الاسلام عفا عنه مرتئياً أنه باعترافه هذا كفر عن ذنبه وأنه لن يعود بعدها إلى مناجزته وبدأت المحاكمة وتقدم إليه شاب في ريعان الشباب وفتوته وسأله

الحجاج :

ــ على أي دين أنت؟

فقال الفتى :

ــ على دين محمد عليه الصلاة والسلام

فقال الحجاج :

ــ اقتلوه

فقتلوه، وتقدم بعده شيخ عجوز فسأله الحجاج :

ــ على أي دين أنت

فقال الشيخ :

ــ على دين أبيك الشيخ يوسف

فقال الحجاج :

ــ لقد كان والله قواما صواما أطلقوا الرجل

ويطلقونه ولكن الرجل لم ينطلق ولو كان انطلق ما أصبح علامة من علامات المثل العليا وما ذكره التاريخ ظل الرجل واقفاً وصاح بالحجاج :

ــ يا كافر أيقول لك الفتى أنه على دين محمد فتقتله وأقول أنني على دين أبيك فتطلقني ولو لم يكن لأبيك مساءة إلا أنه أبوك لكفاه خزياً ..

ويصيح الحجاج :

ــ اقتلو الرجل

فيقتلونه ويصبح تاريخاً ومثلاً أعلى في مواجهة الظالم والاقبال على الموت في سبيل كلمة الحق، بينما أصبح الشاب مثلاً أعلى في التضحية بالنفس في المبدأ.

أمثال الخنساء وهذا الرجل وهذا الشاب كثير في التاريخ وهم في الوقت نفسه قلة نادرة في البشرية وأمثالهم هم المثل العليا.

ولكن إذا التوى الزمان وعاج معتدله وانحدرت القيم وهان الشرف، ومات

الحياء، وأصبحت المعاني السامية في الحياة تنخفي في خشية حتى لا يحاربها السفلة .. وحين يضطر الخلق السوي أن يتوارى في خجل حذو التهجم من الكفرة والمجحفين وأكلي لحوم إخوانهم أمواتاً وأحياء، وحين تصبح الكلمة العليا لكل من تسلق على سلم الهوان والنفاق والمتاجرة بكل ما هو حضيض في الهوة السفلى من الحياة، وحين يخجل النبل وتتبجح الخسة، وحين تنزوي الأمانة وتستشري الخيانة.

حينئذ وحينئذ فقط يصبح الأسوياء مثلاً عليا في العالم ونتمدح الأمانة والصدق، ولطف المعشر، وشفافية النفس والسماحة والطيبة والمحافظة على الكرامة، والايمان، ورقة الزوج بزوجته وحنوه على أبنائه وطاعة الابن لأبويه وبره بهما .. وحفظ غيبة الصديق وصدق المشورة .. ويصبح الذين يتخلقون بالخلق السوي مثلاً عليا لأن الحياة فرضت علينا مثلاً سفلى. ولكن لا بد لنا أن نقول حسبنا الله ونعم الوكيل.

فهرس

صفحة

صفحة

الناشر

الشركة العربية للطباعة والنشر والترويج
« سهيل خزندار »

سعر النسخة

السعودية ٣٥ ريال - مصر ٦ جنيهات - لبنان ٢٠٠٠ ل.ل
الأردن ٢ دينار - الكويت ٢,٥ دينار - البحرين ٢,٥ دينار - ق
٣٥ ريال - الامارات ٣٥ درهم - عمان ٢,٥ ريال